كربــلا

إليكـم الحقـيـقـة

صفحة الناشر

كـــربـــــــلا

إلـيكــم الـحقـيـقـة

جـعفـر المـهاجـر

مـركـز بـهاء الدين العاملي للأبحاث والدراسات والتدريب

(مبـدع) www.mobdie.org

فهرست الموضوعات

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

تربّيتُ مثل كلّ لِداتي على أن المجلس الذي تُستعاد فيه ذكرى يوم عاشورا هو جزءٌ لا يتجزّأ من مراسم حياتنا المعنويّة . نستمع فيه بخشوعٍ وأسى إلى ما يُتلى تحت عنوان وقائع ذلك اليوم الرهيب . وكان لنا في بيتنا ببعلبك مجلسٌ أُسبوعيٌّ عصر كل خميس ، يحضره الناس ليستمعوا إلى القارئ العراقي المُبدع الشيخ محمد علي شمسه رحمه الله . وهو من أُسرةٍ نجفيّة معروفة ، نزل بلدة بنت جبيل من بلدان جبل عامل حيث تزوّج وأنجب . ثم استحضره جدُّنا الشيخ حبيب رضوان الله عليه إلى بعلبك من حيث كان يُقيم ، في سياق مساعيه لإحياء مختلف الشعائر، وفي رأسها طبعاً المجالس الحسينيّة . ممّا لم تكُن من قبلُ محلَّ اعتناء الناس في منزله الجديد في بعلبك . بسبب التركيبة السُّكّانيّة البالغة الالتباس للمدينة . التي كانت حتى ذلك الأوان ما تزال مُجرّد تجمُّعٍ ظرفيّ لمهاجرين هابطين من مواطنهم الأصليّة في قُرى السُّفوح والجبال المُجاورة للمدينة : بريتال وطفيل والخريبة وسرعين والجُبّة وعسال الورد ، أو لُمهجّرين مذعورين قادمين من عكّار أو من مختلف نواحي جبل لبنان ، وبالأخصّ كسروان وجبيل ، على أثر انهيار الحكم الحمادي الشيعي فيه . بعد أن كانت بعلبك لمدّة عقود خراباً صفصفاً شبه خاليةٍ من السُكّان ، جرّاء التدمير المنهجي الوحشي الذي أنزله بها فخر الدين المعني . وعلى كلّ حال فإنّ لاهؤلاء ولا أُولئك كانوا يعرفون أو يألفون تلك الشعائر في مواطنهم الأصليّة . ولم يكُن في منزلهم الجديد ببعلبك مَن يحترفُ إحياءها . فكان من أوّل ما اهتمّ به جدُّنا استحضار الشيخ شمسه لسدّ الفراغ . فحضر وأحسن الحضور، بحيث بقي قارئَ البلد الوحيد حتى وفاته سنة ١٩٦٤ م .

ذلك الوعي المُبكّر بالنسبة لديّ على الشّعائر الحسينيّة بدأ يتبدّل بفضل الحملة الشجاعة التي قادها السيّد محسن الأمين رضوان الله عليه . رامياً إلى تحرير الشعائر ممّا علق بها ممّا هو ليس منها . موضوعيّاً من حكاياتٍ ورواياتٍ موضوعةٍ ، تُتلى في المجالس ، ابتغاء تحريك أقصى الشّجى لدى السّامعين ، دونما أدنى اكترات بضبطها

وتحرّي صحّتها . فتُحشى بصنوف المُبالغات غير المعقولة والنقولات غير الصحيحة. وشكليّاً / إجرائيّاً بما زُجّ فيها من أعمالٍ لاتليق بجلال المناسبة ، بل قد يكون بعضُها ممّا لايحلّ ، أو أنّه يُسيء لصورة مَن يقوم بها ومَن وما يُمثّلون ، مثل لطم الصدور لطماً جَماعيّاً عنيفاً ، وضرب الظهور بالسلاسل المعدنيّة . وناهيك بضرب الرؤوس بالمدى والسيوف لإسالة الدماء تعبيراً عن مُؤاساة الضحايا الشهداء . إلى غير ذلك من تشبيهٍ وتمثيل ، استحضره مَن استحضره من بيئاتٍ ثقافيّةٍ غريبة .

أثارت دعوة السيّد الأمين ردوداً مُتعارضة ، اخترقت الجسم الثقافيّ الشيعيّ من أقصاه إلى أدناه . فأيّدها مَن أيّدها . وعارضها مَن عارضها بعُنف وغلظة . وإنني لإخال أن كلا الطرفين لم يكُن على بيّنةٍ من أمره . فلا المُؤيّد قدّم أُطروحةً للبديل عمّا هو دارج ، كما حاول السيّد الأمين بتواضع العلماء في كتابه *المجالس السّنيّة* . ولا المُعارض أصّلَ أو حاول تأصيل ما كان موضع استنكار السيّد ، مُقابل تغريبه هو له عن الحقيقة التاريخيّة وبالتّبع عن مقتضى الأحكام الشّرعيّة . الأمر الذي أودى إلى خروج النقاش المُستعرّ على الحدود الأخلاقيّة ، خصوصاً لدى الجانب المُعارض ، الذي لم يوفّر وسيلةً للنيل الشخصي من السيّد الجليل إلا ارتكبها جهاراً . ومن ذلك نبزه بـ" الأُموي " ، بديلاً عن اسم أُسرته (الأمين) . كما نُظمت في هجوه القصائد ، التي كان بعض الخطباء يتلونها علناً ضمن مجالسهم . فكانوا فيما يرتكبونه في حقّه كمَن يأكل من لحمه أو يلِغ في دمه دون أن يدري .

من الغنيّ عن البيان ، أن مُعايشة تلك الأزمة ، وإن عبرَ أصدائها المتأخّرة ، قد هزّت في وعي الفتى الطُّلعة الذي كنتُه تلك الصورة الآسرة النّقيّة ، التي بنتها في ذهنه تجاريبه الأُولى البريئة مع المجالس الحسينيّة أيّام الصِّبا . فطفق ينظر إلى كثيرٍ مما يُتلى في تلك المجالس بعين الريب . دون أن يملك في المُقابل من المقدرة النّقديّة ما يُعينه على التمييز بين الصحيح وغيره منها .

قراءة كتاب *اللؤلؤ والمرجان في آداب أهل المنبر* للمحدّث الجليل حسين النُّوري (ت : ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م) أجّجت قلقَ الشابَّ الطُّلعة الذي كُنتُه ممّا يُقال

تحت شعار إحياء أمر سيّد الشهداء (ع) . والحقيقة أن هذا الكتاب هو أوّل محاولةٍ جدّيّة ، ممّن لديه الأهليّة التّامّة ، لوضع قواعد صلبة لهذه الشعيرة. كتبه مؤلفه بوعيٍ حقيقيّ على المخاطر الجمّة الكامنة بترك الحبل على الغارب للخطباء كيما يستدرّوا دموع جمهورهم كما وبما يحلو لهم . فبيّن في مختلف فصول الكتاب حُرمة الكذب ، خصوصاً على الله ورسوله وأهل بيته (ع) . ثم معنى الصّدق لَمن ينقل الأخبار والقصص والأقوال . ومن ذلك ضرورة تفحُّص حال الرُّواة ، والتّأكُّد من صحّة نسبة الكتاب إلى مؤلّفه .... إلى ما هنالك من شروطٍ معلومة . مع تأكيده على أن استحباب الشعيرة في نفسها لا يُدخل أخبارها تحت قاعدة التّسامح في أدلّة السُّنن . بل تبقى خاضعةً للتّعارض بين ارتكاب الحرام برواية الأعمال ونقل الأقوال دون تثبُّت ، وفعل ما هو مُستحَبّ بإحياء أمر أهل البيت (ع) . وطبعاً تكون الغلَبة هنا للحُكم بالحُرمة قطعاً [1] .

وممّا لاريب فيه أن كتاب *اللؤلؤ والمرجان* عملٌ ينطوي على علمٍ جَمٍّ وشجاعةٍ فائقة وورعٍ صادق . وما أنقذ صاحبَه من شرّ لسان بعض الخطباء ، إلا أنّ كتابه نُشر أوّلَ أمره نشرةً محدودةً في طهران ثم في الهند بالفارسيّة [2]. ولم يُترجم إلى العربيّة إلا من بعد . فلم يكُن له من الصّيت والصّدى مثل ما كان لأعمال السيّد الأمين ، الذي لم يوفّر وسيلة للتّنديد بما استنكره من أعمال الخطباء وغيرهم بكلّ وسيلة. كما نصب نفسه مُراقباً حازماً عليهم في دمشق وجبل عامل. بحيث كان يستنزل عن المنبر كلَّ من يخرج عن الحدود الحدّيّة التي رسمها لهم .

في هذا السّياق من مُحاولات الإصلاح ، نُنوّه بمواقف شفاهيّة صدرت من الشيخ المُطهّري رحمه الله ، ندّد فيها بسكوت العلماء عمّا يُرتكَب في بعض المجالس الحسينيّة ، ناسباً إليهم أنّهم قد باتوا في هذا تابعين للعوام " عوام زاده " ، بدلاً عن أن يكونوا في مقام المُرشد والمُوجّه . وفي هذا إشارةٌ واضحة إلى ما لها من سطوةٍ ، بحيث

---

١ ــ النوري : *لؤلؤ ومرجان* ، ط. طهران ١٣٩٠هـ.ش. / مختلف فصول الكتاب .

٢ ــ آغا بزرك : *الذريعة* ،ط. قم ١٤٣٤هـ : ١٨/ ٣٨٨ ــ٨٩ .

يتهيّب أهل العلم مسّها بأيّ وسيلة .

أخيراً نُشير إلى آخر مُحاولةٍ جادّةٍ لتقديم مادةٍ "صحيحة" للوقائع ذات الصّلة بمقتل سيّد الشهداء وأصحابه ، تحت عنوان *الصحيح من مقتل سيّد الشهداء وأصحابه* ، صدرت عن مركز البحوث في دار الحديث في قُمّ ، باهتمام محمد الرّيشهري ، بمساعدة محمود الطباطبائي نزاد ، وروح الله السيّد طبائي .

في مقدّمة الكتاب يُبيّن مؤلفه غايته من تأليفه بأنها **"نشر الوعي بين عامّة الناس ، وخاصةً الباحثين والشعراء الحسينيين ومُنشدي المراثي"**. فـ**"يستعرض النصوص المُوثّقة . وذلك استناداً إلى المصادر التاريخيّة والحديثيّة المُعتبَرة"** .ثم أنّه يُبيّن المنهج الذي اعتمده في انتخاب مادة الكتاب بالقول:**" إن الكتاب يعتمد بالدرجة الأُولى على المصادر التي أُلّفت في القرون الخمسة الأُولى . ويعتمد بالدرجة الثانية على على المصادر التي أُلّفت بعد ذلك حتى القرن السابع الهجري . ومن ثَمَّ مؤلّفات القرنين الثامن والتاسع . أمّا كُتُب المقاتل التي أُلّفت في القرن العاشر فما بعده فهي غير صالحةٍ للاعتماد"**[1]. ولكنّه في النهاية يترك لَمن يهمّه الأمر أن يستعين بالقرائن المُختلفة ، بعد إسناد الأخبار إلى مصادرها المُعتبَرة . فيأخذ بما اطمأنّت نفسه إليه منها بذينك الاعتبارَين ، الأسناد والقرائن .

من البيّن للقارئ الذي رافقنا فيما سردناه على صنوف التّعاطي مع إشكاليّة البحث ــ وإن سُقناه مَساقَ تجربةٍ شخصيّة ــ أنّنا مع ذلك الكتاب نكون قد وصلنا إلى أوّل مُحاولة منهجيّةٍ شاملةٍ لتأصيل نصوصها . هي خطوةٌ كبيرةٌ في الطريق الصحيح . وما عملي في كتابي هذا إلا مُتابعةٌ لتلك المُحاولات التأصيليّة ، وأكثرها أهميّةٍ كتاب الشيخ ريشهري ، ترمي إلى البناء عليه ، ومن ثَمّ تجاوزه بتركيب النصوص من مصادرها الصحيحة عندنا ، في عملٍ تأريخيّ ، ينحو نحو القصّة المُترابطة بنيويّاً .

أمّا كيف ؟ فذلك ما سنُبيّنه في التوطئة التالية إن شاء الله .

---

١ ــ الرّيشهري : *الصحيح من مقتل سيّد الشهداء وأصحابه* ،ط. قم ١٤٣٤هـ / ١٦ ــ ١٧ .

توطئة

(١) إشكاليّاتُ البحث

ثمة ملاحظةٌ ينبغي أن نبدأ بإيرادها تأملاتنا فيما هو تحت عنوان الكتاب . هي أننا نعرف مايكفي عن الآثار العالقة المُتمادية ، على مختلف الصُّعدان ، للحدَث الكربلائي ثقافيّاً واجتماعيّاً وسياسيّاً . بل إنّ معارفنا في هذا النطاق تتقدّم باطّراد ، كلما اكتشفنا نوافذ للرؤية لم نكُن قد لحظناها من قبل . خصوصاً في الأدب ، وبنحوٍ أخصّ في الشعر الحسيني المُبكّر، المُوازي أو المُقارب زماناً للحدَث . وخصوصاً أيضاً في الثقافة والمُمارسة الشّعبيّيَن التي تدور على استعادة الحدَث بمختلف الاشكال ، وفي الدراسات التاريخيّة التي تدور على مختلف أشكال الحِراك السياسي والاجتماعي . وهي تعكس بانبعاثها وبتطوّرها تداعيات الحدَث نفسه بين الناس قديماً وحديثاً ، في هذا القُطر أو في ذاك . ممّا تناولنا بعضَه في كتابينا المطبوعيَن (موكب الشهادة) و (موكب الأحزان) . وأيضاً في كتابنا الثالث (أوائل الشعر الحسيني البُكائي) المطبوع أيضاً . كما تناوله غيرُنا من زوايا مختلفة في غير كتاب .

لكنّنا نُلاحظ أيضاً أنّنا لانملك معرفةً موازيةً / مُماثلة في حجمها ووُضوحها وصدقها بالحدَث نفسه . مع أنّه هو الأساس والمنبع الذي تدفّقت منه تلك الآثار وما تزال . وما ذلك إلا لأن عامّة ما كُتب في هذا الباب قد صرف عنايته إلى حَمْل وتغذية الشّحنة الانفعاليّة الهائلة التي بدأت مع الحدَث ، وتمثّلت بأبكر وأقوى وأجلى ما يكون في الشعر الحسيني خصوصاً المُبكّر ، الذي انفجر بطاقةٍ شعبيّةٍ ذاتيّةٍ هائلة صبيحة المذبحة . وما تزال مُحتفظةً بأُوارها حتى اليوم بمُختلف الأشكال .

ما الذي ولماذا حدث ما قد حدث بالفعل ، بالنحو الذي حدث أثناء الأشهر الستّة ، ما بين أواسط شهر رجب سنة ٦٠ للهجرة / كانون الأول ، ديسمبر ٦٧٩ للميلاد ، تاريخ وفاة معاوية ، وبين يوم كربلا في ١٠ محرم سنة ٦١ هـ / ١٠ تشرين الأول ، أكتوبر ٦٨٠ م ؟ بل إننا كلّما اقتربنا من هذا الحدَث الرئيس ، كلّما تفاقم

الغُموض وتراكمت الأسئلة . باعثةً أقصى الحيرة لدى المُتأمّل الشّجاع ، الذي لا يجد ضَيْراً ولا عنتاً في طرح أكثر الأسئلة إثارةً للحَرَج . إيماناً منه بأنّ الطريق إلى الحصول على الأجوبة يبدأُ دائماً بطرْح الأسئلة الصحيحة ، المُعبّرة عن إشكاليّاتٍ موضوعيّة قائمة بالفعل في موضوعها . وأن ذلك لا يتنافى إطلاقاً مع الإيمان بأحقيّة وصواب الفعل وعمل مَن أتاه . الفارق بين مَن يُسلّم تسليماً وبين مَن يطرح الأسئلة ، هو نفسه الفارق بين المؤمن السّاكت ، الذي يكتفي بفرض الصحّة والصواب في كل ما عرفه أو جرى ، ومن ثَمّ التأثُّر به على مستوىً انفعاليّ (الذين إذا ذُكّروا بآيات ربهم لم يخرّوا عليها صُمّاً وعميانا) (الفرقان / ٧٣) ، وبين الآخَرَ الذي يُعاني قلقَ المعرفة .

ــ لماذا أعلن الإمام الحسين (ع) خُروجَه على الدولة على أثر وفاة معاوية ؟

ــ ما كان غرضه ومرماه النهائي من ذلك ؟

ــ لماذا لم يُسالم كأخيه وإمامه الإمام الحسن (ع) طيلة عشر سنين ، ثم إمامته هو طوال عشر سنين أُخرى بعد وفاة أخيه إلى أن هلك معاوية ؟

ــ مَن هم من أهل بيته وأصحابه الذين ركبوا معه الطريق من مكة باتجاه الكوفة . ثم مَن لحق بهم مَن لحق أثناء الطريق أو في كربلا ؟

ــ لماذا أُوكِل (بنحو المبني للمفعول) إلى مسلم بن عوسجة الأسدي مُمثّليّة العلاقة مع المُتعاطفين من أهل الكوفة (أخذ البيعة ، استلام الهبات الماليّة ، وربما غير ذلك ممّا خفي علينا) دون غيره من مُقدّمي الشيعة على كثرتهم ؟

ــ لماذا نزل مسلم بدخوله الكوفة دارَ المختار بن أبي عبيد الثقفي ، حيث أقبل الشيعة يختلفون إليه . مع أن المختار لم يُذكَر في عِداد الكثيرين الذين كاتبوا الإمام يستدعونه . أي أنه لم يُبدِ أدنى اكتراثٍ بالأمر منذ بدايات الحِراك . ثم حيّد نفسه حتى النهاية المأساويّة ، ولكنّه عمل فيها بعدُ بكلّ ذكاءٍ وكفاءةٍ واحترافٍ على مُلاحقة الذين شركوا بدم الحسين (ع) وأهل بيته وأصحابه . وهو عملٌ يُرضي وقد يفثأ الغيظ ولكنّه فارغٌ من أيّ مُعطىً سياسي . ثم عندما سمع مسلم بمجيء عُبيد الله بن زياد إلى الكوفة انتقل إلى دار هاني بن عروة مُستجيراً ، مع أنّ وراءه آلاف الذين بايعوه ؟ !

ـــ لماذا كاتبه مَن كاتبه من كبار أصحاب أبيه من ذوي السّابقة يستقدمونه ، ثم إذا بهم يختفون فجأةً ، مع بدء العمل التّعبوي الفعلي في الكوفة بحضور مسلم بن عقيل إليها ، دون إعلانٍ صريحٍ يُفسّر غيابهم . وذلك أدنى ما يُتوقّع منهم في حال حصول مُقتضٍ لغيابهم أو مانعٍ من حضورهم . ودون أدنى أثر ؟

ـــ لماذا انقلبت الكوفة على إمامها ، بعد أن كانت تُبدي أنها ترى فيه الأمل الوحيد المَنشود لإقامة دولة الحقّ والعدل ؟

إلى غير ذلك من أسئلة لن نُطيل بسردها ، سنطرحها ونعالجها حيث تظهر في مطاوي متن الكتاب إن شاء الله .

(٢) مصادرُ البحث

مُشكلتنا الثانية هي مع المصادر .

ذلك أنّنا أمام حدَثٍ كبيرٍ شغلَ الناس منذ حُصوله حتى اليوم . ومع ذلك فإنّ الشُّهود عليه ، الذين يُمكن أن يكونوا مالكين للرّغبة في أداء شهادتهم عليه ، نادرين بالقياس إلى غنى الحدَث بالوقائع . مع أنّهم شهدوه وشاركوا فيه من موقعٍ أو غيره ، أو كانوا هم موضوعاً له .

لذلك تفسيرٌ طبعاً ، نظنّ أنه التالي :

الشهود من الرجال من جانب فريق الإمام نالوا الشهادة ، عدا خمسة منهم :

ـ الإمام زين العابدين (ع) ، كان أثناء المعركة مريضاً مُدنفاً ، فلم يُقاتل . وعاش من بعد أربعاً وثلاثين سنة . ومع ذلك فإن أبا مخنف لم يُروِ عنه إلا روايتَين :

ـ إحداهما : عن الحارث بن كعب وأبي الضّحّاك (مَن هو ؟) عن الإمام (ع) روى فيها بعض ما جرى من الحسين (ع) ليلة العاشر[١] .

---

١ ـــ الطبري ،ط. مصر ، دار المعارف ، لات. : ٥ / ٤٢٠ ـــ ٢١ .

والخبر في إرشاد العباد للمفيد / ٢١٣ ، و*تاريخ اليعقوبي* : ٢ / ٢١٧ . وفي *مقاتل الطالبين* / ١١٣ دون ذكر أبي الضّحّاك .

ــ الثانية : أبو مخنف عن الحارث بن حصيرة ، عن عبد الله بن شريك العامري (وهو من فريق ابن سعد) عن علي بن الحسين (ع) . وفيه خبر رسول من عمر بن سعد بإمهال الحسين (ع) إلى الغد[١] .

ـ الحسن المُثنّى ابن الحسن السِّبط (ع) ، الذي نجا جريحاً . وعاش بعدُ وأنجب ذريّة . ومع ذلك فلم تردنا عنه أي رواية .

ـ المُرقّع بن ثُمامة الأسدي . كان من الرُّماة . قاتل مع الإمام إلى أن عجز بسبب جراحه . فجاء جماعةٌ من قومه بني أسد فأمّنوه . ولمّا قدم عمر بن سعد على ابن زياد أخبره خبرَه ، فسيّره إلى منفاه في الزُّرارة بعُمان . حيث لم يلبث أن توفي عن قريب مُتأثّراً بجراحه . ولم تردنا عنه أيضاً أي رواية لأسبابٍ واضحة .

يبقى اثنان من الرجال الخمسة ، هما عقبة بن سِمعان والضّحّاك بن عبد الله المشرقي الهمْداني . اللذان شهدا الوقعة ، وخلُصا منها نجيّيَن . ثم أنهما رويا ما شهداه أو بعضَه بنحوٍ أغنيا فيه التّسجيلات التاريخيّة بما عندهما من معلومات . سيكونان هما وما روياه موضع عنايتنا في متن الكتاب إن شاء الله . وربما يُضافُ إليهم مَن يرد ذكره في رُواة أبي مُخنف بالواسطة عمّن روى عن المُسمّى لدى الطبري بـ "أبو خالد الكاهلي"[٢] ، الذي نظنُّ ظنّاً قويّاً أنه هو نفسه أبو خالد الكابلي ، الذي كان خادماً للإمام زين العابدين (ع) ، ثم من أصحابه الخواصّ . ومن بعده من أصحاب الإمامين الباقر والصادق (ع) . أتى لقبه لدى الطبري مُصحّفاً . ولكنّ الكابلي توفي سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م ، أي أنه عاش بعد يوم كربلا تسعين سنة عدّاً . فإذا صدق ظنُّنا فهذا يعني أنه عاش عمراً طويلاً جدّاً ، وأنه كان قد شهد يوم كربلا صغيراً مع مخدومه . ولكنّ ما يُهوّن أمر تحقيق شخصه ، أن أبا مخنف لم يروِ عنه ، بالواسطة عن بعض أصحابه ، إلا روايةً وحيدة . حكى فيها أنه "لمّا صبّحت الخيلُ الحسين رفع يديه وقال اللهم أنت ثقتي في كلّ كُرْب ، ورجائي في كلّ شدّة . . . . الخ .". وكلمات النّصّ ليست تخفى فيها

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٤١٧ ــ ١٨ .

٢ ــ نفسه : ٥ / ٤٢٣ .

إمارات الصّحّة على العارف بلحن كلمات أهل بيت العصمة .

الضّحّاك بن عبد الله المَشرقي الهمداني رجلٌ ذرائعيٌّ بكل ما للكلمة من معنى . قصد لقاء الإمام في كربلا ، أثناء الأيام القليلة قبل انفجار القتال ، ومعه رجلٌ من قبيلته اسمه مالك بن النّضر الأرحبي . فدخل عليه وسلّم ، فرحّب بهما الإمام ، وسألهما عن السبب في مجيئهما ، فقال : " جئنا لنُسلّم عليك ، وندعو لك بالعافية ، ونُحدثُ بك عهداً ، ونخبرك خبرَ الناس . وإنّا نُحدّثك أنهم قد أجمعوا على حربك . فما رأيك ؟ " . فقال الإمام " حسبي الله ونعم الوكيل " . وسألهما عمّا يمنعهما من نُصرته ، فأجابه :" عليّ دين ، ولي عيال " . ثم عرض عليه أن يُقاتل معه ما كان القتال له نافعاً وعنه دافعاً . وأن يُحلّه إذا لم يبقَ جدوى من القتال . فقبل منه الإمام ذلك . وبالفعل بقي مع الإمام وقاتل عنه إلى أن أُصيب جميعُ أصحابه ، ولم يبقَ معه منهم إلا سُويد بن عمرو الخثعمي وبشير بن عمرو الحضرمي . فتقدّم من الإمام وذكّره بما بينهما من عهد ، فصدّقه وأذن له بالانصراف ، إن قدر على النّجاء بنفسه . ولكنّه بذكائه وشدّة بأسه شقّ صفوفَ المُقاتلين على فرسه إلى أن نجا به [1] .

روايات أبو مخنف عن الضّحاك جميعها عن عبد الله بن عاصم الفائشي الهمداني عنه . ممّا يُفهم منه أن أبا مُخنف لم يلقه . وهي جميعها على أحداث ما قبل انصرافه . وسنقف عليها في المحلّ المناسب .

عُقبة بن سِمعان هو مولىً (خادم مملوك) للرباب بنت قيس ، أُخرى زوجات الإمام وأُمّ ابنته سُكينة . وبهذه الصفة كان في عِداد الموكب الذي انطلق من المدينة إلى مكة ، ثم منها إلى كربلا . وبقي معه إلى نهاية القتال دون أن يُشارك فيه . حيث أخذه عمر بن سعد فقال له : "مَن أنت ؟ " قال :" أنا عبدٌ مملوك " . فأخلى سبيله . وما ندري ماكان مصيره بعد ذلك . والظاهر أنه كان مع العائدين إلى المدينة ، بشهادة بعض الروايات عنه ممّا سنقف عليه في محلّه .

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٤١٨ و ٤٤٤ـ٤٥ .

ما من دليلٍ على أن أبا مُخنف لقي سِمعان . ورواياته عنه جميعها عن عبد الرحمن بن جُندُب ، أوالحارث بن كعب الوالبي ، عنه . وهي تحكي ماجرى للإمام في الأيام الأخيرة له في الحجاز ، ثم أثناء الطريق إلى كربلا ، ولا تعرض إطلاقاً لِما جرى هناك ، باستثناء أمر الإمام له بأن يجلب رسائل أهل الكوفة ليراها مَن أنكرها . ثم بأن يعقل راحلته قبل خطبته في القوم قُبيل القتال [١] .

أمّا فريق القتَلَة فما كان عندهم من حيث المبدأ أدنى سببٍ أو حافزٍ لرواية وقائع الجريمة المَهولة التي ارتكبوها . بل إنّهم لو استطاعوا أن ينزعوا ذكرها من عقول الناس ، بعد أن انقلبت الآية ، وبات مَن شاركوا في الجريمة مُجلّلين بالعار والشّنار ، لكان في ذلك قُرّة عينٍ لهم . ولولا ذلك الانقلاب لربما تنافسوا في رواية أعمالهم ، كما كانوا يتنافسون دعوى قتل أحد الشهداء أمام سادتهم أثناء المعركة . ولانهالت علينا أخبارُهم من كل حَدْبٍ وصوب .

ثمة فريقٌ ثالث ، هم من الذين وقفوا في ساحة كربلا مع فريق ابن سعد ، لكنّهم لم يقاتلوا كما زعموا ضمناً ، باستثناء حالةٍ واحدة ، سنقفُ عليها بعد قليل. هؤلاء إجمالاً هم الذين اشتغل المؤرّخ الرّائد أبو مخنف الأزدي على مرويّاتهم . وبذلك أغنى الكتابة التاريخيّة بمادةٍ خصبةٍ . لولاها لضاع شطرٌ كبيرٌ وأساسيٌّ ممّا نعرفه اليوم من أحداث ووقائع ذلك اليوم الرهيب .

في رأس هؤلاء الرُّواة حُميد بن مسلم الأزدي . الذي يكثر النّقل عنه في كُتُب المقاتل المتأخرة وعلى ألسنة خطباء المنبر الحسيني .

وحُميد من رجال عمر بن سعد ، وموضع ثقته ، والمُكلّف من قِبله بالمهمّات الدقيقة . من ذلك أنه بعد القتال بعثه ابنُ سعد إلى أهله في الكوفة لـ " يُبشّرهم بفتح الله عليه وبعافيته [٢] " . كما أنه جعله في الفريق الذي حمل رأس الإمام (ع) إلى الكوفة ثم إلى دمشق [٣]. الأمر الذي أتاح له أن يُرافق الأحداث منذ الكوفة فكربلا حتى في دمشق .

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٣٥١و٣٨٣و٣٨٥و٤٠٧و٤١٣و٤٢٦و٤٥٤.

٢ ــ نفسه : ٥ / ٤٥٦ .

٣ ــ أيضاً : ٥ / ٤٥٤ .

ومع ذلك فإن رواياته إجمالاً لا يخفى فيها الميلُ إلى جانب الضحايا قتلى وسبايا . والظاهرأن هذا العنصر في رواياته متأثّرٌ بالحالة الانقلابيّة في المزاج الشعبي باتجاه إدانة السُلطة على ما جنته أيدي القَتَلة في كربلا ، التي بدأت تظهر معالمها فوراً في دمشق . ومنها انتشرت بسرعة باتجاه الكوفة والمدينة .

من ذلك الرواية غير المعقولة التي يُقدّم حُميد نفسه فيها مُعارضاً لشمر بن ذي الجوشن حين حاول أن يُحرق فسطاط الإمام بمَن فيه من النساء والاطفال . فقال له ، فيما زعم : "سبحان الله ! إن هذا لا يصلح لك . أتريد أن تجمع على نفسك خصلتين : تُعذّب بعذاب الله ، وتقتل الولدان والنساء! "فقال له:"مَن أنت؟"فقال : "لاأُخبرك مَن أنا"وعقّب حُميد بقوله:"خشيتُ والله لو عرفني أن يضرّني عند السلطان" .

موضع الريب في الرواية ، كيف يكون حُميد مجهولاً عند رجلٍ من أشراف الكوفة ، الحاضر دائماً في كل كبيرةٍ وصغيرةٍ كالشّمر ، مع ما له من اختصاص غير خفيّ بواليها عمر بن سعد ، فضلاً عن مُلازمته إياه أثناء القتال . بل ويبقى مجهولاً حتى بعد مجيء شريفٍ آخر هو شبث بن ربعي وسماعه كلام كلٍّ من الاثنين ومناصرته لحُميد ، بحيث أن الشمر عدلَ عمّا كان يريد أن يفعل[1] . كما أنه (حُميد) يُقدّم نفسه أنّه أثناء المذبحة السريعة التي انتهت بقتل الحسين (ع) وأهل بيته ، حاول منع قتل الفتى القاسم بن الحسن (ع)[2] . والظاهر أن هذه المُحاولات منه لم تنطلِ على معاصريه ، بدليل أن المختار طلبه فيمَن طلب من الذي شركوا في الدماء فنجا وقال :

ألم ترني على دهشي نجوتُ ولم أكُن أنجو
رجاءُ الله أنقذني ولم أكُ غيرها أرجو[3]

من شبه المؤكّد أن أبا مخنف لم يلقَ حُميداً . وإنّما أكثر رواياته عنه بواسطة سليمان بن أبي راشد . والقليل منها عن الصقعب بن زهير عن ابن أبي راشد عنه[4]، وعن

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٤٣٨ .

٢ ــ نفسه : ٥ / ٤٥٢ .

٣ ــ البلاذري : *أنساب الأشراف* ،ط. بيروت ، دار الفكر ، لات. : ٥ / ٢٤٠ .

٤ــ أيضاً ٥ / ٤٤٧ .

عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عنه [1].

ثمة شخصٌ ثانٍ في فريق عمر بن سعد ، ومن رُواة ابن مُخنف ، ينفرد بمواصفاته ، هو هانيء بن ثُبيت الحضرمي السكوني .

والحقيقة أن هانئاً هذا أُنموذجٌ فريدٌ بين رُواة أبي مُخنف . فهو لم يكُن يُخفي ضلوعه بالقتل الذّريع بأصحاب الإمام وأهل بيته يوم كربلا . كان يجلس بمجلس الحضرميين في ولاية عبد الله القسري على البصرة ، وهو شيخٌ كبير ، ويُحدّث الناس بما يُشبه التفاخُر بما جنته يداه . وهو قاتل ثاني الشهداء من أصحاب الحسين (ع) مسلم بن عوسجة والأخوين عبد الله وجعفر ابنا الإمام علي (ع) [2].

ومن المؤكّد أيضاً أن أبا مخنف لم يلقَ هانئاً . ورواياته عنه إنما هي بواسطة صاحبه الرّاوي أبي جناب يحيى أبي حيّة الكلبي ، الذي يروي الطبري عنه كثيراً في تاريخه [3].

(٣) خطّةُ البحث

بُغيتنا في هذا الكتاب أن نروي قصة كربلا في حلقات :

في الحلقة الأُولى بعض ماعمله الإمام أو صدر منه ، ممّا يدلُّ على قصده وغايته من إعلان خروجه على السُّلطة بذلك النحو القطعيّ كما سنعرفه . وضمنها مَن خرجوا معه من أهل بيته وأصحابه ، أو انضمّوا إليه فيما بعد .

في الحلقة الثانية ما جرى في الكوفة منذ دخول مسلم بن عقيل إليها إلى عشيّة يوم عاشورا .

والحقيقة أن هذه القصّة هي قصّة تنظيم انقلاب المدينة على نفسها ، بتدبير الدّاهية عُبيد الله بن زياد . انطلاقاً من موقع المُؤيّد للإمام ، المُنتظر للخلاص على يده ،

١ــ أبو الفرج الإصبهاني : *مقاتل الطالبيين* ،ط. قم ، مكتبة الشريف الرضي،لات. / ١١٤ ــ ١٥ .

٢ــ الطبري : ٥ / ٤٣٦ و٤٤٩ و٤٦٨ .

٣ ــ انظر موارد رواياته عنه إجمالاً في فهارس أعلام الكتاب مادة " أبو جناب الكلبي " .

والُمبايع بالآلاف الكثيرة لرسوله ومُمثّله مسلم . وانتهاءً بموقع المُتهيء والمُعدّ لقتاله ، المُناجز له في الميدان ، المُقدِم على قتله وعلى قتل أهل بيته وأصحابه . ويالبُعد المسافة بين الموقعيَن . خصوصاً إن نحن لاحظنا أن الكوفة اجتازتها أثناء أيّامٍ معدودات .

كيف وبأيّة وسيلة صنع ابن زياد ذلك الانقلاب المُذهل ؟

يمكن طرح السؤال بنحوٍ أكثر دقّةً :

ماهي الشُّقوق ومواضع الخلل في التركيبة الإنسانيّة للكوفة ، التي عمل عليها ابنُ زياد بدهاءٍ ما بعده دهاء ، بحيث هيمن على إرادة الناس في المدينة ، ووجّهها في الاتجاه المُعاكس لضميرهم ووُجدانهم (قلوبهم معك) ، والمُناسب لمقاصد ومصلحة سادته (سيوفهم عليك) ؟

نطرح السؤال ، مبنيّاً على فرضيّة وجود شقوقٍ ومواضع خللٍ في التركيبة الإنسانيّة للكوفة ، لأننا مهما نُرجع إنجاز عُبيد الله المُدهش إلى دهائه ، فلا بدّ من أنّه مع ذلك قد استفاد من مُهيّئاتٍ ومواصفاتٍ موضوعيّة كامنة في ساحة عمله .

من الواضح جدّاً للقارئ اللبيب، أن الجواب الصحيح ، أو المُقنِع على الأقلّ ، على هذا السؤال مقدّمةٌ ضروريّةٌ جدّاً لفهم الحلقة الثالثة . بدونها نكون كمَن يُصغي إلى قصّةٍ مقطوعةٍ من أوّلها .

أمّا في الحلقة الثالثة ، فإننا سنعمل على أن نقصَّ على القارئ قصةَ ما جرى حقيقةً وبالفعل في ساحة كربلا ، قُبيل ويوم العاشر من المحرّم سنة ٦١هـ ، بالمقدار الذي تُعطينا إيّاه المصادر الأصليّة المُتاحَة . و بالنحو الذي ينسجم مع منطق الأشياء .

ولست أكتمُ أنني أتجه إلى هذه المُهمّة بتهيُّبٍ شديد . لعلمي بأن في الطريق إلى غايتي رُكامٌ كثيفٌ من الأخبار الذّائعة المُتداولَة على نطاقٍ واسع ، حتى بين أهل القلم ، ناهيك مامنها بين أرباب المنابر. أملتها على نقَلَتها وحَمَلَتها الرّغبةُ في إثارة أقصى الشّجى لدى القارئين والسّامعين . بالإضافة إلى رغبةٍ لاتقلُّ قوّةً في التنويه بشجاعة وتفاني وشدّة هذا أو ذاك من فريق الإمام . إلى درجةٍ تتجاوز أحياناً بمسافةٍ طويلةٍ جداً مُعطيات ساحة المعركة بفريقيها ، وميزان القُوى المُتصارعة فيها ، فضلاً عن طاقة البشر وقدرتهم أثناء القتال .

(٤) كلامٌ إضافيٌّ على خطّة البحث

عند هذا الحدّ من التسلسل المنطقي لخطّة العمل ، إخال أن قارئاً وعى ما قلناه على حالة شهود الحدَث سيتساءل :

حسنا ، ما دام الحدَث الكربلائي بتلك المثابة من الأهميّة والغنى ، إلى جانب نُدرة شهود الحال عليه ، فعلامَ إذن نتّكل في وعدنا للقارئ بأن نقصَّ عليه قصةَ ما جرى حقيقةً وبالفعل ، خصوصاً في ساحة كربلا ؟

نقول في الجواب : إننا ندرك جيّداً صعوبات العمل ، والمآزق التي تنتظرنا في ثنايا الطريق ، باتجاه الغاية التي بيّنّاها في إشكاليّات البحث ، وحدّدناها فيما طرحناه على نفسنا من أسئلة .

ومع ذلك فإنّنا بالبحث الجادّ في رُكام الأخبار التي وصلتنا ما هو حريٌّ بالتصديق استناداً إلى مُلابسات رُواته ورواياته ، وإلى مراجعتنا النّقديّة لمضمونه . ما يُتيح لنا أن نبني قصّةً على جانبٍ مقبولٍ من الصّدق على الأقلّ . ستكون بالتأكيد أفضلَ بكثير جدّاً ممّا هو مُتداوَل في كتب المقاتل المُتأخّرة وعلى ألسنة أكثر أرباب المنابر . وعن هذا الطريق سكنت عقول مَن تقبّلها من أجيالنا ، وباتت جزءاً من الثقافة الشّعبيّة . وهذا موطنُ خطرٍ ينبغي للطليعة العارفة أن تتصدّى لدفعه بكلّ ما بوسعها .

ذلك أن مَن يتقبّل تلك المَقولات، بما حفلت به من صنوف الأعاجيب غير المعقولة، سيبتعد بالمُقابل مسافةً مُماثلة عن النهج العقلي الصّلب الذي بناه القرآن والنبي وعترته (ص)، بحيث بات جزءاً لا يتجزّأ من الحقيقة الإيمانيّة عند مَن يعيها حقّ وعيها .

ولنتأمّل هنا في العِبرة المُستفادَة من تصدّي النبي (ص) بحزم لَمن رأوا علاقةً سببيّة بين خسوف القمر ووفاة ابنه الصغير إبراهيم . هذه المُفارقة قد تبدو هيّنة ، ولا تستحقّ أن يتصدّى لها النبي بنفسه . ولكنّ الحقيقة أن السكوت عليها سيكون بمثابة تأسيسٍ للخُرافة في أذهان أُولئك الحديثي الإسلام . فتصدّى النبي لها بحزم من أوّل الطريق. فكيف بذلك السّيل الجارف من الأباطيل ينهال على الناس صباحَ مساء تحت شعار إحياء أمر سيّد الشهداء (ع) ! .

الجواب نقرأه في ملاحظة تستحقُّ أن تكون موضع اعتبارٍ وتأمُّل ، هي أن أنجح خطباء المنبر الحسيني اليوم ، وأكثرهم شعبيّةً وقبولاً، وأوسعهم جمهوراً، هم أكثرهم إيغالاً في نشْر الخرافات ، وبُعداً عن منطق الأشياء وطبائعها . تلك هي إحدى الثّمار المُرّة التي جنيناها من تسليم تلك الشعيرة الجليلة إلى مُحترفين نفعيين . في ظلّ تنكُّب الآهلين وظيفتَهم في العمل الجادّ على مادّة منهجيّة . تكون برسم مِن يُريد حقّاً وصدقاً إحياءها بما يتناسب وجلالتَها ، ويتناسب مع بُعد وحيويّة واستمرار أثرها . لانستثني من هذه الملاحظة سوى المُحدّثَيَن النُّوري والرّيشهري في الآخرين ، وأبي مخنف في المؤرّخين الأوّلين .

وليكُن هذا مدخلنا للتعريف بأبي مُخنف ، وبعمله الفذّ الرّائد على تتبُّع وتسجيل وقائع من سيرة سيّد الشهداء ، وما جرى منه وعليه . ابتداءً من خروجه من المدينة حتى شهادته . استقاها من أقرب مواردها إليه في زمانه . ما سيكون بسْطُ الكلام عليه موضع عنايتنا فيما سيأتي إن شاء الله .

(٥) أبو مُخنَف وموقعُهُ الفريد في مصادر البحث

لوط بن يحيى بن سعيد بن مُخنف الأزدي الكوفي . كان والد جدّه مُخنف بن سليم من أصحاب علي (ع) . وروى عن النبي (ص) روايات . شهد مع الإمام يوم الجمل حاملاً راية الأزد وقُتل فيه . كما كان أبوه يحيى من أصحاب الإمام أيضاً [١] . وُلد حوالي السنة ٧٠ هـ / ٦٨٩م . وتوفي سنة ١٥٧ هـ / ٧٧٣ م .

يُعتبَر لوط ، إلى جنب صديقه الحميم محمد بن السّائب الكلبي (ت : ١٤٦ هـ / ٧٦٣ م) ، من أوائل وأميز الأخباريين في العراق . صرف جهده إلى كتابة تاريخ الفترة التي عاش فيها وما قبلها ، مع عنايةٍ خاصّةٍ بتاريخ العراق وأحداثه . ووضع في ذلك كُتُباً تجاوزت الثلاثين عدداً [٢] . ولكنّ آخر ما أُثر عنه من روايات يحكي حوادث

---

١ ــ الحلّي : *خلاصة الأقوال في أحوال الرجال* ،ط. قم ، دار الذخائر ، لات. / ١٣٦ .

٢ ــ انظر الترجمة له في كتابنا *أعلام الشيعة* ومصادره الكثيرة ، حيث ذيّلناها بأسماء كُتُبه .

من السنة ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م [١]. إذن فثمة ربع قرنٍ بالتمام سكت أبو مُخنف أثناءها عن الرواية . وذلك على كلّ حال أمرٌ غير مُستغرَب على مَن تجاوز الخمسين من العمر ، وعلى مُستوى الأعمار والفترة المُنتجة للمرء منها في ذلك الأوان .

بالنسبة إلينا ، فيما نُعالجه ونعمل عليه الآن ، فإن أهم ما كتبه ابنُ مُخنف ، هو كتابه *مقتل الحسين عليه السلام* [٢]. وهو أوّل كتابٍ نعرفه على الموضوع ، إذن فهو رائد هذا النمط من التصنيف . ولكنّ كتابه مفقودٌ من أسف كسائر كُتُب أبي مُخنف ، بل كسائر كُتُب معاصريه من المؤرّخين ومنهم ، بل على رأسهم ، صديقه الكلبي ، وخَلَفُه نصر بن مُزاحم الكوفي الشيعي (ت : ٢١٢ هـ / ٨٢٧م) الذي نجِدُ في مؤلفاته كتاباً يحمل أيضاً اسم *مقتل الحسين بن علي عليهما السلام* [٣].

لكن كان من حُسْن حظّنا من ابي مُخنف ومن كتابه ، أن الطبري ضمّن كتابه *تاريخ الرُسُل والملوك* مادةً واسعة مُستقاةٌ من كتابه الفقيد ، اقتبسها اقتباساً بما فيه أسنادها كما وردت في الأصل . وبذلك أنقذ وحفظ لنا مادةً ثمينةً فريدةً كانت خليقةً بأن تضيع نهائيّاً ، مثلما ضاع كتاب ابن مُزاحم لأنه لم يجِد مَن يقتبس منه . في حين أن كتابه الآخر *صفّين* حظي بمَن اقتبس عنه بغزارة ، إلى درجة إمكان تركيبه من جديد ، كما حصل بالفعل . ومن الغنيّ عن البيان ، أن اقتباس الطبري (ت : ٣١٠ هـ / ٩٢٢م) ليدلُّ على أن الكتاب كان ما يزال بين أيدي الناس حتى القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد على الأقلّ . بل وحتى القرن السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد . عرفنا ذلك من أن ابن عساكر (ت : ٥٧١ هـ / ١١٧٥م) يُصرّح في *تاريخ مدينة دمشق* بأنه قرأ كتاب أبي مُخنف [٤].

---

١ ــ فلهوزن : *تاريخ الدولة العربيّة* ، ط. ليدن ١٩٤٨ / المقدمة .

٢ ــ ابن النديم : *الفهرست* ،ط. مصر ، المكتبة التجارية الكبرى ، لات. / ١٤٣ .

٣ ــ ياقوت : *معجم الأُدباء* ، ط. مصر ، مكتبة عيسى الحلبي،لات.: ٧ / ٢١٠ والفهرست / ٩٣ .

٤ـــابن عساكر: *تاريخ مدينة دمشق* ،ط. دمشق ١٩٣٦م : ٦٩ / ١٦٨ .

لسنا نعرف على نحو اليقين أو ما قاربه كم كان حجم اقتباس الطبري فيما أثبته في كتابه عن كتاب ابي مُخنف المفقود . هل انتخبها انتخاباً ، أم استوفاها استيفاءً ؟ وإن نكُن لا نجِدُ سبباً للقول أنه انتقى ممّا سجّله أبو مُخنف ، وأنه حذف منه ما لا يُوافق غرضاً طوى عليه جوانحه . وعلى كلّ حال ، فإنّ الطبري مؤرّخٌ مُحترف ، وضع كتابه الرّائد ليكون شاملاً لأخبار " الرُّسُل والملوك " حسب مفهومه . وحشدَ فيه ما وجده ممّا سجّله سلفُه ما هو محلّ اهتمامنا الآن . كما كان يعرف ولا ريب حجمَ الجُهد الذي بذله أبو مُخنف في سبيل جمع الأخبار التي أثبتها في كتابه *مقتل الحسين* . فلماذا يُفوّت على كتابه شيئاً منها ! .

الأمر مُختلف حين نطرح السؤال نفسه على عمل أبي مُخنف . ذلك أنّ لقاءه بالشّاهد أو بمَن سمع منه كان مسألةَ حظّ . حظٌّ في أن يكون أحدُ هذين على قيد الحياة. وحظٌّ في أن يعرفه ويلتقي به . ثم حظٌّ ثالثاً بأن يرغب أو يرضى بأن يؤدّي شهادته .

إذن فلنقُل أن ابن مُخنف قد جاد في كتابه من الموجود بالنظر إلى ما أدّى إليه سعيه . أمّا الطبري فقد أثبت في تاريخه ، على الأرجح ، كلَّ ما وجده في كتاب سلفه .

(٦) ماذا عمل أبو مُخنَف وكيف ؟

الآن نسأل : لماذا وكيف وماذا عمل أبو مُخنف ما عمل ، ممّا سنُفصّل الكلام عليه إن شاء الله ، وآل إلى أن وضع كتابه *مقتل الحسين* الذي أخذ عنه الطبري ؟ مع الإلفات إلى أنّ ترتيب الأسئلة بهذا النحو مقصود . لأن الجواب على كلٍّ من فروعه الثلاثة يقود إلى الجواب على تاليه .

في الجواب عن الشّطر الأول من السؤال **"لماذا"** نقول : إن الرجل كان شيعيّاً مؤرّخاً . وضع كُتُباً عديدةً على مُختلف الأحداث إبّان حياته وما قُبيلها . فهو إذن بالحري سيهتمّ اهتماماً خاصّاً بما هو من تلك الأحداث أقرب إلى وُجدانه وضميره وولائه. خصوصاً أن الحدث الكربلائيّ كان يمضي في تفاعُله بين الناس بطاقته الذّاتيّة، مُنتجاً ومُولِّداً سلسلةً من أنماط السلوك السياسي العنيفة ، كلّها يشرب من كفّي كربلا : حركة التّوّابين التي تُثير عندنا أقصى العجب ، ومُلاحقة مَن شركوا في دماء الشهداء

وإيقاع العقاب بهم بقيادة المختار ، وكلّها ممّا صنّف فيه ابن مُخنف . كلّ ذلك كان يجري في ظلّ غياب العمل التأريخي على تلك الأحداث . الأمر الذي يُهدّد بضياع الحقيقة التاريخيّة . فلا يبقى منها إلا ما هو أقرب إلى الأساطير. كما حصل بالنسبة لكثيرٍ من مثلها . خصوصاً في الحديث النبوي، قبل أن يلتفت المسلمون إلى أهميّة التسجيل ، وعدم الاكتفاء بالذّاكرة الشّفويّة . وما من شكٍّ في أن ابن مُخنف كان يُلاحظ ذلك بما يملك من حسٍّ تاريخي . هكذا ولذلك فيما نحسَب اندفع إلى ما عمل عليه .

الشطر الثاني " **كيف** " فعل ما فعل . يعني بأيّ وسيلةٍ وصل أبو مُخنف إلى أُولئك الشّهود ؟

نقول في الجواب ، بالوسيلة التي درج عليها المُشتغلون بالأخبار الشفويّة عند العرب في ذلك الأوان ، من المَعنيين بالأنساب ، وبأخبار الشعراء وبشعرهم ، والمُهتمّين باللغة ، وبأخبار المسلمين في عهد النبي (ص) وفي عصر الفتوحات . من مثل صديقه محمد بن السّائب الكلبي (ت : ١٤٦هـ/ ٧٦٣م) وسيف بن عمر الكوفي الأسدي (ت:١٧٠هـ/ ٧٨٦م) ونصر بن مُزاحم المنقري التميمي (ت: ٢١٢هـ / ٨٢٧م) وغيرهم .

ذلك الجيل المؤسِّس عمل على الاتصال الشخصي بحمَلَة المعلومات ذات العلاقة بمحلّ اهتمامهم . ومن ثَمّ على تسجيل ما وعته ذاكراتهم ممّا يهمّهم . وبذلك نقلوا ما وعوه من المُستوى الشّفوي إلى المُستوى التحريري . وبذلك تأسّست أُصول / مادّة الكتابة التأريخيّة في الإسلام . التي اقتبسها المؤرّخون من بعدهم وأودعوها كُتُبهم. من مثل الطبري والمسعودي وابن عبد ربّه وأبي الفرج الإصبهاني . وبذلك حفظوا من الضّياع مادة مئات الكُتُب الفقيدة ، التي نجدُ ذكرها لدى ابن النديم في كتابه *الفهرست* .

إذن فما من غروٍ ولا من خصوصيةٍ في عمل ابن مُخنف باحثاً ومُنقّباً ومُسجّلاً في سبيل جمع مادة كتابه *مقتل الحسين* . ثم ما من غروٍ ولا من خصوصيّة في اقتباس الطبري لها وإيداعها كتابه .

نتيجة سَبر أسماء الرُّواة ، الذين تصعد إليهم روايات أبي مُخنف ، أحصينا أربعةً وثلاثين راوياً هم من شهود الحال. كثيرون منهم ممّن كان في عسكر عمر بن سعد وشهد القتال . منهم واحدٌ فقط ، أتينا على ذكره قبل قليل ، لم يكُن يُخفي أنه قد شرك في دماء الشهداء ، هو هانيء بن ثُبيت الحضرمي ، ومع ذلك فإنه نجا ، لسببٍ لانعرفه، من العقاب على أيدي مَن لاحقته حركة المُختار حثيثاً ، بحيث عاش من بعدُ عمراً طويلاً [١]. كان أحد الذين اشتركوا بقتل مسلم بن عوسجة [٢]، وانفرد بقتل الطفلين عبد الله وجعفر ابنا الإمام علي (ع) [٣]. روى ابنُ مُخنف عمّن روى عنه خبراً واحداً ، سنقفُ عليه في محلّه المُناسب.

هذا ، ليبينَ للقارئ عظيمَ الجُهد الذي بذله ابن مُخنف وهو يُلاحق الشهود ، على تباعُد مواطنهم . ثم لينتزع من بعضهم على الأقلّ أقوالهم انتزاعاً فيما يبدو لنا . بعد أن بات الرأي العام الغالب يميلُ إلى الإدانة العنيفة لكلّ مَن ضرب بسهمٍ ، مهما يكُن حجمه ، في الجريمة النّكراء . الأمر الذي جعل استنطاقهم أمراً على درجةٍ من العُسر ، تتناسب طرديّاً مع ما يعرفه الناس عن درجة مُساهمتهم في الجريمة .

بيد أن هاهنا أمرٌ يُهوّن كثيراً من شأن الملاحظة الأخيرة . هو أن أكثر روايات أبي مُخنف إنما سمعها عمّن رواها بالواسطة ، أي عمّن سمعها من الرّاوي الأصلي . في مقابل أن رواياته عن الأُصلاء نادرة. وما ذلك إلا لأنّه لم يشرع في العمل على مشروعه إلا بعد أن كان أكثر أُولئك الأُصلاء قد توفّوا . ومن الواضح أن ذلك جعل استنطاق

---

١ ــ كان يجلس بمجلس الحضرميين (في البصرة ؟) في ولاية خالد بن عبد الله القسري على العراق من قِبل عبد الملك (٧١ ــ ٧٣ هـ / ٦٩٠ ــ ٦٩٢م) ثم من قِبل هشام(١٠٥ ــ ١٢٠ هـ / ٧٢٣ ــ ٧٣٧ م) (انظر: زامباور : *معجم الانساب والأُسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي*/ ٦٢ و٦٣ و٧٧) ويُحدّث بما جنته يداه (الطبري : ٥ / ٤٤٩) .

٢ ــ الطبري : ٥ / ٤٣٦ .

٣ ــ نفسه : ٥ / ٤٤٩ .

مَن روى عنهم أسهل بما لا يُقاس . ومع ذلك فإن هذا لا يُقلّل من تقديرنا للجُهد الكبير الذي بذله في سبيل جمْع رواياته .

الشطر الثالث من السؤال " ماذا فعل" ؟ أي بالنتيجة ماهو مقدار الفائدة والنفع فيما سجّله ؟ بات واضحاً للقارئ . إنّه الفائدة والنفع نفسه الذي ننسبه لكلّ الذين عملوا ، من قبله ومن بعده ، على نقل الروايات الشّفويّة الُمتداولَة إلى التحريريّة على اختلاف مَحَطّ اهتمامها . وهذا واضح بغنىً عن مزيد بيان .

(٧) تعقيبٌ على كلام الريشهري على روايات أبي مُخنَف

هذه الُمراجعة النّقديّة الأوّليّة لروايات ابن مُخنف لن تتمّ فصولاً إلا بأن نُعقّب عليها بسؤالٍ أخير : كم هو حظُّ رواياته من الوثاقة ؟

تحت عنوان "**الكُتُب غير الصالحة للإعتماد**"يورد الشيخ الرّيشهري ذكرَ كتاب "*مقتل الحسين* **المنسوب إلى أبي مخنف**" فيقول أنه (أبو مُخنف) "**من المؤرخين الموثوق بهم ، ومن أصحاب الإمام الصادق (ع) . وكان على الأرجح شيعيّاً . وهو مُعتَمَدٌ من قِبل مؤرّخي الفريقيَن . ولذلك فقد نقل العديد من المؤرخين وكُتّاب السيرة ممّا رواه حول** [كذا !] **ثورة الإمام الحسين (ع)**" .

إذن فلماذا ذكره تحت عنوان "**الكُتُب غير الصالحة للإعتماد** " ؟

في الجواب على هذا السؤال الُمفتَرَض يورد سببيَن :

ــ الأوّل: أن أصل كتابه مفقود . وهذا من قبيل السّالبة بانتفاء الموضوع .

ــ الثاني : أننا "**لايُمكننا أن نتوصّل إلا إلى قسمٍ منه** (الكتاب) **عبْرَ جمْع روايات هؤلاء المؤرّخين**" الذين نقلوا عنه . ولكن ذلك ، مع أنه كان محلّ اهتمامٍ خاصٍ من غير واحدٍ من المؤلفين ، يصِلُ بنا إلى نتائج مختلفة عمّا نقله الطبري . "**بل إن الاختلاف الكبير والواضح بين مرويّات بعضهم ، وبين نقل الطبري عن الكتاب ، يُمثّل قرينةً على عدم صحّة النسبة**"[١] . أي أن تعارُض الروايات يودي إلى تساقطها .

---

١ ــ *الصحيح من مقتل سيّد الشهداء وأصحابه* / ٣٣ ــ ٣٤ .

إذن فالمشكلة عنده ، وعندنا أيضاً ، ليست في أصل روايات أبي مُخنف ، بل هي أوّلاً في أنها فقيدة . ثم أنها بالتحديد في اختلاف ما اقتبسه الطبري عمّا لدى غيره ممَّن نقلوا عنه في مُختلف المصادر .

النتيجة عند الرّيشهري ، أن الاختلاف يضعنا أمام رواياتٍ مُتعارضة ، دون أن نملك ما يُرجّح أحدها . وبذلك انتهى إلى أنه يضع جميع هاتيك الروايات في سلّةٍ واحدة ، مقدّمة للحكم بسقوط الجميع .

هذه نتيجةٌ صحيحةٌ إجمالاً بحسب القواعد المعمول بها . ولكنّ الخروج من مشكلتها في نظرنا ليس محصوراً بإسقاط الجميع دون تمييز ، بحيث ننتهي إلى القول أن كلّ ما أتانا عن أبي مُخنف هو غير جديرٍ بالاعتماد ، كما انتهى إليه الريشهري . هذا هدرٌ وتبذيرٌ للمعلومات حيث تعزّ . بل بأن نمنح رواية الطبري درجةً من حيث المبدأ . (وهو امتيازٌ قد ألمح إليه الرّيشهري في آخر ما اقتبسناه عنه قبل قليل) . خصوصاً أنه (الطبري) الوحيد الذي التزم في كلّ ما اقتبسه عن أبي مُخنف بأن يأتي به مشفوعاً بسنده إليه ، على طريقة المُحدّثين [1]. الأمر الذي يسمح لنا اليوم بأن نبحث ونتحقّق بشأنها روايةً رواية . ويسمح لنا ، وهذا هو الأكثر أهمّيّةً عندنا ، بأن ننظر في مُلابساتها . سواءٌ فيما يتصل برجال السند ، خصوصاً في الأوّل منهم . أم فيما يتصلُ بالتسلسل المنطقي للأحداث ، وبالقياس إلى ما نعرفه عن أصحابها ، خصوصاً إنتماءاتهم السياسيّة والقبَلَيّة ، ومحرّكاتهم السلوكيّة . وهذه ميزةٌ ذات قيمةٍ جليلة لا تُبارى للباحث .

نخلص من هذه المُراجعة النّقديّة لقضيّة مصادر بحثنا ، إلى أن ماهو أحرى بالاعتماد منها هو ما اقتبسه الطبري عن أبي مُخنف ، عمّن شهد الأحدث ، أو عمّن روى عمّن شهدها. خصوصاً الحدث الرئيسي: يوم كربلا وأحداثه ومقدّماته وتداعياته

---

١ ــ باستثناء روايةٍ وحيدةٍ لدى البلاذري أوردها " عن أبي مخنف عن عبد الملك بن نوفل عن مساحق عن أبي سعيد المقبري . . . الخ." حكي فيها بعض مُقدّمات الحدث الكربلائي من الإمام الحسين (ع) في المدينة . (*أنساب الأشراف* : ٣ / ٣٦٨) .

المُباشرة. على أن نعرض مااختلف منها، وهو موجود وإن يكُن قليلاً ، على قواعد البحث البنيوي سنداً ومتناً .

أمّا غيره ممّا نجده لدى غير الطبري ، سواءٌ كان عن أبي مُخنف أم عن غيره ، فإننا قد نعتمده إذا توفّرت فيه شرائط الصحّة بحسب نظر الباحث . مع اهتمامٍ خاص بالشعر المُبكّر. ماكان منه حسينيّاً ، وما كان ضدّه . لِما يُقدّمُه للبحث والباحث من إطلالةٍ صادقةٍ على التفاعلات العميقة للحدَث الجَلَل في الأنفس ، بينما كان الجُرح حيّاً لايزال ينغرُ بالدّم . وحيث يعجز التأريخ والمؤرّخ عن الرؤية ، ولا ينفذ إلى الأعماق إلا الشعر والشاعر .

الفصل الأوّل

الإرهاصات الأُولى

(١) أرضيّةٌ تأريخيّة

حكم معاوية خليفةً مدة عشرين سنة ، حكماً يستند على قاعدةٍ في العمل السياسي لخّصها هو بقوله: " **لاأضعُ لساني حيث يكفيني مالي . ولا أضعُ سوطي حيث يكفيني لساني . ولا أضعُ سيفي حيث يكفيني سوطي . فإذا لم أجد من السيف بُدّاً ركبتُه** [١] ". والحقيقة أن هذه السياسة نجحت طيلة مدّة حكمه . ولكنّها ما لبثت أن تصدّعت بسرعة بعد وفاته ، تاركةً أسوأ الذّكر لصاحبها . روى أبو مُخنف عن الصقعب بن زهير عن الحسن (البصري ؟) قال : " **أربع خصالٍ كُنّ في معاوية ، لو لم يكُن فيه منهنّ إلا واحدة لكانت مُوبقة : انتزاؤه على هذه الأُمّة بالسفهاء حتى ابتزّها أمرها** (وفي هذه إدانةٌ صريحةٌ لكلّ بطانة معاوية) **بغير مشورةٍ منهم ، وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضل . واستخلافه ابنه بعده سِكّيراً خِمّيراً ، يلبس الحرير ، ويضرب بالطنابير . وادعاؤه زياداً ، وقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم " الولد للفراش وللعاهر الحجر" . وقتلُه حُجراً . ويلاً له من حُجر !** [٢] " .

ومع ذلك فإن الإمام الحسن (ع) ثم الإمام الحسين (ع) من بعده ظلاّ مُلتزميَن بما يقضيه عقد الصُّلح مع معاوية سنة ٤١هـ/ ٦٦١م . ليس ، فيما نحسب ، عن التزامٍ شخصيّ شرعيّ أو أخلاقيّ منهما ببنوده . بل لأن أُطروحةً معاكسةً ليس لها معنى سوى العود إلى القتال . وما من ريبٍ في أن صاحب هذا القرار سيضعُ نفسه في موضعٍ سياسيٍّ ضعيفٍ جدّاً تجاه الناس ، الذين لم ينسوا أهوال صفين . هذا فضلاً عن أن ميزان القوى سياسيّاً وعسكريّاً لم يكن في صالح فريق الإماميَن . الأمر الذي كان الإمامان يُصرّحان به لَمن يطالبهما من أصحابهما بالخروج . من ذلك أن الإمام الحسن

---

١ ــ *أنساب الاشراف* : ٥ / ٢٨ .

٢ ــ الطبري : ٥ / ٢٧٩ .

خاطب جمعاً من أصحابه قصدوه إلى المدينة ، فقال : " **والله لو سرنا إلى معاوية بالجبال والشجر ما كان إلا الذي قُضي** " . وقال الإمام الحسين (ع) يُخاطب صاحبه حُجر بن عديّ ، بعد أن خاطبه هذا بكلامٍ يدعوه فيه إلى العود إلى ما قبل الصُّلح ، فقال : " **ياحُجر ، ليس كلُّ الناس يُحبّ ما أحببت . إني قد بلوتُ الناس فلو كانوا مثلك في نيّتك وبصيرتك لأقدمت**[1] " . ومن هـذا وذاك أتى خطاب الإمام الحسين لأصحابه : "**ليكُن كلُّ رجلٍ منكم حِلْساً من أحلاس بيته ، ما دام هذا الرجل** (معاوية) **حيّاً . فإن يهلك وأنتم أحياء رجونا أن يُخير الله لنا ويأتينا رشدنا ، ولا يكلنا إلى أنفسنا**[1] " .

(٢) في الوضع السياسي عشيّةَ وفاة معاوية

هكذا يُمكن تلخيص الوضع السياسي عشيّة وفاة معاوية بالقول ، أنّه هو كان يعمل كل ما بوسعه ، دون أن يُصيب كبير نُجح ، بأخذ البيعة لابنه يزيد في العراق والحجاز . في حين أن الفريق المُعارض كانوا " **لايشكّون في أن معاوية إذا مات لم يعدل الناسُ بحسينٍ أحدا**[2] " .

ما من ريبٍ في أن معاوية كان يُدرك جيّداً حجم الخطر الكامن في هذا الوضع المُعقّد، الذي لم يكُن يحول دون انفجاره إلا صبرُ الإمام عليه للسببين اللذين ذكرناهما. وأنه سيسقط حتماً إثر وفاته . ومع ذلك ، مع إدراكه حجم الخطر، ومع فشله في أخذ البيعة لابنه في الحجاز والعراق بالنحو الذي يمنحه بدايةً هادئة لخلافة ابنه المنشودة ، فإنه أقدم على تمهيد أمر الخلافة له ، استناداً إلى القوّة السياسيّة والعسكريّة لفريقه في دمشق . دون أن ننسى بالإضافة إلى ذلك الحضورَ الأُموي القوي في الحجاز ، وأيضاً أعماله على اكتساب قاعدةٍ سياسيّة للعمل لحسابه في العراق ، أبرزُها استلحاق زياد بن أبيه . وبذلك اكتسب نهائيّاً إلى جانبه داهيةً سيكون له أبعد الأثر في الأحداث القادمة لمدة عقدين من الزمان .

---

١ ــ *أنساب* : ٣ / ٣٦٥ .

٢ ــ نفسه : ٣ / ٣٦٦ .

يبدو أن زياداً ، استناداً إلى نسبه السفيانيّ المَزعوم ، كان يعتبر نفسه شريكاً في الحكم ، وليس مجرّد والٍ لمعاوية يعمل بسياسته وينفّذ أوامره ، فكأنّ السلطة قسمة بينهما . ومن ذلك أنه عندما طرح عليه معاوية أمرَ أخذ البيعة ليزيد في العراق لم يُخفِ مُعارضته لذلك بحجة أن يزيد **"صاحب رَسْلَة** [كسل] **وتهاوُن "** . وكتب إلى معاوية بأن يتأنّى ولا يتسرّع [١]. فسكت معاوية على الأمر إلى ما بعد وفاة زياد . وإنّنا نحسُّ من موقف زياد هذا وكأنه كان يُحدّث نفسه بأنه الأحقّ من يزيد بولاية العهد لـ (أخيه) . كما نعرف من هذا الخبر أن نزوع معاوية إلى أخذ البيعة لابنه كان قبل وفاته بخمس سنوات على الأقلّ (توفي زياد سنة ٥٦هـ/ ٦٧٥م . وتوفي معاوية سنة ٦٠ هـ/ ٦٧٩م) . ثم أنّنا نلاحظ في مطاوي هذا التنقيب في مُكوّنات الوضع السياسي قبل كربلا ، أن زياداً في حين حال بين معاوية وأخذ البيعة لابنه يزيد ، فإن الطريق كانت مفتوحة أمام ابنه عُبيد الله ليرث منصب أبيه العالي . بل وليرث أيضاً اغتراره بأنه شريكٌ ليزيد في الحكم ، مثلما كان أبوه شريكاً لمعاوية . ممّا سنجد تأثيره جليّاً على الأحداث الآتية . فكأن معاوية إذ تقبّل أو أمر بوراثة عُبيد الله لأبيه كان يؤدّي مشهديّةً لِما سيتكرّر بوراثة يزيد له في الخلافة .

لكن كان من المقدور أن هذا السيناريو بمختلف فصوله سيكون أيضاً السببَ المُباشر في السّقوط النهائي للبيت السفياني ، بتأثير موجة الغضب الهائلة التي اجتاحت المنطقة انطلاقاً من العاصمة دمشق ، ارتكاساً على الأعمال الوحشيّة التي ارتكبها عُبيد الله . خصوصاً حملهُ نساء وأطفال الشهداء ، واستعراضهم الغبيّ غير المسبوق في البلدان . فكأن معاوية إذ استلحق زياداً في سياق تهيئة الأُمور لابنه في العراق ، ثم تقبّل أو أمر بوراثة ابنه له ، كان كمَن ساق الأرَضَة إلى خشب سقف بيته ، فانهار على رأس ابنه وعلى رؤوس رجال البيت السفياني ، بحيث لم تبقَ منهم باقية [٢] .

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٣٠٢ ــ ٣٠٣ .

٢ــ للتفصيل كتابنا *موكب الأحزان* ، الفقرة التاسعة من فصل (الحدث الكربلائي يتفاعل) .

وذلك من أعظم العبر لَمَن يُحسن تركيب أحداث التاريخ .

لن يتمّ غرضنا من هذه الفقرة إلا بأن نُلمّ بجانبٍ شخصيّ من إعداد معاوية ابنه لاكتساب الدهاء الذي يفتقر إليه بشدّة ، بحيث يصِلُ إلى أغراضه من أسلم وأقوى السُّبُل . من ذلك أنه طلب من أبيه قتل رجلٍ أغلظ له القول . فأرسل معاويةُ الرجلَ إلى ميدان القتال حيث لقي حتفه . وعلى الأثر قال لابنه : " **يابنيّ هذا أخفى**[٢] " . وفي حالةٍ مُشابهة أوصاه بأن يُكرم مَن أساء إليه ، بدلاً من إنزال العقاب به . لأن العقوبة ستستفزّه إلى عمل المزيد ممّا كان سبب غضب يزيد . وهكذا كان[٣] .

لكن أكثر ماله علاقة ببحثنا من هذا القبيل ، وصاياه المُتكرّرة لابنه بما سيواجهه أولُ من مواقف مُتوقّعة بعد وفاة الأب . أُولاها بعد عوده من الحجاز ، حيث فشل في الحصول على بيعة الإمام الحسين (ع) ليزيد ، فقال له فيما زعموا:"**أمّا الحسين بن علي فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يُخرجوه . فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فإنّ له رحماً ماسّةً وحقّاً عظيماً**[٤]".والثابت أن معاوية حجّ في السنة الأخيرة من حياته بعد أن اشتدّت به العلّة ، قاصداً فيما يبدو أن يحصل على البيعة لابنه في الحجاز ، خصوصاً من الإمام .وفي سبيل ذلك عقد معه عدّة لقاءات في المدينة ثم في مكة . تحدّث فيها مُرغّباً ومُرهّباً . حتى أنّه وصل بالترغيب إلى حدّ القول أنّه إذا قدّم الإمامُ يزيداً باسم الخلافة ، فسيكون له ، أي للإمام ، السُّلطة الفعليّة ، ولايكون ليزيد إلا اسم الخلافة[٥]. وطبعاً كان ذلك العرض خدعةً مكشوفةً. كان أشبه بوعدٍ لُمقاتل بالسّلامة والغنيمة ، إنّما بعد أن يُلقي سلاحه في ساحة المعركة . وطبعاً أيضاً فإنه لم يسمع من الإمام إلا كلمة الرفض .

---

١ ــ *أنساب* : ٥ / ٨٨ .

٢ ــ نفسه : ٥ / ٣١ .

٣ ــ أيضاً : ٥ / ٢٥ .

٤ ــ الطبري : ٥ / ٣٢٢ .

٥ ــ ابن أعثم : كتاب الفتوح ، ط. حيدر آباد ، لات. : ٤ / ٢٤٥ .

ومع ذلك الموقف الصّلب الحَدّيّ من الإمام ، فإن معاوية فيما زعموا واجهه بتلك الكلمات الحانية النبيلة .

في رأينا أن هذا الكلام المعسول ، خصوصاً تشخيص السبب بزعمه (الرّحم الماسّة والحقّ العظيم) ، لم يكُن الغرض منه إلا تظهير النوايا السيئة المكتومَة . ومن المعلوم جيداً من سوابق معاوية أنه لم يكُن ممّن يحول بينه وبين ما يروم لا الرّحم الماسّة ولا الحقّ مهما يكُن عظيما . ولذلك فإننا نظن أنه إنّما تعمّد أن يُدلي بذلك الكلام المَعسول جهاراً ، ولولا ذلك لم يصِل إلى الناس وعبرهم إلينا . ولو ان المقصود به كان يزيدٌ حقّاً لسارّه به سِراراً . فهي النهاية وصيّةٌ شخصيّة بأُمورٍ شخصيّة ، عليه وحده أن يعمل بها . ومن هنا فإننا نعتقد أن وظيفة هذه الوصيّة المُعلنَة إنّما هي التغطيةُ على وصيّةٍ أُخرى مكتومَة ، لن تلبث الأيام القادمة أن تُفصحَ عنها .

(٣) المُتغيّرات بعد خلافة يزيد ، وموقف الحسين (ع) منها

في نهاية هذا المَطاف ، الذي طوّفنا فيه فيما بدا لنا أنها الإرهاصات (المقدمات العملانيّة) للحدَث الكربلائي ، كان الذي لا بُدّ من أن يكون ، ووصلت الأُمور إلى مآلها المحتوم . مات معاوية ، وكان لموته وقْعٌ مختلف : يزيد قفز إلى سُدّة الخلافة دون أن يسأل أو يُسأل عن مُسوّغ خلافته ، وهو مَن هو في سيرته الشّائنة . إلا ماكان من كتابٍ كان أبوه قد أمر بقراءته على الناس في دمشق باستخلافه إن حضرته الوفاة [١] . مع أن مثل هذه الوسيلة كانت سابقةً غير مسبوقَة بين العرب لا في الجاهليّة ولا في الإسلام . وإلا ما كان من أخذ معاوية البيعة لابنه من الذين وفدوا إليه مع عُبيد الله بن زياد من أهل البصرة [٢] . أمّا الإمام ، ومن ورائه شيعته المُتحفّزون ، فهاهو وهاهم الآن في الموقع والاستحقاق الذي طالما منّاهم إمامهم ومنّوا أنفسهم به ، مخرجاً من حالة السكون العلقم إلى حالة العمل الجذري المُباشر .

---

١ ـ *أنساب* : ٥ / ٨٨ .

٢ ـ الطبري : ٥ / ٣٢٢ .

ما أن استقرّ يزيد على كرسي الخلافة ، حتى سطر كتاباً إلى ابن عمّه الوالي على المدينة ، الوليد بن عُتبة بن أبي سفيان ، نعى فيه معاوية . أرفقه بصحيفةٍ صغيرةٍ "كأنها أُذن فأرة" فيها: **"خُذ حسيناً وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزُبير أخذاً شديداً، ليست فيه رُخصة ، حتى يُبايعوا والسلام [1] "** .

والمفهوم من هذا الإجراء غير المألوف ، أن الكتاب هو برسم الإعلان على الكافّة . أمّا الثاني فهو سرّيٌّ خاص بالوالي وببطانته الأُمويّة القريبة .

ولكنّ الأحرى بالتأمُّل منّا ، ونحن نستعيد وقائع تلك الأيام الحافلة ، أن يزيداً قد اتخذ هذه البادرة ، بما تنطوي عليه من احتمالاتٍ خطيرة ، فوراً وقبل أن يأتي أحدٌ من أُولئك الثلاثة ، خصوصاً الإمام ، بأيّ ما من شأنه أن يدعو إلى أن **"يؤخَذوا أخذاً شديداً ليست فيه رخصة "** . الأمر الذي يُعزّز ما ذهبنا إليه قبل قليل ، أن تلك الوصيّة المزعومة من معاوية لابنه كان الغرض منها التغطية على وصيّةٍ أُخرى مكتومة . هذه هي أوّل عناصرها . المقصود الأساسي منها هو الحسين (ع) ولا ريب . وهي سياسةٌ مَبنيّةٌ على استباق الأُمور قبل أن تصِلَ إلى مستوى الحِراك الفعلي من أهل العراق باتجاه الإمام ، كما يتوقّع معاوية . وهو الذي كان يعرف جيّداً حجم وقوّة التّململُ السياسي في الكوفة ، الذي كان الإمام يضبطه ، آمراً أولياءه بالسّكون طالما كان معاوية حيّاً .

كان الوليد ، خلافاً لَمَن دخلوا لُعبة السياسة من باب خلافة عثمان من أُسرته ، امرئً مؤثراً للسلامة . ينأى بنفسه عن مواطن الخلل في الشرف أو الدين كما يفهمه . لم يُؤثَر عنه ، قبل ولايته هذه على المدينة ، إلا أنّه ولي الموسم (يعني إدارة موسم الحجّ) مرّات . وسنشهد له فيما سيأتي غير موقفٍ معتدلٍ من الإمام . ومع ذلك فإنّ المسكين اغتيل في فوضى الصّراع السفياني ــ المرواني على الخلافة بعد يوم كربلا . لا لذنبٍ جناه إلا لأنّ أهل الشام أرادوه على الخلافة عقب مقتل معاوية الثاني بن يزيد [2] .

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٣٢٨ .

٢ ــ الذهبي: *سير أعلام النبلاء* ، ط. بيروت ١٣٩٦هـ :٣/ ٣٥٠.واقرأ ماعلّقناه على الواقعة في كتابنا موكب *الأحزان*/ ٦٠.

ما أن قرأ الوليدُ الكتاب السّريّ حتى " **فظِعَ له وكبُر عليه** [1] " . ليس لموت معاوية كما فهم راوي الخبر فيما يبدو . بل لِما أمر به من أخذ أُولئك الثلاثة بالبيعة **"أخذاً شديداً حتى يُبايعوا "**. وهو الذي كان يعلمُ أن هذا المطلب ليس بالأمر اليسير . كان يعلم أن الحسين (ع) خصوصاً لن يُعطي عن يد ، ولن يُبايع شخصاً في مثل خصال يزيد . لقد استشرفَ الرجلُ مخاطرَ الآتي ، وهو الذي عرفناه على حدٍّ من اعتدال السّليقة مؤثرَ سلامة .

الغريب أن الرجل لجأ في ورطته إلى مروان بن الحكم . ومروان هو ذلك الثعلب الماكر ، ومن موقدي الفتنة في الإسلام . كان وليَ المدينةَ غير مرةٍ لمعاوية . ومن العجيب حقّاً أن يأتمن الوليدُ مثلَه . ولعلّه رمى من إشراكه في الرأي إلى تقاسُم المسؤوليّة ، فيما هو مَفروضٌ عليه ، مع كبير البيت الأُموي يومذاك ، بعد موت معاوية وقبله سعيد بن العاص . وبذلك يُزيحُ عن كاهله جزءاً من المسؤوليّة .

المُهمّ أن الرجلين جلسا ، وبينهما كتابُ يزيد وأمرُه السّريّ ، يُجيلان وُجوهَ النظر في التدبير المُناسب ، وتدارُك الأُمور قبل أن يفشو خبر موت معاوية . وكان من رأي مروان أن قال :" **أرى أن تبعثَ الساعةَ إلى هؤلاء النفر الثلاثة فتدعوهم إلى البيعة والدخول في الطاعة . فإن فعلوا كففتَ عنهم . وإن أبوا قدّمتهم فضربتَ أعناقهم قبل أن يعلموا موتَ معاوية . فإنهم إن علموا بموت معاوية وثب كلُّ امرئٍ منهم في جانب وأظهر الخلاف والمُنابذَة** [1] " .

لكنهما بعد أن اتفقا على أن لا خوفَ من ابن عُمر ، بعث الوليدُ رسولاً من البيت الأُموي يدعو الإمامَ وابنَ الزُبير . الأمر الذي أثار لديهما تساؤلاً عن سبب الدعوة المُفاجئة في غير الوقت الذي يجلس فيه الوالي للناس . وبسرعة خمّن الإمام ما وراء الدعوة تخميناً دقيقاً، بأن قال:" **إنّي أرى أن طاغيتهم قد هلك . فبعث إلينا ليأخذنا بالبيعة قبل أن يفشو في الناس الخبر** [1] " . وبالنتيجة انتهيا إلى أن يُجيب كلٌّ منهما

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٣٣٨.

دعوة الوالي ، بعد ان يتخذ الإمامُ أُهبته ، آخذاً بالاعتبار أسوأ الاحتمالات . فاصطحب عدداً من فتيانه بالسلاح . مع أوامر لهم بالتدخُّل عند الاقتضاء .

دخل الإمامُ مجلس الوالي وعنده ابن الحكم . وطبعاً تجاهل ظنّه الصائب بوفاة معاوية . وقبل أن يجلس خاطب الرجليَن بقوله : " **الصّلةُ خيرٌ من القطيعة . أصلح اللهُ ذاتَ بينكما** ". لأنهما كانا مُتقاطعيَن منذ عزْل مروان عن الولاية وتولية الوليد. فلم يُجيبانه عن قوله بشيء . فأقرأه الوليدُ الكتاب ، ودعاه إلى البيعة . فأجابه عمّا دعاه إليه فقال : **مثلي لايُعطي بيعته سرّاً . ولا أراك تجتزيء بها منّي سراً ، دون أن تُظهرها على رؤوس الناس علانيةً** " فقال الوليد : " **انصرف على اسم الله حتى تأتينا مع جماعة الناس** " . والظاهر أن الداهية مروان التفت إلى مغزى كلام الإمام . فخاطب الوليد قائلاً : " **والله لئن فارقك الساعة لا قدرتَ على مثلِها أبداً حتى تكثُرَ القتلى بينكم وبينه . احبس الرجل ، ولا يخرج من عندك حتى يُبايع أو تضربَ عنقه** ". فوثب الإمامُ واقفاً ، وقال : " **يا ابن الزرقاء أأنت تقتلني أم هو ؟ . كذبتَ والله وأثمت !** " . ثم خرج.

ما ان خرج الإمام حتى شجر بين الرجليَن . فوبخ ابنُ الحكم الوليدَ على إدارته للجلسة وعصيانه إياه ، بحيث أن الإمام خرج منها سالماً ، دون أن يلتزم بشيء . فأجابه هذا بجوابٍ حازمٍ شجاع . قال : " **وبّخ غيري يامروان ! إنك قد اخترت لي التي فيها هلاك ديني . والله ما أُحبُّ أنّ لي ما طلعت عليه الشمسُ وغرُبت عنه من مال الدنيا وملكها وأنني قتلتُ حسيناً . سبحان الله ، أقتلُ حسيناً أن قال لي لاأُبايع !؟ والله لأظنُّ امرئً يُحاسَبُ بدم الحسين لخفيف الميزان يوم القيامة** ". ولم يملك مروان جواباً على هذا الكلام القويم إلا أن قال : " **إذا كان هذا رأيك فقد أصبتَ فيما صنعت** [1] ". ولكنّ الوليد حكم على نفسه بكلامه هذا بالعزل .

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٣٤٠ . هشام بن محمد الكلبي عن أبي مُخنف .

الخُـروج

(١) ملاحظاتٌ تمهيديّة

تلك الجلسةُ العاصفةُ ، التي لم تطُل غير بضع دقائق فيما يبدو ، وقصدَ الإمامُ أن يبدأها بدايةً لم تخلُ من مودّةٍ ظاهريّة ، هي لحظةٌ من لحظات الدهر . كانت بمثابة البادئ لسلسلةٍ من الأحداث الآخذ بعضها برقاب بعض . وصلت إلى ذروتها بعد ستة أشهر تقريباً بيوم كربلا المشؤوم . الذي لم يكُن ما بعده مثل ما قبله . وما برحت أصداؤه الانقلابيّة تتردّد في الأنفس والاحداث حتى اليوم .

فلنلاحظ أوّلُ الدّقّةَ والاستيعابَ في نقل مفردات الحوار الذي تُبُودل في تلك الجلسة ، مع أنّها اقتصرت على الإمام ومُمثّلَي السُلطة . أبو مُخنف يرويه عن هشام بن محمد الكلبي ، وهو من كبار رُواة الطبري . الأمر الذي يمكن أن يُفهمَ منه أن ماجرى في تلك الجلسة قد فشا وذاع بين الناس بوسيلةٍ ما ، بحيث وصل إلى هشام ثم سجّله عنه أبو مُخنف . وعلى كل حال فما هذه أوّل ملاحظةٍ من مثلها . بل هي من أُعجوبات الذّاكرة الشّفويّة العربيّة في الحِفاظ على التراث بمختلف وجوهه ، قبل أن يصرف الرُّواةُ اهتمامهم إلى التدوين ، وفي طليعتهم الكلبي .

ثمة سؤالٌ ذو شُعب لايسعُنا إلا أن نطرحه ، لا لأنّنا نطمع بجوابٍ شافٍ :

ماكان تأثير بادرة يزيد في التطوّرات القادمة ؟

هل كانت ستأخذ المنحى نفسه لو انه تريّث بانتظار ما سيُقدم عليه خصومه المُفترضون ؟

ممّا لا ريب فيه أن بادرته بالنحو الذي حصلت فيه تنطوي على احتمالاتٍ خطيرةٍ جدّاً . فماذا ، مثلاً ، لو انّ والي المدينة لم يكُن على ما عرفناه من تعقُّلٍ وورع ، فأقدم على العمل الطائش الذي نصحه به مروان ؟

نطرح هذه التساؤلات لا لنحصل على جواب . بل إننا نرى أن ليس من وظيفة المؤرّخ أصلاً أن يتساءل : ما الذي كان سيحصل لو لم . . . . ، وإنّما لنؤكّد ما قد قُلناه

أعلاه أن تلك الجلسة كانت لحظةً من لحظات الدهر . بمعنى أنّه بُني على ما جرى فيها تاريخٌ طويل . ولو ان الأُمور سارت أثناءها باتجاهٍ مختلفٍ ، لكان من المُحتمل جدّاً أن يسلك التاريخُ بأهله مسلكاً آخر . ولربما كنّا نحن اليوم نعيش ضمن مسارٍ تاريخيّ مُختلف . ولله أمرٌ هو بالغه .

وعلى كلّ حال ، فإنّ من المؤكّد الذي لا ريب فيه ، أن بادرة يزيد قد عجّلت على الأقلّ ظهور آثار الأزمة السياسيّة العميقة التي زرعتها بقصد سياسةُ معاوية ، الرّامية إلى أخذ ثأره من هذا الطّارئ الذي اسمه الإسلام . وكانت (البادرة) مُرشّحةً للانفجار ما أن وجد أحد أطرافها أن الظرف السياسي مؤاتٍ له ، وأن ميزان القُوى يميل لصالحه .

ثمة روايةٌ لا بدّلنا من الوقوف عليها ، قبل أن ندخل في تحليل خروج الإمام من المدينة ، تقول أنّه دخل مسجد النبي (ص) مُعتمداً على رجليَن ، يعتمدُ على هذا مرّةً ، وعلى هذا مرّة ، وهو يتمثّل بقول ابن مُفرّغ :

لا ذعرتُ السُّوّام في فلق الصُّبـ ـح مُغيراً ولا دُعيـتُ يزيدا
يومَ أُعطى مـن المهابــة ضيماً والمنايا يرصدنني أن أحيدا [1]

مصدرُ الرواية أبو سعيد المَقبُري ، واسمه سعيد ، وهو من رُواة الطبري [2]. وهو يزعم أنه رأى الحسين (ع) بأُمّ عينه على ماوصفه . وعنه عبد الملك بن نوفل بن مُساحق ، وهو من رُواة الطبري أيضاً ، وعن هذا أبو مُخنف .

نحن نرتاب كثيراً بصحّة هذه الرواية لغير سبب . منها أن من المؤكّد أن الإمام يومذاك وإلى مابعده حتى شهادته لم يكُن في وضعٍ يمنعه من السّير، بحيث يحتاج إلى مَن يعتمدُ عليه . فظهوره بذلك النحو ، في أجمع مكان للناس من المدينة ، سيكون

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٣٤٢ و*أنساب* : ٣ / ٣٦٨ .

٢ ــ انظر فهرست أعلام الطبري ، مادة " سعيد بن أبي سعيد المَقبُري " . ومنه يظهر أن هذه الرواية هي آخر مارواه الطبري عنه .

تظاهراً ممجوجاً وفي غير محلّه . ثم أن من المُستبعَد جدّاً أن يُعلن على كلّ مَن يسمع نواياه ، حسب مايوحي به مضمون البيتيَن ، من نيّةٍ لديه لاستجابةٍ عنيفةٍ على موقف السُلطة تجاهه . وهو الذي كان حتى الآن ، بل وحتى خروجه من المدينة ، يعمل على كسْب الوقت للنأي بنفسه عن أجهزة السُّلطة ويدها القمعيّة ، كما سيحصل بالفعل . هذا ، فضلاً عن أن دخوله مسجد جدّه ومُحيط مرقده بذلك النحو العلني المزعوم ، بما فيه من تهديدٍ صريح ، يتنافى مع ماهو مُتوقّع منه وممّن مثله من خشوعٍ وتجليل .

لكلّ ذلك فإنّنا ننفي صحّة هذه الرواية جملةً وتفصيلا . وما ندري مَن الذي زجّها في أخبار تلك الأيام . وإن كُنّا لا نراها بعيدةً عن أبي سعيد ، بأنّه زعم أنه كان شاهد عيان . وهو تفصيلٌ غير ضروري ولا علاقة له بأصل الخبر . يصعبُ أن نتصوّر إضافته لو كان واضعه أحد الاثنين اللذين روياه .

(٢) خروج الإمام من المدينة ومعناه

بعد ذلك المجلس ، الذي سقطت فيه الأقنعة وبرِح ما في النفوس ، بات من الواضح للإمام أنه لم يعُد له مكانٌ آمنٌ في مدينة جدّه . خصوصاً في ظلّ تتابُع الرُّسُل إليه تُلحُّ عليه بأن يُبايع علناً . وخصوصاً أيضاً أنّه قد غدا من غير المكتوم ، أنّ الوليد قد انكفأ انكفاءَ مَن يرغبُ بنفسه عن الانغماس في المُدلهمّات الآتية . وأن مروان قد بات الوالي الفعلي ، والعامل على تنفيذ أمر يزيد بأخذ البيعة ، حتى تحت طائلة قتل العاصي كائناً مَن كان . وإن ظلّ الوليدُ الوالي الرسميّ لمدّة شهر بعده ، قبل أن يُعزَل ، ليُولّى عمرو بن سعيد الأشدق على الحرميَن كليهما .

في هذا الجوّ المُنذر بأسوأ العواقب لم يبقَ أمام الإمام إلا الخروج من المدينة . وفي ليلة الأحد ٢٨ رجب سنة ٦٠ وصل الضغطُ عليه ليُبايع إلى أقصى ما كان . إذ جاءه الطلبُ بثمانين فارساً . وفي ذلك تصعيدٌ مقصود ، يُنذر بتحوّلٍ جذريّ في سياسة السُلطة المحلّيّة نحوه . ورسالةٌ واضحةٌ غير مسبوقَة ، تقول بأبين لسان أنّ الأمر سيُعالج منذ الآن بأقسى الوسائل . والقارئُ اللبيب ، الذي خبرَ طبائع الرجال في هذا المُعترَك ، ليس من العسير عليه أن يرى بصمات مروان واضحةً جليّةً في هذا التّصعيد .

صرف الإمامُ الفرسان الثمانين بالحُسنى **" أصبحوا ثم ترون ونرى ! "** . ثم مالبث أن أقلع باتجاه مكة . وفي هذا دليلٌ على أنه كان يتوقّع تلك الخطوة او مثلها من مروان ، وأنه كان قد أعدّ للأمر عُدّته ، وهيّأ ما ينبغي أن يهيئه للرحلة الطويلة الخطرة ، كما أخطرَ بنيه وبني أخيه الحسن (ع) وبعضَ أهل بيته ، كيما يكونوا متأهبين عند الطلب . خلا أخاه محمد بن الحنيفة ، الذي سينأى بنفسه وببنيه منذ الآن ، بل من قبل ذلك [1] عن الدخول فيما جدّ من أخيه وعليه حتى الشهادة في كربلا ، بل إلى ما بعد ذلك أيضاً . وليس من خطّتنا في هذا المقام أن نخوض في أمره بأكثر من هذه الإشارة التي اقتضاها سياق الكلام .

مهما يكُن ، فلقد كان خروجُ الحسين (ع) من المدينة إلى مكة حمّالَ غير معنى . فهو بمعنىً خروجٌ ماديّ من مركز السُّلطة المحلّيّة ، ونأيٌ بنفسه عن أجهزتها ويدها القمعيّة إلى حيث حرَم الله وأمنه ، وفي ذلك طلبٌ للسّلامة . ولكنّه بمعنىً غيره بمثابة إعلانٍ صريحٍ بالقطْع معها وتحدّي إرادتها ، وليكُنْ بعد ذلك ما يكون . وفي ذلك طلبٌ لعكس ذاك كما هو واضح .

ثم أنّه في خروجه هذا كان ما يزال في مرحلة الارتكاس على فعل السُلطة وسياستها ، أي أنّها ليست عن اختيارٍ حُرّ . الأمر الذي عبّر عنه هو بنحوٍ مَرموز ، إذ تلا على مَن يسمع من رفاق دربه وهو في الطريق إلى مكة ، قولَ الله تعالى ذاكراً كليمَه موسى (ع) : ﴿ فخرج منها خائفاً يترقّب قال ربِّ نجّني من القوم الظالمين [2] ﴾. بما في الآية من استحضارٍ لثُلاثيّ الخوف والتّرقُّب والظالمين . وبالُمقابل الالتجاء إلى الله سبحانه بطلب النجاة منهم . الأمر الذي يُقرّبنا قليلاً من الجواب عن السؤال الذي طرحناه قبل قليل ، على تأثير بادرة يزيد بكتابه إلى واليه في المدينة . لقد بات واضحاً

---

١ ــ ذلك إذا صحّ خبر البلاذري أنه **"بايع ليزيد بن معاوية حين أخذ معاوية له البيعة على الناس** (في الشام ؟) . **فكان معاوية يشكر له ذلك ويصِله عليه "** . انظر :*أنساب* : ٣ / ٤٦٩ .

٢ ــ الطبري : ٥ / ٣٤٣ .

لدينا الآن أنه لولاها لأتت بدايات عمل الحسين (ع) ، البدايات على الأقلّ ، تجاه فَرْض خلافة يزيد فَرْضاً على الأُمّة ، مختلفةً تماماً .

ثمة روايةٌ هامة عن عُقبة بن سِمعان ، الذي كان في عِداد موكب الإمام الخارج من المدينة ، وقد عرفناه من قبل مولىً للرباب زوجة الإمام ، وأحد النّاجين القلّة من فريقه يوم كربلا ، قال : " **خرجنا** [من المدينة] **فلزمنا الطريقَ الأعظم** [أي الطريق الرئيس من طُرُقٍ كثيرةٍ متفرّعة] **فقال للحسين أهلُ بيته : لو تنكّبتَ الطريق الأعظم كما فعل ابنُ الزبير ، لا يلحقك الطّلب . قال : لا! ، والله لاأفارقه حتى يقضي الله ما هو أحبُّ إليه** " [1] .

الرواية في الغاية من حيث الأهميّة الدّلاليّة . فهي تدلُّ :

ــ أولاً: على أنّ الإمام في خروجه كان يعملُ بذهنيّة تحدٍّ صريحٍ لإرادة السُلطة في المدينة ، التي كانت مُتمثّلة عملانيّاً آنذاك بمروان بن الحكم . ولذلك فإنّه لم يعمد إلى محاولة تضليلها بسلوك طريقٍ من الطرقات الكثيرة الفرعيّة . تاركاً لها أن تتصرّف بما يُمليه عليها موقعُها .

ــ ثانياً : على أن ابن الحكم قد استوعب التحدّي . ومع أنّه كان قد أمر الوليدَ قبل بضع أيام بقتل الحسين (ع) إذا هو أصرّ على الامتناع من المُبايعة ، فإنه الآن ، بعد أن ابتعد الإمام عن المدينة بمن معه من أهل بيته ، يتهيّب أن يعمل بما ينال منه . فلم يلجأ إلى تنظيم فرقة مُطاردة ، كما فعل بالأمس مع ابن الزُبير ، هي نفسها فرقة الثمانين الفرسان التي طوّقت منزل الإمام ليلة خروجه . وتخلّص الإمام منها بالحُسنى قبل أن يُقلع باتجاه مكة. من الواضح أن تهيّبَ مروان المُفترَض هذا لا يرجع إلى حجم القُوى العسكريّة التي كانت طوع أمره ، بالقياس إلى مَن كان مع الحسين (ع) وهو في الطريق إلى مكة ، بل ربما إلى اعتبارٍ آخر ، لعلّ سياق البحث سيوضحه بعد قليل .

ممّا لا ريب فيه أنّ الإمام في حساباته الدقيقة والصّائبة ، التي بنى عليها حِراكه

---

١ ــ نفسه : ٥ / ٣٥١ .

حتى الآن ، لم يكُن يستند إلى ماتحت يده من قوّةٍ مادّيّة ــ قتاليّة . نعرف أنها كانت محصورةً في أهل بيته وبعض ذوي قُرباه . حتى أهل بيته لم يكونوا جميعاً إلى جانبه . أبرزهم أخوه محمد المعروف بابن الحنفيّة وأبناؤه الكثيرون، الذين خذلوه أينما كان بحاجةٍ إلى الناصر . بل كان مُستنداً إلى موقعه المعنويّ السّامي ، بوصفه سبط النبي الوحيد . وصاحب المقام المعنوي في الحجاز الذي لا يُدانيه مقام .

إن تباشير على وممّا هو آت بدأت تظهر قبل وصول الإمام إلى مكة . حيث سيبدأ الحسين (ع) عمله باتجاه التنظيم السياسي للقُوى الشعبيّة التي يأمل تأييدها فيما هو مُقدمٌ عليه .

الفصـل الثالـث

في مكّـة

(١) الوضعُ الذي واجهه الإمامُ في مكة

أثناء الطريق بدأت تظهر للإمام بعضُ معالم الوضْع الشديد الالتباس الذي سيخوض فيه في مكة . وذلك إذ لقي عبد الله بن مُطيع القُرشي العدَوي .

وعبد الله هذا من ذلك النمط من الرجال ذوي الجلَد والشجاعة ، الذي يأبى أن ينأى بنفسه عن الخوض في عظائم الأُمور العالقة من حوله . ليس عن عقيدةٍ أُخرويّة ، ونظرٍ إلى ما يحلّ وما لا يحلّ وثوابٍ وجزاء وما إلى ذلك . بل مُتسلّحاً دائماً بالروح البدويّة وقيمها ، التي تدور على الحميّة والشرف وما يناسبها . وقد وصف الطبري في مطاوي تاريخه مغامراته العجيبة فيما جدّ بعد وجرّاء يوم كربلا . وتقلّب في مُتقلّباتها . فكان على قريش يوم الحرّة ، واستعمله عبد الله بن الزبير على الكوفة ، إلى أن قُتل مع المختار[١] .

يروي لنا الطبري ، عن *مقتل الحسين* لأبي مُخنف ، بحقّ روايته بسنده عن عُقبة بن سِمعان ، أن عبد الله لقي الحسين (ع) أثناء الطريق فقال له : " **جُعلتُ فداك ، أين تُريد؟**" فأجابه:"**أمّا الآن فإنّي أُريد مكة. وأمّا بعدها فإنّي أستخير الله** ". قال:"**خارَ اللهُ لك وجعلنا فداك . فإذا أنت أتيتَ مكة فإيّاك أن تقرُبَ الكوفة ، فإنها بلدةٌ مشؤومة. بها قُتل أبوك ، وخُذل أخوك ، واغتيلَ بطعنةٍ كادت تأتي على نفسه . الزم الحرم فإنّك سيّد العرب . لايعدل بك والله أهلُ الحجاز أحدا ، ويتداعى إليك الناس من كلّ جانب. لاتُفارق الحرم ، فداك عمّي وخالي . والله لئن هلكتَ لنُسترقّنّ بعدك** " [٢] .

---

١ ــ يمكن تتبّع أخباره استناداً إلى فهرست أعلام الطبري مادة " عبد الله بن مطيع العدوي " . وانظر الترجمة له في *تهذيب الكمال* للمزّي ، ط.بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م : ١٦ / ١٥٢ ــ ٥٦ .

٢ ــ الطبري : ٥ / ٣٥١ .

هل كان الإمام آنذاك لم يكُن قد حزم أمره أين يتجه بعد مكّة حقّاً ، تاركاً الخيرةَ في ذلك إلى الله تعالى ، أم أنه كان يُخفي حقيقة خطّته ومقصده حسبما تقتضيه الحكمة ، خصوصاً وأن المقامَ مقامُ جوابٍ على سؤالٍ عابر ؟ ولكنه بالتأكيد لم يكُن يضع البقاء في مكة في حساباته .

نحن نُرجّح الوجه الثاني . وإن يكُن ترجيحنا هذا من خارج ما يوحي به الحوار ، ناظرين لالتزام الإمام المعروف اتجاه شيعته في الكوفة . وهو الذي ما انفكّ يُلبّثهم بانتظار موت معاوية . الأمر الذي لم يكُن خفيّاً . ولذلك رأينا العدوي يقفز في كلامه مباشرةً إلى ذكر الكوفة وأهلها ، ناهياً الإمام عن أن يقرَبها حتى اقتراباً ، فضلاً عمّا هو بمفهوم المُوافقة أكثر.

يبدو ابنُ مُطيع في لحن كلامه مُنكراً خلافة يزيد . ومن هنا فإنه إذ نهى الإمام عن الكوفة وأهلها ، لم يأمره بالقعود ، كما سيفعل كثيرون بعد قليل ، خوفاً عليه ، أو درءً للفتنة فيما يزعمون . بل نصحه بأن يلزم الحرم حيث سيكون آمناً بأمنه وأمانه . وحيث سيتداعى إليه الناس ، أي سيدعو بعضهم بعضاً إلى تأييده . فليبدأ من هنا .

لكن ذلك التّداعي ، بالنظر إلى مزاج ابن مُطيع البدوي ، ليس عنده لوازعٍ أو لداعٍ دينيّ ، إمام أو سبط النبي (ص) ، أو منصوصاً عليه من الإمام السابق ، وكلّ ما هو من هذا القبيل . بل لأنه **"سيّد العرب"** ، وهي صفةٌ لاتتوفّر بمواصفات يزيد الشخصيّة والمسلكيّة . ومن المعلوم أن مفهوم السّيادة عند العرب هو مفهومٌ قَبَلِيّ . يعني السّيادة على القبيلة حصراً . ولكنّه على لسان ابن مُطيع مُنح معنىً أقواميّاً . وهو نقْلٌ ارتجاليٌّ لسنا نجِدُ له شبيهاً . مفهوم ذلك ، وإن كنّا لا نظنُّ أن ابن مُطيع يُريده ، أن هذه الصفة لو توفّرت ليزيد لكان هو أيضاً أهلاً للصفة .

ومع ذلك ، مع هذا الاغتراب عند ابن مُطيع عن المفاهيم التي زرعها الإسلام ، ومع أنه يبدو لنا أنه ما يزال أسيرَ مفاهيم أقرب إلى الجاهليّة ، فإن تحليله للأُمور يصِلُ في خاتمة كلامه إلى نتيجةٍ صائبةٍ ، عبّر عنها بقوله : **" فوالله لئن هلكت لنُسترقّنّ من بعدك"** ، يعني مسلوبي الحريّة والإرادة لمصلحة السُلطة السياسيّة . وطبعاً

هو يقصد هلاك الإمام على يد الأُمويين . هاهنا يبدو الإمامُ في منطقه وعلى لسانه السّدّ الوحيد في وجه الحكم الأُموي الاستلابي ، والسُّور الذي يحمي مَن وراءه من الخلق . وحقاً لقد أثبتت الأيام صدق رؤيته النّبؤة . فما أن قُتل الحسين (ع) حتى أسقط عبد الملك بن مروان وواليه الحجّاج آخر قناعٍ عن وجوههم الكالحة . ولطالما أخذوا البيعة كُرْهاً من الناس على أنّهم عبيدٌ مولودون في الرقّ لـ (أمير المؤمنين) .

ومن الغني عن البيان ، أن ابن مُطيع لم يكن نسيج وحده في حمْل تلك المُيول والافكار . بل لعلّنا نأخذ من بعض ما قاله ، أن ثمّة رأيٌّ عامٌ شعبيٌّ غالبٌ في الحجاز خصوصاً ، وفي غيره أيضاً **" يتداعى إليك الناسُ من كلّ مكان "** ، يُعلّق آمالَه عليه . ليس بينه وبين أن يخرج إلى العلن والعمل الفعلي إلا أن يدعوه إليه . ومهما يكُن في هذا الكلام من مُبالغة ، فإننا سنقرأُ في بعض ما هو أتٍ ما يؤيّده إجمالاً .

ثم أن في ذلك الحوار الخَصْب دلالاتٌ أُخرى ، سنُرجئ الإفادة منها بانتظار تراكُم مؤيّداتها . حيث سنبدأ معالجة بعض ما طرحناه من أسئلة فيما وطّأنا به للبحث .

(٢) ارتكاسُ السُلطة على حضوره في مكة

بعد رحلةٍ لم يُعكّر صفوها شيء ، وصل الإمام ومَن كان معه إلى مكة ، فنزل داراً كانت للعباس بن عبد المُطلب [١]. ما قد يُفهم منه أن سفره كان موضع تفاهمٍ مُسبَق في محيط الأُسرة الهاشميّة ، وأن ترتيبات إقامته فيها كانت قد اتُّخذت قبل وُصوله . ولكن رواية أُخرى تقول أنّه نزل بأعلى مكة ، وضربَ هناك فسطاطاً كبيراً . ثم تحوّل إلى دار العباس ، حوّله إليها ابنه عبد الله [٢] . والأمرُ هيّنٌ لا يستدعي أكثر من الإشارة إلى كلتا الروايتيَن ، خضوعاً لأمانة البحث .

تمّ كلُّ ذلك بهدوء ، ووسط صمتٍ مُطبق من الدولة وأجهزتها في دمشق والحجاز. ولكنها بالمقابل اتخذت كلَّ إجراءٍ قاسٍ وحدّيّ من ابن الزبير، بأوامر صريحة

---

١ ــ *سير أعلام النبلاء* : ٣ / ١٩٨ .

٢ ــ الخوارزمي : *مقتل الحسين* ،ط. قم ، مكتبة المفيد ، لات. / ١٩٠ .

من يزيد . وما من تفسيرٍ عندنا لهذه المُفارَقة ، اللهم إلا أن هيبة الإمام في قلب الدولة كانت أكبر بكثير من هيبة ابن الزبير . هذا ، إن كان لهذا شخصيّاً هيبة عندها أصلاً .

ولقد كان خروج الإمام من المدينة ، بوصفها تاريخيّاً عاصمة الدولة الإسلاميّة ، وآنيّاً محلّ أجهزتها الأمنيّة ، ــ حدثاً واضح المعنى والمغزى بالنسبة للأكثريّة الغاضبة ، لِما حالَ إليه أمرُ الخلافة في الإسلام .

ذلك أن خروجه لم يكُن صِرْف تعبيرٍ عن عدم الرضى ، لأن ذلك كان أمراً معروفاً لدى الكافّة من قبل ، بل كان قطْعاً جذريّاً مع السُلطة الأُمويّة بكل مؤسّساتها ورجالها ، وإعلاناً للعصيان والخروج على إرادتها السياسيّة . ومن هنا وجدت فيه تلك الأكثريّة الغاضبة ، ولكن السّاكتة أيضاً لافتقارها إلى مَن يقودها ، الرّمزَ الذي يُمثّل بمنبته وبشخصه كلَّ ما يفتقدونه في الحالة السياسيّة القائمة وفي رجالها .

(٣) أعماله في مكة

كانت مكةُ الموقعَ المثاليّ لعمل الإمام فيما يُناسب مُقتضيات المرحلة . فهي البلد الحرام لايحلُّ فيه قتلٌ وقتال . وبذلك يمنح أهليه ونُزّاله حصانةً ليس من السهل على أي سُلطةٍ اختراقها . ثم أنها بلدٌ ذو طبيعةٍ سُكّانيّةٍ مُتغيّرة . يستقبلُ على مدار السنة أضعاف أضعاف سُكانه الثابتين ، بين مُعتمرين وحُجّاج ومُجاورين . وبهذه الصفة تُقدّم فرصةً سهلةً وفعّالةً لَمن يعمل على نشر مشروعٍ أو أفكارٍ نشراً واسعاً ، بواسطة أو عَبرَ الغادين والرائحين من المدينة وإليها .

هكذا تآزر خروج الإمام من المدينة ، ذلك الخروج الذي تردّدت أصداؤه في أنحاء الحجاز والعراق ، مع نزوله مكة ، بما تُقدّمه من فُرص إعلاميّة ، على أن يبدأ عمله التحريضي على الدولة بدايةً قويّة . فطفق الناس من أهلها والقادمين إليها من مختلف الأقطار ، المأخوذين بخطوته الشُجاعة، يأتونه **" فأقبل أهلُها يختلفون إليه ويأتونه ، ومَن كان بها من المُعتمرين وأهل الآفاق "** [١] . فيسمع منهم ويسمعون منه .

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٣٥١ .

والمصادر لاتقول ماذا كان يدور في تلك اللقاءات . ولكنّنا ما نشكُّ في أنّها لم تكن تخرج عن الأزمة السياسيّة العالقة وسُبُل مواجهتها إجمالاً . وهكذا يمكن القول ، أنّه في هذا الإطار من العمل المُباشر ، بدأت تتشكّلُ لأوّل مرّةٍ في تاريخ الشعوب الإسلاميّة حركةٌ شعبيّةٌ مطلبيّةٌ ، ليست تُعلن فقط الانفصال عن شخص الخليفة ، كما حصل من قبلُ يوم عثمان ، بل تُعلن انفصالها عن الطبقة الحاكمة **"شيعة آل أبي سفيان"**، بكل ما يعنيه أبو سفيان من تاريخٍ أسود لم يكُن قد غادر الذّاكرة الجمعيّة . هنا ينبغي للقارئ اللبيب أن يتفهّم التّشكُّلَ الجديد بوصفه أوّل المُمهّدات للحركة الحسينيّة ، كما أنه أوّل إنجازاتها أيضاً . الآن قد انتهى إلى الأبد ذلك الوضع، الذي يستطيع فيه داهيةٌ من صنف ومرامي معاوية أن يتلعّبَ بعقول الناس ، بالنحو الذي يفرض حُكمَه عليهم . فيتلقّونه برضىً منهم وغبطة ، خضوعاً لنظامٍ من الأحاديث المكذوبة ، وشبكةٍ من المُحترفين ، وظيفتهم زجّ ما تُنتجه ماكينات صنع الأحاديث الكذب في عقول ووُجدان الناس ، عن طريق الترديد اليوميّ لها في المساجد وغيرها . وفي هذا السّرد بابٌ للبحث طويل ، اقتضى منه السّياق هذه العُجالة. ولمن يبتغي التفصيل قراءةُ كتابنا *الحديث النبوي والسُلطة* .

نخلُصُ من هذا التحليل التركيبي ، إلى أنّ مكوث الإمام في مكة أربعة أشهرٍ وبضع أيام (١ شعبان ــ ٨ ذي الحجّة)، وما صاحبه وترتّب عليه من نقاشاتٍ مُستفيضةٍ ، شارك فيها بعضُ أهلها وقادمون إليها من مختلف الانحاء ، قد استولد مُناخاً سياسيّاً جديداً مختلفاً عن حالة الصّمت والسّكوت والاستسلام السّائد ، خصوصاً في العقديَن الأخيرَين. ومن المفهوم أن الإمام كان في جوابه عن استفسارات القلقين وأسئلة السّائلين عمّا أوجب امتناعه عن البيعة ، وخروجه من المدينة . . . الخ. كان يبيّن لهم موقفَه السياسي وموجباته،وأنّ ذلك كان ينتشر بين الناس، وأنّ الوافدين كانوا يحملونه إلى أوطانهم . هذا بنفسه إنجازٌ نوعي على مُستوى درجة ومُقتضيات وعي الناس السياسي، وتحريكٌ للأكثريّة المَقموعَة المُستَلَبَة إلى خارج الموقع السّكوني الخاضع، الذي يمنحُ السُلطة الحاكمة الحريةَ في العمل لِما فيه مصلحتُها ، دون أن تخشى حسيباً أو رقيبا.

(٤) إجراءاتُ السُلطة بالمُقابل

في هذ السّياق من العمل ، الذي ينبغي أن يكون نذيراً كافياً للدولة ، ويقتضي إجراءً مناسباً بالمُقابل ، نلاحظ أنها حافظت على سياسة المُراقبة الصّامتة للإمام ، كما سبق أن وصفناها وبيّنّا ما نظنّه سببها أو أسبابها . يُذكَر فقط أنها عمدت إلى عزل واليها على مكة عُمر بن سعد بن أبي وقّاص ، الذي سارع إلى مغادرتها على التّوّ "**فانحدر إلى المدينة**" [١] . وولّت محلّه الحارث بن خالد المخزومي [٢] .

المفهوم من هذه التدبير أن المقصود هو أن تأتي بوالٍ مخزوميّ قرشيّ من قلب التركيبة القبليّة المكيّة ، بديلاً عن ذلك المدنيّ الانصاريّ ، الذي لاسند له في مكّة من أهلها . ذلك لأن المخزومي ، بما يُمثّله من ثقلٍ قبَليّ قويّ ، سيكون أقدر على ضبط منطقة ولايته . سواءٌ في وجه حركة ابن الزبير ، أم في مقابل الحسين (ع) . فكلاهما ، بصرف النظر عن الموقع الشخصيّ الخاصّ للإمام ، له عمقه القبلي . إذن فمن الممكن القول أن هذا التدبير ماهو إلا خطوةٌ استباقيّةٌ ، تأخذ بالاعتبار الاحتمالات المُتوقّعَة ، وضرورة الإعداد لِما هو أسوأ بالنسبة للدولة ومصلحتها . فتُحرّك ثقلاً قبليّاً ليُوازن ثقلاً آخر. ومن الغني عن البيان ، أن هذه السياسة تُمثّل أُنموذجاً لنمط تفكير الدولة ، المُحاصَر في الإطارات القبليّة ، والأعمى أو المُتعامي عن رؤية التيّارات العاملة العابرة للقبيلة ونظام علاقاتها ، ومنها ــ طبعاً ــ التيّار المُوالي للإمام .

هنا أيضاً ، حتى بعد إبدال الوالي ، لا نُلاحظ أدنى تغيُّر في سياسة السُلطة المحلّيّة تجاه الإمام . والسبب واضحٌ من الجانبيَن : الإمام من جانبه حافظ على عدم استفزازها. لأن المصلحة تقتضي الآن منح الأولويّة المُطلقة للاتصال بالناس وسماعهم وإسماعهم . وهذا أمرٌ لا يتمّ إلا في حالةٍ من الاسترخاء والهدوء . يتحرّك فيها الناس بحريّة ، وحيث تكون أبواب الإمام مفتوحةً للجميع . والسُلطة المحلّيّة ، من جهتها ، التزمت ما نُسمّيه اليوم سياسة حافّة الهاوية . يعني سياسة الخطوات الدقيقة المدروسَة ،

---

١ ــ الخوارزمي : *مقتل الحسين* / ١٩٠ .

٢ ــ المسعودي : *مروج الذهب* ، نشرة الجامعة اللبنانية ، الفقرة / ١٨٩٠ .

لا ترفع عينها عن موضع الخطر ، وفي الوقت نفسه تراقب موضع خطواتها بكامل الحذر والرّويّة ، بحيث لا تنزلق باتجاهٍ قد يودي إلى ما هو أسوأ . ويبدو أنها كانت تُعلّق أملاً جدّيّاً على حلّ أزمتها مع الإمام حلَّا سياسيّاً . وكان العُقلاء في الحجاز يعرفون جيّداً أن أي صراعٍ مباشر سيكون له أسوأ الأثر عليها . وسنرى قريباً حجم المساعي المَبذولة باتجاه عدم إيصال الأُمور إلى القطع الكامل و الصّدام المباشر .

وحده الوالي الجديد ، الذي لا نعرف له سابقة ولا لاحقةً في العمل العامّ ، كان يأكله القلق من أن تكون نعمة الولاية ، التي نزلت عليه من حيث لايحتسب ، سبباً لتوريطه في أمرٍ كبيرٍ بحجم الاشتباك مع الإمام وقاعدته الواسعة . لن يكون في مصلحته بالتأكيد ، مهما يكُن سنده السُلطوي والقبَلي قويّاً .

وعليه فإنّه حبكَ خطّةً أرادها مُحكمةً ، ابتغاء كشف خبيء ونوايا الإمام فيما هو آت . فأرسل إليه ابن عمٍّ له بهيئة ناصحٍ ، يُحسّن له أن لا يتوجّه إلى الكوفة . فدخل هذا على الإمام وأسمعه مُطالعةً مُفصّلةً ، يبدو أنه كان قد أحسن تنميقها وتدبيج الأدلّة والبراهين فيها . فكان من جواب الإمام له : **" جزاك الله خيراً ياابن عمّ . فقد أجهدتَ رأيك . ومهما يقضِ الله يكُن "**[1] .

الذي نظنه أن بُغية الوالي الحقيقيّة لم تكُن إقناع الحسين (ع) بأن لايجعل وجهته الكوفة ، وإن هو بنى أُطروحته على ذلك . بل أن يعرف خبيئه وحقيقة نواياه مهما تكُن . ولعلّه كان يؤثر أن يراه يخرج من مكة إلى أي مكان شاء . وبذلك يرتاح من عبء إدارة ما يخصّه من العمل ، بوصفه مُمثّل السلطة المركزيّة بدمشق فيها .

أنهى الإمام الكلام مع الرسول بذلك الجواب التخلّصي ، دون أن يُصرّح بحقيقة نواياه . وكأنّه قد أحسّ بما وراء هذه الغيرة الزّائفة . وخرج الرسول ليدخل من فوره على ابن عمّه الوالي وينقل له الجواب . فإذا صحّ فهمنا لماجريّات الحديث وخلفيّاته ، فإننا نظن أن الرجل ارتاح لِما سمعه . على الأقلّ لأن الإمام لم يصرّح بأن من

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٣٨٢ و*مروج الذهب* ، الفقرة / ١٨٨٩ .

نيته المكوث في مكة . وفي ذلك حبّة عينه ورضى نفسه .

(٥) وظيفةُ مكة للإمام في الرّاهن

من الواضح لكلِّ مَن رافقنا في هذا السّرد ، أنّ وظيفة مكة في الرّاهن من مشروع الإمام كانت محدودةً وآنيّة . لم تكُن مكةُ بالنسبة إليه أكثر من رافعة . منبرٌ عالٍ يوصل صوته بعيداً إلى كلِّ مَن يسمع . أمّا العمل الحقيقي المُباشر فقد كان في خطّته مرهوناً بالصّدى العائد لأعماله فيها .

هكذا يمكن أن نتصوّر ماليس تقوله النّصوص ، لأنه من خبايا النفوس . أنّ عين الإمام كانت تتطلّع بعيداً عن الحرَم ، وأنّ أُذنه كانت تُصيخ إلى الأصداء المُتوقّعة الآتية من العراق ، حيث البقيّة الباقية من رجال وشيعة أبيه ، وحيث البقيّة الباقية من همْدان وربيعة ، وخصوصاً من هذه عبد القيس . الذين طوّحت بعديدهم كوارثُ الأيام الماضية ، ولم يبقَ منهم في الكوفة والبصرة إلا بقيّةٌ قليلةٌ نسبيّاً ، مثلما تتركه أيُّ حركةٍ سُكّانيّةٌ كبرى خلفها [1]. ولقد عرفنا من قبل أن هؤلاء كانوا في حالةٍ من التوتُّر السياسي العنيف ، المَبنيّ على تنكُّرهم للنظام القائم . ولم يكُن يحول بينهم وبين إعلان الخروج عليه إلا أمرُ الحسين (ع) لهم بالتّريّث بانتظار وفاة معاوية . أمّا الآن وقد توفي، وقعد الإمام عن البيعة ليزيد ، وخرج من المدينة بما يعنيه ذلك ، وهاهو الآن في مكة على ماوصفنا ، فقد حقّ الوفاءُ بالوعد وأزفت ساعةُ العمل .

(٦)المُبادرة الأُولى للكوفة نحو الإمام ومعانيها

أتت المُبادرةُ الأُولى نحو الإمام من الكوفة . يروي أبو مُخنف بالواسطة عن محمد بن بشر الهمْداني ، الذي كان حاضر الاجتماع الأوّل الذي دعا إليه سليمان بن صُرَد الخُزاعي ، أن سليمان خاطب " **الشيعة** " المُجتمعين في بيته ، فذكر وفاة معاوية ،

---

١ ــ انظر كتابنا *التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية* . المَبنيّ على أن سرّ انتشار التشيّع في تلك البقعة من بلاد الشام ، خلافاً لِما هو مُتوقّع تاريخيّاً ، يرجع إلى الهجرة الهمدانيّة الكبرى وبعض ربيعة إليها من العراق ، على أثر انهيار المشروع السياسي للإمام الحسن (ع) .

وموقف الحسين (ع) : تقبّضَهُ عن البيعة ليزيد ، وخروجَه إلى مكة . **"وأنتم شيعته وشيعة أبيه . فإن كنتم تعلمون أنكم ناصروه ومجاهدوا عدوّه فاكتبوا إليه . وإن خفتم الوهَل** [الجُبن ، الفشل] **فلا تغرّوا الرجل من نفسه** " .

تمخّض الاجتماع عن عهدٍ **"من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة"** بأن يُقاتلوا مع الإمام ويقتلوا أنفسهم دونه . وأن يكتبوا إليه . فكتبوا يحثّونه على أن يُقبل ، وأن الوالي " **النعمان بن بشير في قصر الإمارة لسنا نجتمع معه في جُمعة ، ولا نخرج معه إلى عيد . ولو قد بلغنا أنك قد أقبلت إلينا أخرجناه حتى نُلحقه بالشام** " [1] .

نأخذ من هذه الملابسات ، أن مَن ذكرهم الخبرُ من أهل الكوفة هم الذي بادروا إلى الاتصال بالإمام من دون إشارةٍ أو إيعازٍ أو تحريضٍ منه . وأن سليمان هو مُحرّك ما يُمكن أن نُسمّيه النّواة التنظيميّة ، التي أخذت على عاتقها إيقاد الثورة بقيادة الإمام . وأن اجتماعهم ومانتج عنه قد حصل توّاً بعد علمهم بموقفه وحركته . يدلُّ على ذلك المدّة القصيرة الفاصلة بين تاريخ خروج الإمام من المدينة في ٢٨ رجب ، ووصول الرسالة الأُولى من أهل الكوفة إليه في ١٠ رمضان [1] ، أي مدة اثنين وأربعين يوماً . بما فيها المدة التي قضاها وصولُ خبر دخول الإمام مكة إلى أهل الكوفة ، بالإضافة المدّة التي قضاها الإمام في الطريق بين المدينة ومكة ، ثم بالإضافة إلى المدة التي قضاها حاملُ الرسالة إليه على الطريق من الكوفة إلى مكة .

(٧) سؤالُ ومُلاحظات على مُبادرة الكوفة

لكنّ المُلابسات نفسها تحمل سؤالاً وملاحظات :

السؤال : لماذا لجأ أهل الكوفة في هذا وفيما سيتلو إلى الكَتْب ، مع أن الرسالة الشفويّة أخفى ؟ هل رموا بذلك ، أو بالأحرى رمى سليمان ، إلى توثيق ماتعهّدوا به للإمام ؟ ذلك ما يبدو لنا . بشهادة أنه ، وهو الذي لم يُخفِ قلقه من الخذلان استناداً لسوابق الكوفة ، ما أن سمع منهم عهودهم بالنُصرة حتى قال لهم : " **فاكتبوا له** " .

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٣٥٢ .

أي أنه هو الذي بادر فأمرهم فامتثلوا لأمره .

أمّا الملاحظة ، فهي في قولهم في الرسالة أنهم لايجتمعون مع النعمان بن بشير في جُمعة ، ولا يخرجون معه إلى عيد .ذلك يعني أنهم قبل اجتماعهم بمدّةٍ غير قصيرة كانوا قد اتخذوا بعض الإجراءات التي تحمل معنى العصيان المدني ، كما نقول اليوم ، أو، فلنقُل ، بداية عصيانٍ على الأقلّ . بأن لايُشاركوا في المراسم الدينيّة الرّسميّة ، التي يرأسها عادةً الوالي نفسه ، وهي من المُهمّات الأساسيّة الموكولة إليه . ولا يغيبُ عنها رؤوساء القبائل (الأشراف) .

إن صحّ ذلك ، وكلُّ مافي يدنا يدلُّ على أنه صحيح . بل إن تكذيبه يعني أن تلك المجموعة من النُّخبة قد تواطأوا على الكذب على الإمام كذباً مكشوفاً ، وذلك أمرٌ غير معقول . ــ إن صحّ فهو يدلُّ على أن ذلك الموقف السّلبي ، الذي ينطوي على إعلان عدم الاعتراف بالسلطة المحلّيّة ، المَبني على عدم الاعتراف بالسُلطة المركزيّة ، هو سابقٌ زمانيّاً إلى ما قبل وفاة معاوية . بدليل قولهم : **" ولا نخرج إلى عيد "** . لأن أقرب عيد إلى تاريخ الرسالة هو الأضحى في السنة السابقة ، أي إلى ماقبل ثمانية أشهر تقريباً من تاريخ تسطيرها . فهذا يدلُّ دلالةً قويّةً على أن استنكافهم يرجع إلى الفترة التي كان فيها معاوية مُعتلّ الصحة بما أودى إلى بوفاته . الأمر الذي يبدو أنه أغرى أُولئك المُنتظرين أن يستبِقوا الأُمور ، ويبدأوا التصريح عمّا تكنّه نفوسهم ، تمهيداً لِما هو أعلى وأقوى بعد وفاة معاوية . نقول ذلك مع ضرورة تسجيل أن الخبر لم يرِد ذكره في كلّ ما كتبه المؤرخون عن تلك الأيام الحافلة . على أن مؤرخينا إجمالاً ليسوا مؤتمنين على ما هو من سلوك العباد ، بحيث يكون سكوتهم عن ذكر واقعةٍ بعينها تخصّهم حُجّةً للمؤرخ على عدم وقوعها .

مهما يكُن فإن رسالة أصحاب سليمان كانت الرسالة الأُولى إلى الحسين (ع). حملها رجلان من همْدان . هما عبد الله بن سَبُع وعبد الله بن وال (وأنا أرجو القارئ أن يبدأ بملاحظة حضور همْدان القوي فيما نشب وينشب) ثم تتابعت الرُّسُل والرسائل .

الذي يبدو لنا أن تلك الجلسة كانت محصورةً بمَن دعاهم سليمان بن صُرَد إلى

منزلـه ، وأنّ من بين مَن لم يُستحضَر إليها ، مَن رأى أنه قد حُـرم من حقّه في الإسـهام بشرف دعوة الإمام . فطفق كلُّ مَن يرى في نفسه الأهليّة يكتب ، وحده أو مع غيره ، بحيث أنه أثناء يوم واحد جرى كَتْبُ " **ثلاثة وخمسين صحيفة من الرجل والاثنين والاربعة** " . حملها إلى مكة ثلاثة رُسُل هم قيس بن مُسهر الصّيداوي وعبد الرحمان بن عبد الله الأرحبي وعُمارة بن عُبيد السّلولي . وهؤلاء جميعاً من همْدان أيضاً . ثم بعد يومين آخرين انطلق رسولان آخران بمجموعةٍ أُخرى من الرسائل ، هما هانيء بن هانيء السُّبيعي وسعيد بن عبد الله الحنفي . وهذا هو الرسول الوحيد حتى الآن غير الهمداني . وثمة رسالةٌ مُشتركَةٌ لم يُذكَر تاريخُها ولا مَن حملها ، انفرد بها ستةٌ من أشراف الكوفة ، هم شبث بن ربعي ، وحجّار بن أبجر ، ويزيد بن الحارث ، وعَزرة بن قيس ، وعمرو بن الحجّاج الزُّبيدي ، ومحمد بن عُمير التميمي . كتبوا فيها : " **أمّا بعد . فقد اخضرّ الجناب ، وأينعت الثّمار ، وطمّت الجناب . فإذا شئت فاقدم على جُندٍ لك مُجنّدَة.والسلام عليك** " [١] .

يروعنا في هذه الرسالة أنها ، من بين كلّ الرسائل التي ذُكر نصُّها ، الوحيدة التي حملتْ نفساً عسكريّاً واستعداداً قتاليّاً . خلافاً لكل الرسائل الأُخرى ، التي نلاحظ أنها طافحةٌ بالتزامٍ أخلاقيٍّ سياسيّ . ويبدو أن أصحابها تريّثوا في كتْبها حتى يطمئنّوا إلى اتجاه الأُمور في الكوفة ، ليعملوا بما يناسبها ، حِفاظاً على مصالحهم بالدرجة الأُولى . ثم فلنُلاحظ أيضاً أنها الرسالة الوحيدة التي لم يُذكر اسم الرسول الذي حملها إلى الإمام ، وهذا بمعنى إخفاء الشّاهد على الرسالة ، احتياطاً لتطوّر الأُمور في اتجاهٍ مُعاكس .

المُفارَقَة في هذه المُلابسات ، أن أصحاب الرسالة ، الذين زايدوا فيها على غيرهم ، بالتلويح بالاستعداد للقتال نُصرةً للإمام ، كانوا أوائل مَن نكثوا ونكصوا على أعقابهم ، وخضعوا لترهيب وإغراء عُبيد الله بن زياد . وأنكروا أنهم كتبوا في مَن كتب، بعد أن ذكّرهم الإمام بها بخطابه في كربلا قبل انفجار القتال . وما ذاك إلا لأنهم ، بوصفهم رؤوساء القبائل (الأشراف) ، والواسطة بين الدولة وعشائرهم لمصلحة الدولة دائماً ، سواءٌ بوصفهم جهاز ضَبْط أم بوصفهم جهاز معلومات ، قد مرسوا

باستثمار وضعهم الاجتماعي بما يعود عليهم بالنّفع . فكانوا دائماً يوجّهون أشرعتهم مع الريح حيث تميل.

من هنا ، فإنهم إذ رأوا اندفاع أهل الكوفة إلى بذْل وإعلان النُصرة للإمام سارعوا إلى الدخول فيما دخل فيه الناس ، فسطروا تلك الرسالة الخاصّة بهم وحدهم ، والخاصّة أيضاً في أُطروحتها القويّة . مع الاحتياط بإخفاء اسم الرسول ، بوصفه شاهداً مُحتَمَلاً عليهم فيما لو تغيّرت الاحوال . ثم أنهم حينما دخل الترغيبُ والترهيبُ السُلطوي في البازار السياسي انقلبوا إلى الجهة المُعاكسة . بل وكانوا المُبادرين لقتاله .

لكننا نلاحظ أيضاً غياب عددٍ من الأشراف في هذا . مع أنهم يُمثّلون قبائل كبيرة . منهم محمد بن الأشعث الكندي ، والعُريان بن الهيثم النّخعي ، وأسماء بن خارجة الفزاري . والظاهر أن هؤلاء كانت لهم حساباتهم المختلفة .

مهما كان ، فهذه أربع إرساليّات ، خرجت من الكوفة في برهة قصيرة ، تضمّنت عشرات الرسائل ، وقّعها مئات الرجال . منهم مَن ذُكروا بأسمائهم ، ومنهم مَن أُغفل ذكرهم تحت عنوان **" وشيعته من المؤمنين والمسلمين "** ، كما جاء في الرسالتين الأُولى والثالثة .(والحقيقة أننا بعد التّأمّل لم نصِل إلى مغزى وخلفيّة التمييز بين المسلمين والمؤمنين بما يتناسب مع سياق الرسالتيَن) . فكأنّ الكوفة ، أو كلُّ مَن رأى نفسه آهلاً من أهلها ، قد انشغلوا بتحرير الرسائل وتنظيم وصولها إلى الإمام المُقيم في مكة ، مُنتظراً ما يأتيه من الناس . وكأنّها قد رجعت إلى سابق عزّها ، يوم كانت مدينة عنيدةً مُبادرةً لا تنامُ على ضيم . لولا علمنا بأن هذه الصّحوة غمامةُ صيف ، سرعان ما ستنجلي عن قابليّة الاختراق والخضوع ، وهي قابليّةٌ كامنةٌ في أعماق التركيبة البشريّة الهشّة للمدينة وفي اختلالاتها العميقة .

والقارئ الفطِن ، الذي يتمعّن في قراءة وتحليل نصوص هاتيك الرسائل ومضامينها ومُلابسات إرسالها ، لَيخرج بنتيجةٍ مفادها أن عديد الرسائل التي وصلت إلى الإمام لم يتجاوز الست وخمسين رسالة . وقّعها عددٌ غير معروف من الرجال . ولكنّه بالتأكيد لايصلُ إلى أكثر من المئات القليلة .

نقول ذلك تحذيراً للقارئ من أن يأخذ بما في بعض الأُكتوبات الانفعاليّة في كُتُب المقاتل المتأخرة . حيث تورد أرقاماً لعديد الرسائل يصِلُ بها إلى الأُلوف الكثيرة . فكأن هؤلاء يقرأون تاريخاً غير المسطور . يفترضونه افتراضاً ، ويفرضونه على القارئ فرْضاً ، لالغرضٍ إلا خضوعاً لذهنيّة تعظيم وتضخيم كل ما له علاقة بشهادة سيد الشهداء (ع) . هذا بالإضافة إلى اعتباراتٍ أُخرى ، يستنبطها المؤرخ الحاذق ممّا يعرفه من عديد سكان الكوفة في ذلك الأوان ، وإن على نحو التقريب ، مقسوماً على النسبة الحسابيّة لعديد الرجال النُّخبة فيها ، من ذوي الأهليّة الاجتماعيّة لعملٍ سياسي بهذا المستوي ، وهو عديدٌ لا يُعقل أن يرقى إلى الألوف . فضلاً عن مؤيّداتٍ أُخرى لِما قلناه سنقفُ عليها في المحل المناسب .

(٨) البصرة وتحرُّكها باتجاه الإمام

ذلك كلّه فيما يرجع إلى ما كان من أمر الكوفة نحو الإمام في تلك الأيام البالغة الخطر . فماذا بما يخصّ رصيفتها البصرة ؟

يورد الطبري ، ودائماً عن أبي مُخنف ، بسنده إلى أبي عثمان النهدي ، وهو من أهل البصرة ومن كبار رُواة الطبري ، روايةً هامةً في هذا الباب ، تقول أنّ الحسين (ع) كتب رسالةً واحدةً من نُسخٍ متعددة إلى رؤوس الاخماس بالبصرة وإلى الأشراف [١] : الأحنف بن قيس ، ومالك بن مِسمع البكري ، والمنذر بن الجارود العبدي ، ومسعود بن عمرو ، وقيس بن الهيثم ، وعمرو بن عُبيد الله بن مَعمَر .

الرسالة مُسهبة خلاصتها **"أدعوكم إلى كتاب الله وسُنّة نبيّه[....]وإن تسمعوا قولي وتُطيعوا أمري أهدكم سُبُلَ الرشاد"** [٢]. ومغزى العبارة واضح بغنىً عن التعليق .

١ـ كان زياد بن أبيه قد نظّم البصرة لأغراضٍ أمنيّةٍ في خمسة أقسام . وجعل على رأس كل قسمٍ رئيساً منحه سُلُطاتٍ واسعة . في السّلم يرأس مجلس القبيلة ويُمثّلها أمام الوالي ويوزع العطاءات . وفي الحرب يقود حملات قبيلته أثناء القتال . امّا الاشراف فقد أشرنا إلى مهماتهم قبل قليل .

٢ ــ الطبري : ٥ / ٣٥٧ .

ينفرد البلاذري بذكر رسالةٍ كتبها إلى الحسين (ع) سيّدُ تميم في البصرة آنذاك الأحنفُ بن قيس ، وهو مَن هو في سابقته مع أمير المؤمنين (ع) ، ضمّنها قوله تعالى ﴿ فاصبر إنّ وعد الله حقٌ ولا يستخفّنّك الذين لا يوقنون ﴾ [1] . وهي صريحةٌ في الوعد بالنُّصرة .

الظاهر أنّ هذه الرسالة البليغة هي جواب الاحنف على نسخة الرسالة التي تخصّه من الرسائل المذكور أعلاه . فإذا صدق ظنُّنا فتكون رسالة الأحنف الجوابَ الوحيدَ إلى الإمام بالتأييد . أمّا الباقون من رؤوساء الاقسام والاشراف ، فكلُّ مَن قرأ الكتاب كتمه ، باستثناء أحدهم المُنذر بن الجارود العبدي ، كبير رؤوساء عبد القيس في البصرة ، الذي سارع فحمل الرسالة والرسول إلى صهره على ابنته والي البصرة آنذاك عُبيد الله بن زياد ، لأنه خشي بزعمه أن يكون دسيساً من قِبَله [2] .

التمعُّن في ملابسات الخبر إجمالاً ، يبعث على الظنّ القوي بأن الإمام كتب تلك الرسائل إلى البصريين بعد أن كانت قد تتامّت عنده رسائلُ أهل الكوفة ، وبعد أن اتخذ قراره بإيفاد مسلم إليهم كما سنعرف . ولذلك فإنّه بادر إلى الكَتْب إليهم ، بما تعنيه البادرة من قصد أن تكون حركته الآن مُتّسمةً بقدرٍ من العلنيّة . ومن الواضح أن هذه درجةٌ مُتقدّمةٌ في العمل المُعارِض ، الذي كان الإمامُ يعمل على مُراكمة وتحريض القاعدة البشريّة لتكون جاهزةً للعمل حين تأزف ساعته .

ثم أننا في سياق تتبّعنا لأخبار البصرة في تلك الأيام ، نقفُ على خبرٍ غنيٍّ بالمعاني والمغازي . يورده الطبري بالواسطة عن أبي مُخنف ، عن أبي المخارق الرّاسبي . وهو بصريٌّ ، أخذ عنه أبو مُخنف عامّة مادة أخبار البصرة ومنطقتها في كتابه *مقتل الحسين* . قال :

" اجتمع ناسٌ من الشيعة بالبصرة في منزل امرأةٍ من عبد القيس يُقالُ لها مارية

---

١ ـ *أنساب* : ٣ / ٣٧٥ .

٢ ـ الطبري : ٥ / ٣٥٧ .

ابنة سعد ، كانت تتشيّع . وكان منزلها مألفاً يتحدثون فيه . وقد بلغ ابنَ زياد إقبالُ الحسين . فكتب إلى عامله بالبصرة أن يضع المناظر ويأخذ الطُّرُق" [1] .

ممّا لاريب فيه ، أن تاريخ الخبر يرجع إلى مابعد خروج ابن زياد من البصرة إلى الكوفة كما سنعرف . بشهادة قوله أنه كتب إلى عامله بالبصرة ، يعنى أخاه عثمان الذي استنابه أثناء غيابه عنها ، بأوامره له . وعليه فيمكن اعتبار ذلك الاجتماع من الشيعة نتيجةً وصدىً لرسائل الإمام إلى مَن عرفنا بالبصرة ، بالإضافة إلى صدى حركته إجمالاً. كما يبدو أن صاحبة الدار الذي عُقد فيه الاجتماع كانت امرأةً ذات حُضور اجتماعيّ . وذلك أمرٌ غير مألوف . خصوصاً وأنه لم يكُن الأوّل ، بدليل قوله أن دارها كانت لهم مألفاً يتحدثون فيه . أي مكاناً مألوفاً لاجتماعاتهم حين اللزوم .

ولكننا لا يمكن أن نُغفل أيضاً أن يكون اتخاذ أُولئك الشيعة دارها دون غيره محلاً للقاءاتهم إنما هو بقصد الامعان في التخفّي عن أعين أجهزة ابن زياد . باعتبار أن اتخاذ دار امرأةٍ لا زوج لها (بشهادة نسبة الدار إليها . ولو انها كانت ذات زوج لنُسبت إليه وليس إليها) محلاً لذلك اللقاء ومثله أمرٌ بعيدٌ عن التّصوُّر ، يُعين على الكتمان والتخفّي .

فذلك يدلّنا على ما كان عليه أمرُ شيعة البصرة إبّان تلك الاحداث ذات الخطر ، بل بالتأكيد قبلها ، من تضييقٍ عليهم ، ومراقبةٍ حثيثةٍ ودقيقةٍ لهم . بحيث رأينا أحد كبار رؤوساء عبد القيس ، ذلك البطن من ربيعة ذو السّوابق في نصرة أمير المؤمنين (ع) ، يُسارع إلى إطلاع ابن زياد على رسالة الإمام إليه ، خشيةَ أن تكون دسيسةً منه . ما يدلّ على ماكان للدولة وتدبيراتها الأمنيّة من رهبةٍ في النفوس . ثم أنه يُفسّر قلّةَ مَن خرج منهم لنُصرة الإمام . وأكثرهم من عبد القيس ، كما سنعرف . وسنرى المزيد من التدبيرات القمعيّة التي اتخذها ابن زياد في البصرة ، مع تسارُع الأحداث باتجاه العراق .

---

١ ـ الطبري / ٣٥٩.

(٩) رُسُلُ الكوفة عند الإمام وجوابُه لأهلها

يبدو أنّ الإمام استبقي رُسُل الكوفة ، بانتظار إعداد الجواب عن رسائلهم ، وأنّه عقد اجتماعاً حضره السبعةُ الرُّسُل [١] . فقرأ الكُتُبَ علناً ليكون الجميع على علمٍ بمضامينها ، ومن ثَمّ موضع مناقشة أو مُذاكرة إن لزم ذلك . وسألهم عن أمر الناس . ثم كتب رسالةً أرادها موجّهةً إلى العموم دون تخصيص . حملها آخرُ رسولَين من بين الرُّسُل ، هما هانيء بن هانيء السُّبيعي وسعيد بن عبد الله الحنفي ، جاء فيها :

" بسم الله الرحمن الرحيم

من حسين بن علي إلى الملأ من المؤمنين والمسلمين .

أما بعد .

فإنّ هانئاً وسعيداً قدما عليّ بكُتُبكم ، وكانا آخرَ مَن قدِم عليّ من رُسُلكم . وقد فهمتُ كلَّ الذي اقتصصتُم وذكرتُم ومقالةَ جُلّكم ، إنّه ليس علينا إمام . فأقبِلْ لعلّ الله أن يجمعنا بكم على الهُدى والحق .

وقد بعثتُ إليكم أخي وابنَ عمّي وثقتي من أهل بيتي . وأمرته أن يكتبَ إليّ بحالكم وأمركم ورأيكم . فإن كتب إليّ أنّه قد أجمع رأيُ ملئكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثلِ ما قدِمت عليّ به رُسُلُكم وقرأتُ في كُتُبكم ، أقدِمُ عليكم وشيكاً إن شاء الله . فلعمري ما الإمامُ إلا العاملُ بالكتاب ، والآخذُ بالقسط ، والدّائنُ بالحقّ ، والحابسُ نفسَه على ذات الله . والسلام " [٢] .

---

١ ــ وهم عبد الله بن سبُع الهمداني ، عبد الله بن وال ، قيس بن مُسهرالصيداوي ، عبد الرحمن بن عبد الله الأرحبي ، عُمارة بن عُبيدالسّلولي ، هانيء بن هانيء السُّبيعي ، وسعيد بن عبد الله الحنفي . لاحظ أن أكثرهم من بني همْدان . ثم لاحظ أيضاً أنّ الرسالة الوحيدة التي أُغفل حملَتُها هي رسالة شبث بن ربعي ورفاقه من أشراف الكوفة . ما قد يُفهم منه أنّ ذلك كان بطلبٍ منهم ، أي من الأشراف ، أو أنّ أُولئك الرُّسُل لم يتلبّثوا في مكة إلى حين تجهيز الجواب .

٢ ــ الطبري : ٥ / ٣٥٣ .

نعرفُ ممّا تلقّى به الإمامُ الرُّسُلَ ، ومن بعض ماسطره في الجواب عن الرسائل ، أنّه أراد أن يستوثق لنفسه بأكثر ممّا نطقت به الرسائل على كثرتها . فبعد أن قرأها علناً قراءةً دقيقةً ، من ضمنها الوُقوف منهم على مَن لا يعرفه بما يكفي من أصحابها ، ومنهم من يعرفه معرفةً كافية ، طفق يسألهم عن **"أمر الناس"** إجمالاً ، أي مَن كتبَ منهم ومَن لم يكتب . والظاهر أنّ الرُّسُل قد طمأنوه إلى سلامة الوضْع ، وإلى جِدّيّة أصحاب الرسائل . ومع ذلك فإنّه فيما كتب في الجواب عنها لم يحسُم أمرَ ما سيكون منه ، بل أعلمهم بأنّه يعلّقُ حِراكه القادم ، بما يتناسبُ مع أُطروحة الرسائل ، على ما سيكتبه إليه رسولُه القادم مسلم بن عقيل . بعد أن يستبينَ الأُمورَ في الكوفة ، كما هي بالفعل . والقارئ اللبيب يفهم من كلِّ ذلك ، أنّ الإمام لم يكُن يُلقي نفسه في غمراتِ الموت إلقاءً ، وإنّما كان يُعدُّ إعداداً دقيقاً لحركةٍ سياسيّةٍ مَطلَبيّةٍ مُعارضةٍ للدولة الفعليّة ، برنامجها وما ترمي إليه إقامةُ سُلطةٍ بديلةٍ ، على رأسها العامل بالكتاب ، الحابس نفسه على ذات الله . تأخذُ بالقسط ، وتدينُ بالحقّ .

سنُخصّص الفصل التالي لمسلم من حين خروجه من مكة إلى شهادته ، ومعالجة ما قد يطرحه البحثُ على الباحث من إشكاليّات .

مسلم بن عقيل في الكوفة

(١) في الطريق إليها

بتاريخ ١٥ رمضان ٦٠هـ/ أوائل آب/ سبتمبر٦٧٩م خرج مسلم من مكة ومعه ثلاثةٌ من رُسُل أهل الكوفة : قيس الصيداوي وعُمارة السّلولي وعبد الرحمن الأرحبي . فجاء حتى دخل المدينة ، فيما قيل ، حيث استأجر دليلَين . ومنها انطلق الستةُ الرجالُ باتجاه الكوفة .

إلى هنا يكون كل شيء يسير على المَرسوم ، وبما لايستدعي التعليق والمُناقشة.

لكنّ مصادرعديدة توردُ روايةً عجيبةً تحكي ، باختلافٍ يسيرٍ في التفاصيل ، أن الدليلين ضلاّ الطريق ، وماتا عطشاً دون غيرهما من رفاق الدّرب . وأن مسلم قد تطيّر ، أي اعتبر ذلك إمارةً مُحبِطةً على نُجح مسعاه ، فكتب للإمام رسالةً يستعفي فيها عن متابعة المُهمّة ويطلب بعْثَ غيره . فأمره في الجواب أن يمضي فيما ندبه إليه [١] .

من السّهولة بمكان نفي صحّة الخبر استناداً إلى ما فيه من مُفارقاتٍ أخلاقيّةٍ فظّة : تطيُّر مسلم واعتباره ذلك سبباً وجيهاً للنكول عن مُتابعة ماأمره به الإمام ، نعتُ الإمام له بالجُبن ، إلزامُه كُرهاً بمُتابعة الطريق . لكنّنا نؤثر مُحاكمة الخبر مُحاكمةً موضوعيّةً ، بصرف النظر عن الأشخاص وانطباعنا عنهم . فنقول :

١ ــ الطريق بين مكة والكوفة مرسومٌ ومسلوكٌ بكثافة بالرّائحين والغادين ، كما يكون بين مدينتيَن بأهميّة كلٍّ منهما للأُخرى . كما أنه حافلٌ بالآبار المعروفة ، التي يتزوّد منها الناس بحاجتهم من الماء . ولمن يُريد الاطلاع على خريطة الطريق ، ومآخذ

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٣٤٧ و٣٥٤ـ٥٥ و الدينوري : الاخبار الطّوال ،ط.قم ،لات. / ٢٣٠ و ابن كثير : البداية والنهاية ،ط.مصر١٤١٠هـ :٨ / ١٥٢ وابن أعثم:الفتوح:٥/ ٣٢والخوارزمي:مقتل الحسين :١/ ١٩٦وابن شهرآشوب : مناقب آل أبي طالب ، ط.قم ، المطبعة العلميّة ،لات. :٤/ ٩٠ .

المياه فيه ، كتابنا *موكب الشهادة* ، الذي يُبيّن بالتفصيل رحلة الحسين (ع) من مكة إلى الكوفة ، ومنازل الطريق ، بما فيها من آبار معروفة للسالكين . فكيف يمكن أن نتصوّر أن هذا كلّه يخفى على دليليَن مُحترفيَن . ثم لماذا مات الدليلان وحدهما عطشاً ، وما ومَن هو صاحب الفضل في إنقاذ الباقين ؟

٢ــ عرفنا أن مسلماً خرج من مكة بتاريخ ١٥ رمضان . ثم أنّه وصل الكوفة بتاريخ ٥ شوال[١] . والمسافة بين المدينتين زُهاء ١٤٠٠ كلم . أي أنه ورفاقه قطعوا المسافة في مدةٍ لاتزيد عن العشرين يوماً ، وهي مدّةٌ قياسيّة ، حتى لو لم نأخذ بعين الاعتبار المُعوّقات الطارئة . من مثل إرسال رسولٍ إلى مكة من حوالى مُنتصف الطريق، كما تزعم الرواية ، ثم انتظار رجوعه قبل مُتابعة السّفر . فكيف معها ؟

لذلك فإننا نجزم بأن هذه الرواية موضوعة جملةً وتفصيلا . والظاهر أن قصْدَ واضعها ليس إلا التشنيع والتهوين من شأن الإمام وابن عمّه الأثير لديه ومَن هو موضع ثقته . وإظهار أنّهما ، وهما اللذان يسعيان إلى أمرٍ كبيرٍ، يختلفان على سببٍ هيّنٍ فضلاً أنّه محلّ تبكيت في الثقافة الإسلاميّة [٢]. بل إنّ افتتاح مسلم سفره الطويل بالاتجاه أوّلُ إلى المدينة يبدو لنا عملاً غير مفهوم . لأن الطريقيَن من مكة باتجاه العراق ومنها باتجاه المدينة ، يسيران بالتوازي زهاء ٦٠٠ كلم . الأمر الذي يعني هدْرَ ١٢٠٠ كلم ذهاباً وإياباً دون فائدة عمليّة . فكأن واضع الخبر بعيدٌ كلَّ البُعد عن معرفة جغرافية المنطقة ، فوقع في هذه المُفارقة . أضف إلى ذلك أن الرجل كان قد خرج من المدينة قبل شهرين تقريباً ضمن فريق الإمام ، ذلك الخروج الذي عرفنا معانيه ومغازيه . فكيف يأمن الآن على نفسه بالعودة إليها دونما سببٍ قاهرٍ أو مصلحةٍ مُلزمة ؟! بل إنّ ذلك يبدو للعارف مغامرةً غير ضروريّة وغير محمودة العواقب .

---

١ ــ مروج الذهب ، الفقرة رقم (٣/ ٦٤) .

٢ ــ اقرأ،مثلاً، قوله تعالى على خطاب ثمود نبيَّهم صالحاً ﴿ قالوا اطّيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قومٌ تُفتنون﴾ (النمل / ٤٧) . وجاء فيما رواه أهلُ الحديث:"لاطيرةَ في الإسلام " .

(٢) دُخول مسلم الكوفة ومغزاه

المُهمّ أن مُسلماً تابع طريقه إلى الكوفة ، فوصلها بتاريخ ٥ شوّال كما عرفنا . وبذلك تشكّلت من جانب الإمام عناصرُ الصّراع القادم ، بحيث بات أمراً محتوماً لامفرّ منه ، ولا يمكن أن يُحسَم إلا بمعركةٍ فاصلةٍ يكون فيها غالبٌ ومغلوب ، أيّاً يكُنْ مقياس الغلبة . وما كانت مكة ، حيث مايزال الإمام ، الميدانَ الصّالحَ للمعركة المُنتظرَة . ليس لأنّ مكة بلدٌ حرام ، كما قد يخطرُ لقارئ . بل لأنّ نقطة التّماسّ لطرفي النزاع هي حيث تتلاقى قوّتاهما ، أي على أرض العراق وتحديداً في الكوفة .

أمّا تشكُّل عناصر النزاع من جانب السُلطة فسنعالجه إن شاء الله ، لكن بعد أن نُبيّن ماكان من مسلم في الكوفة أوّلَ ماكان ، لأنّ ذلك سابقٌ زمانيّاً على ارتكاسات السُلطة المركزيّة في دمشق على تمركُز الصّراع في الكوفة . فمن حقّ القارئ أن نسبق بالكلام عليه ، كيما تأتي القصّة بتتابعها كما حصلت في الواقع .

يختلفُ المؤرخون اختلافاً كبيراً في أوّل منزلٍ نزله مسلم في الكوفة . ففي إحدى روايتي الطبري أنه نزل دار المختار بن أبي عُبيدة [١] . وفي ثانيةٍ أنه " **نزل على رجلٍ من أهلها يُقال له ابن عوسجة** [٢] ". وفي *مناقب آل أبي طالب* أنه " **سكن في دار سالم بن المُسيّب** " [٣] . وفي *الطبقات الكبرى* أنه "**نزل على هانيء بن عروة المُرادي**" [٤] . وفي الأمالي للشجري أنه " **نزل على شريك بن الأعور الحارثي** " [٥] .

والذي نراه ، أنّ هذا الاضطراب غير المعقول ، ليس إلا صدىً ونتيجةً لأمرٍ

---

١ ــ الطبري:٥/ ٥٦٩. و ابن الأثير: *الكامل في التاريخ* ،ط.بيروت١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م:٢ / ٥٣٥ .

٢ ــ نفسه : ٥ / ٣٤٧ . وفي *البداية والنهاية* لابن كثير : ٨ / ١٥٢ أنه " نزل على رجلٍ يُقالُ له مسلم بن عوسجة الأسدي " .

٣ ــ ٤ / ٩١ .

٤ ــ ١ / ٤٥٨ . وكذا في *تاريخ الإسلام للذهبي* : ٤ / ١٧٠ *وسير أعلام النبلاء* : ٣ / ٢٩٩ و والعسقلاني: *الإصابة في تمييز الصحابة ،ط. بيروت١٤١٥هـ* : ٦ / ٤٤٥ .

٥ ــ ١ / ١٦٧ .

لا علاقة له بالمؤرخين ومصادر معلوماتهم ، كما يحصلُ عادةً . بل لُملابساتٍ حقيقيّة ، هي أن الرجل كان يُبدّلُ منازلَه يوماً بعد يوم إمعاناً منه في التّخفّي . يؤيّد ذلك أنّه عندما دخل عُبيد الله بن زياد الكوفة ، بعد أن ولاّه يزيد عليها ، كان أكبر همّه اكتشاف مكان مسلم [1] . يعني بالنتيجة أن هاتيك الأخبار كلّها صحيحةٌ إجمالاً ، بالمقدار الذي تدلُّ فيه على المنازل التي كان مسلم يتقلّب بينها سريعاً منزلاً بعد منزل ، أثناء إقامته القصيرة في الكوفة . كلُّ ما في الأمر أن رُواة تلك الأخبار سجّل أحدهم ما عرفه كما هو في الآن ، وسجّل غيره ما عرفه في آنٍ غيره . ثم جاء المؤرخون فسجّل كلٌّ منهم الرواية التي صادف أن وصلت إليه ، دون أن يلتفت إلى وجود روايةٍ أُخرى مختلفة . وهذه من آفات الطبيعة السّرديّة أو الحكايتيّة لتاريخنا ، التي أخذها رواتُه عن أهل الحديث . دون أن يلتفتوا إلى أن نصوص الأحاديث مَبنيّةٌ على أنها من منبعٍ واحد حسب الفرض . أما نصوص التاريخ فهي من منابع مختلفة أشدّ الاختلاف .

(٣) إدارتُه للعمل في الكوفة

ذلك الفهم التركيبي للأخبار يطرحُ على الباحث تساؤلاً خلاصته : مادام مسلم على تلك الدرجة من التّخفّي ، فكيف تأتّى له أن يلتقى بجموع الناس ليأخذ البيعة منهم ، بالإضافة إلى ما تذكره بعض الأخبار أنّ منهم مِن كان لايكتفي بالمُبايعة ، بل يدعم الحركة العالقة بماله [2] ؟

الذي يؤخذ من مُجمل الأخبار ، أنّه كان يعتمدُ منزلاً مخصّصاً للقاء الناس غير الذي يتخذه مقاما [3] . كما أنه أوكل إلى مسلم بن عوسجه أن يكون مُمثّلاً له ومعاوناً في مهمة أخذ البيعة وقبض الهبات من الراغبين ، مُتخذاً من جامع المدينة مقرّاً لعمله [3].

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٣٦٢ و*مقاتل الطالبيين* / ١٠٠ و*أنساب* : ٢ / ٣٣٦ و غيرها .

٢ ــ الطبري / نفسه ، مثلاً .

٣ ــ أيضاً : وذلك بينما كان مسلم يستقبل غيرهم في دار هانيء"**وأخذت الشيعةُ تختلفُ إليه** (مسلم) **في دار هانيء بن عروة** " . وذلك قبل أن يلتجئ إليه كما سنعرف .

مُستفيداً، فيما يبدو، من سِعته . الأمر الذي يجِب أن نفهم منه أن الإقبالَ على البيعة من جُموع الناس كان واسعاً .

حسناً ! هذا تفسيرٌ واضحٌ ومُبرهَنٌ عليه بنحوٍ مُقنع . ولكنّه بدوره يطرحُ تساؤلاً إضافيّاً ، هو هذه المرّة على عديد الذين بذلوا البيعة .

المصادر تُغربُ في حجم العديد ، بين اثنى عشر ألفاً [1] وثمانية عشر ألفاً [2] . وهو الرقم الذي قيل أن مسلم أورده ضمن رسالته للإمام يستدعي قدومه إلى الكوفة . وغير ذلك ، ممّا لافائدة في استقرائه .

الأمر المؤكّد أن العديد كان كبيراً ، وأنه لم يكن هناك ضبطٌ للمُبايعين في قُيود مكتوبة . أي أن كلّ الارقام التي جاءت في كافة المصادر لعديد المُبايعين ، ما ذكرناه منها وما لم نذكره ، هي صِرْف ارتجال . استنبطها مَن استنبطها ، وأخذها عنه مَن أخذها ، استناداً إلى ملاحظات ، لايؤمن معها من الميل الشخصي . خصوصاً وأنّ جموع المُبايعين كانت تأتي أرسالاً مُتتابعة **"واختلفت الشيعةُ إليه يبايعونه أرسالا "**[3] ، أي أفواجاً وجماعات يتلو بعضُها بعضا . الأمر الذي يستحيل معه الاطمئنان إلى صحّة تلك الاخبار ولو على نحو التقريب . ولكن كثرة الأرسال وتتابعها يدلّ على كثرة العديد . ومن هنا قلنا أعلاه أنّ من المؤكّد أنه كان كبيراً دون تحديد .

(٤) الرسالةُ الأُولى من مسلم إلى الإمام

المُهمّ أنّ مسلم اعتبر النتيجة باعثةً على الاطمئنان . فسطر رسالةً إلى الإمام حملها عابس بن أبي شبيب الشاكري الهمْداني (لاحظ غالباً الرُّسل همدانيّون) قال فيها :

"أمّا بعد ، فإنّ الرّائدَ لايكذبُ أهلَه . وقد بايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً . فعجّلْ الإقبال حين يأتيك كتابي ، فإنّ الناس كلّهم معك . ليس لهم في آل معاوية

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٣٤٧ و مناقب : ٤ / ٩١ ومروج الذهب

٢ ــابن طاوس: *الملهوف على قتلى الطفوف،ط.طهران ١٣١٣ هـ* / ١٠٨ والطبري :٥/ ٣٧٥ *وأنساب* :٢/ ٣٣٨

٣ ــ ابن حبان : *الثقات* ،ط. بيروت ١٤٠٨ هـ : ٢ / ٣٠٧ .

رأيٌ ولا هوىً . والسلام" [١].

إلى مَ استند مسلم في تقريره الخطير ، الذي كتبه قبل شهادته بأقلّ من شهر ؟ ألم يكن قد علم بقدوم عُبيد الله بن زياد ، وهو مَن هو في دهائه وجبروته ، مُسلّحاً بصلاحيّات مُطلقة من يزيد ، بأن يُنهي مسلماً وحركته كيفما وبأي وسيلة ؟! ثم إلى مَ استند في قوله أن ثمانية عشر ألفاً من أهل الكوفة قد بايعوه ، وخصوصاً في قوله إنّ الناس **كلُّهم** معك ؟

ما من شكٍّ إطلاقاً بإخلاص مسلم المُطلَق للإمام . ثم ما من ريبٍ في حُسن تقديره للأُمور ، وأنه كان في موقعٍ يسمح له بأن يُقدّرها بما لا يُجانب الصواب ، حتى مع علمنا بأنه لم يكُ هو ولا معاونه مسلم بن عوسجه يُمسكان قيوداً للمبايعين ، كما قلنا. الإشكاليّة هنا موجّهةٌ بالتحديد إلى العلاقة الحَدَثيّة القويّة بين ثلاثة عناصر هي : مسلم وأعماله ، الكوفة وتيّاراتُها ، عُبيد الله بن زياد ودخولُه الكوفة وإجراءاتُه بالُمقابل . بحيث أننا لايمكن أن نفهم واحداً من تلك العوامل إلا إذا كنّا نملك تصوّراً كافياً للعامليَن الآخرين . لذلك فإنّ علينا في سبيل الإجابة على تلك التساؤلات أن نأخذ كلّ تلك العوامل الثلاثة بعين الاعتبار .

(٥) التيّاراتُ السياسيّةُ في الكوفة

ولقد قلنا ما عندنا فيما يعود إلى مسلم وأعماله ، وأظنُّ أنّه كافٍ بالُمراد . أمّا الكوفة وتيّاراتُها ، فإنّنا نرى أنّها كانت العامل الأساسي والأقوى ، ليس فيما يتعلّق بالجواب عن التساؤلات التي طرحناها أعلاه فقط ، بل بكلّ التطوّرات التالية ، بحيث أودت إلى يوم كربلا وفظائعه المَهولة .

تلك التيارات يمكن تلخيصها في ثلاثة :

ــ الأول:التيّار العابر للقبائل الُموالي الآن لأهل البيت بشخص الحسين (ع) ولا يرى شرعيّةً لحكم البيت الأُموي . قادُتُه مَن بقي من أصحاب الإمام أمير المؤمنين

١ــ الطبري : ٥ / ٣٧٥. والخبر عن أبي مخنف بروايته عن جعفر بن حذيفة الطائي .

التاريخيّين ، وقد ذكرناهم أو بعضهم فيما فات . قاعدته السُكّانيّة / البشريّة الأساسيّة قبيلة همْدان اليمانيّة ، ذات التاريخ الحفيل في دعم المشروع السياسي للإمام علي (ع) ، والآن هاهم يؤيدون المشروعَ الذي يُمثّله الحسين (ع) . بالإضافة إلى بعض بني أسد ، أكثر قبائل منطقة الكوفة يومذاك عدداً ، ثم مَن كان فيها من بني ربيعة .

ــ الثاني: رؤساء القبائل في المدينة (الأشراف) ، الذين تمرّسوا بالعمل بخدمة الحكم الأُموي ، سياسيّاً وأمنيّاً وماليّاً وإداريّاً . وهم الذين يعرفون جيّداً أنهم لادور لهم في حكمٍ انقلابيّ كالذي في الأُطروحة السياسيّة التي تضجُّ بها جنباتُ الكوفة الآن ، فضلاً عن أنّه لن ينسى تاريخهم وأداءهم السياسي السّابق .

ــ الثالث : الأكثريّة التي من ديدنها أن تترقّب اتجاه الرّياح ، لتُوجّه شراعها بالإتجاه المناسب،لالتكسب بل فقط لتنجو. ذلك لأنها لاتملك الذّهنيّة والخبرة والتجربة السياسيّة التي تؤهّلها لصناعة الموقف صناعةً ذاتيّة،لا لسبب إلّاطولُ خضوعها لخِطط الدولة وممثليها المحلّيين . خيارُها الوحيد هو مَن تتبع ، مَن هو الغالب لكي تسير خلفه وعلى أثره.وليحتفظ القارئ بهذه الملاحظة لحاجتنا الدّائمة إليها فيما سيأتي إن شاء الله .

(٦) الأشراف وعملُهم قبالَ مسلم

تيّارُ الاشراف امتلكه الرعب أوّلَ ماامتلك ، لِما رآه من إقبال شعبيّ على مبايعة مسلم ، دون أن تنتظر الناسُ منهم إذناً ولاشُورى كما عوّدوهم . الأمر الذي كان نذيراً لهم بالآتي الذي سيُطيح بهم فيما يُطيح إن أفلح . فكانوا هم أو بعضهم الذين بادروا إلى تحريض والي المدينة النعمان بن بشير على أن يعملَ مايُفترَضُ أن يعملَ بالمُقابل. وهو الذي يبدو أنّه كان يراقب مايجري صامتاً ، وكأنّ الأمرَ لايعنيه من قريبٍ ولا بعيد.

في النهاية ، خضع الوالي لضغوط الأشراف[1]، فارتقى المنبر بحضور بعضهم

---

١ ـ هذا خلافاً لِما ذهب إليه الطبري (٥ / ٣٥٥) ، اجتهاداً منه هذه المرّة وليس عن رواية ، حيث قال : " **واختلفت الشيعة إليه (مسلم) حتى عُلم مكانه فبلغ ذلك النعمان بن بشير** " . لأن ذلك لايتناسب مع تطوّر الأحداث كما عرفناه ، ومع ضعف مُبادرة النعمان ، كماسنعرف تفصيلاً بعد قليل .

ليقول كلاماً وعظيّاً نهى فيه عن الفتنة ، مع التصريح بأنه لن يبدأ بقتال . إلا إن **"نكثتم بيعتكم وخالفتم إمامكم"** ، وكأن كلّ ماجرى ويجري ليس فيه ما يدلّ على نكث بيعةٍ ومُخالفة إمام على حدّ ما قال !

من الواضحُ أن الأشراف كانوا يتوقّعون خطاباً ناريّاً، يُهدّد فيه الوالي بالويل والثبوروعظائم الأُمور.لذا فإنهم ماأن سمعوا كلامه النّاعم ، بما فيه من تهوينٍ لِما يجري، حتى وقف أحدُهم عبد الله بن مسلم الحضرمي ليُخاطبه علناً بكلامٍ خشن:**"إنّه لايُصلِحُ ما ترى إلا الغَشْم** [البطْش] **. إن هذا الذي أنت عليه فيما بينك وبين عدوّك رأيُ المُستضعَفين "**[١] .

منذ تلك اللحظة الفاصلة قرّر الأشرافُ أو بعضُهم على الأقلّ الأخذَ بزمام المُبادرة . بدأ الحضرمي فكتب إلى يزيد يُخطره بما يجري في الكوفة **"ثم كتب إليه عمارة بن عقبة بنحوٍ من كتابه. ثم كتب إليه عمر بن سعد بن أبي وقّاص بمثل ذلك"** [١] . والظاهر أن بعض الرسائل حملها مسلم بن عمرو الباهلي ، وهو أحدُ الأشراف ، سيحمل أيضاً جواب يزيد . وفيه :**" إنه كتب إليّ شيعتي من أهل الكوفة يُخبرونني أن ابن عقيل بالكوفة يجمع الجموع لشقّ عصا المسلمين . فسِرْ حين تقرأ كتابي هذا حتى تأتي الكوفة ، فتطلب ابن عقيل كطلب الخرزة حتى تثقفه** [تظفر به] **فتوثقه** [تسجنه] **أو تقتله أو تنفيه "**[١] . وفي روايةٍ ثانية أنه أمره بأن يتيقّظ في أمر الحسين ، ويكون على استعدادٍ له[٢] . بالنسبة للمؤرخ الذي يعمل اليومَ على قراءة الأحداث قراءةً تركيبيّة ، فإننا يجب أن نرى فيما بادر إليه أُولئك الأشرافُ موقفاً جاهزاً ، ليس وراءه إلا مصالحهم كما بيّنّاها قبل قليل . وأنّ عُبيد الله بن زياد سيبني عليه خطّة عمله بناءً ، بمعنى أنه لم يكُن هو الذي صنعه ، كما قد توحي به قراءاتُ بعض مَن كتبوا في وقائع تلك الأيام تحت عنوانٍ أو غيره . وعلى كلّ حال ، فإننا سنعود إلى هذه الإشكاليّة ، ضمن عملنا على بيان أعمال ابن

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٣٥٧ .

٢ ــ *أنساب* : ٢ / ٣٣٥ .

زياد ، بحيث أودت إلى عكس مزاج الكوفة بالاتجاه المُناسب للدولة .

ما أن وصلت الرسائل إلى يزيد " **ليس بين كتْبهم إلا يومان** " حتى استدعى إليه المَدعو سرجون ليسأله : " **ما رأيك** " ؟ .

(٧) سرجون وموقعه الغامض

وسرجون هذا ، وتمام اسمه ابن منصور الرّومي ، شخصيّةٌ غامضة ، لايؤتى على ذكره في كُتُب التاريخ إلا بمناسبة استمزاج رأيه في الأُمور الخطيرة من قِبل ثلاثة خلفاء أُمويين بالتوالي ، ليكون الرأيَ المُطاعَ دائماً. يوصفُ بأنه " **مولى معاوية** " [١] ، أي أنه كان خادمه المملوك له . وأنّه من أصلٍ روميّ . ويُستفادُ من بقائه على اسمه الروميّ أنه بقي على النصرانيّة ، وإلا لاستبدله باسمٍ إسلاميّ كما يحصل عادةً . ولكنّ تتبُّع أخباره ليدلُّ على أنّه كان ذا موقعٍ رفيعٍ جدّاً لدى معاوية ثم يزيد ثم معاوية الثاني بن يزيد . " **كان يكتب له** [لمعاوية] **على ديوان الخراج** "[٢] ، "**كان كاتبه وصاحب أمره** " [٣]. " **وكان** [يزيد] **يستشيره** " [٤]. " **وكان يكتب لمعاوية بن يزيد على الديوان** " [٥]. أي أنّه كان بدرجة وزير ، بل أكثر"**صاحب أمره** "، قبل أن يؤسّس العباسيون منصب الوزارة. كما كان المُمسِك بماليّة الدولة ، بوصفه الذي يكتب له (لمعاوية)على ديوان الخراج . وقد احتفظ بهذا المنصب أيام يزيد ثم أيام ابنه معاوية ، كما رأينا .

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٣٥٦ . والنصُّ برواية أبي مخنف بالواسطة عن جبر بن نوف الهمْداني المُكنّى أبو الودّاك ، وهو من رُواة الطبري . وكان ممّن حضر الواقعة . انظر رواياته في فهرست أعلام الكتاب ، مادة " جبر بن نوف " . وكذلك النّصّ التالي .

٢ ــ الطبري : ٦ / ١٨٠ .

٣ ــ ابن الأثير : ٤ / ١١ .

٤ ــ الطبري : ٥ / ٣٤٨ .

٥ ــ نفسه : ٦ / ١٨٠ .

الأكثر هُجنةً وغرابةً، أن سرجون ، جواباً عن سؤال يزيد إياه **"مارأيك؟"**، أخرج له كتاباً فيه عهد عُبيد الله على الكوفة ، قائلاً أن هذا هو رأي معاوية ، ومات وقد أمر بهذ الكتاب [١]. كان قد أودعه سرجون دون غيره . الأمر الذي، إن صحّ (وهو غيرُ صحيحٍ قطعاً) ، لَيدلُّ على الثقة المُطلَقَة التي كان معاويةُ يوليه إياها ، من بين كلّ مَن حوله ، بمَن فيهم ابنه الوحيد ومَن أراده ولياً لعهده ، يزيد . **" فأخذ برأيه ، وضمّ المصريَن إلى عُبيد الله . وبعث إليه بعهده على الكوفة"** [٢]. وأنّ معاوية كان يضع في حُسبانه نهوض الحسين (ع) بوجه ابنه ، فبيّن بكتابه لَمن بعده الخطّة التي ينبغي العملُ عليها في المُقابل ، باعتماد القسوة والبطش اللذيَن عُرف بهما ابنُ زياد .

ونحن لم نورد هذه الرواية ابتغاء مناقشتها ، مع أن ذلك ممكن ، بل ليبينَ للقارئ الذّهنيّة والعناصر التي قادت في النهاية إلى فظائع يوم كربلا . بصرف النّظر عن صحة الرواية وعدمها ، ما دامت قد رُويت .

كلُّ ذلك فيما يرجع إلى ما قبل دخول ابن زياد الكوفة .

يبقى أن نُناقش العاملَ الثالثَ من العوامل الثلاثة التي تلاقت في الكوفة ، بحيث أدّت إلى عكس اتجاهها بما يُلائم السُلطة . وهو عُبيد الله بن زياد ودخولُه الكوفة وإجراءاتُه بالمُقابل .

(٨) ابنُ زياد يدخلُ الكوفة

البحثُ يقتضي أو يطرح غير سؤال :

ــ السؤال الأوّل : متى وكيف تأتّى له أن يدخل الكوفة ، في الوقت الذي كانت فيه في حالة توتُّرٍ سياسي عنيف ، عنوانه الأبرز إعلانُ الجموعِ الغفيرةِ من أهلها البيعةَ للإمام الحسين (ع) في جوٍ احتفاليّ ، بحيث يأتونه رَسْلاً بعد رَسْل . أي ، ضمناً ، الخروج على السُلطة الفعليّة المركزيّة وعمّالها المحلّيين ، ومنهم طبعاً ابن زياد نفسه . في

١ــ الطبري : ٥ / ٣٥٦ .

١ ـــ نفسه : ٥ / ٣٥٦ .

ظلّ عجز الأغيار فيها (الأشراف) ، الذين يُبطنون معارضة هذا الاتجاه ، عن التّصدّي له بما ملكت أيديهم ؟

السؤال كبير. لكنّ معالجته المعالجة الصحيحة ستكون المفتاحَ لأسرارٍ وتساؤلاتٍ ، صدف عنها المؤرخون الأُوَل ، ثم تابعهم الباحثون من بعدهم .

ثمّة روايةٌ تتردّد في بعض المصادر، تقول : " **إنّ مسلم بن عقيل قدم** [الكوفة] **قبلَه** [أي قبل ابن زياد] **بليلة** "[1] . مصدرها الأوّل عند الطبري هارون بن مسلم ، وهو من رُواة الطبري [2] .

هذه روايةٌ غير صحيحة بالتأكيد ، لِما نعرفه أن قدوم مسلم الكوفة كان بتاريخ ٥ شوّال ، وعلى الأثر بدأ مُسلسل الأحداث : أخذُه البيعة ، رسائلُ الأشراف ليزيد ، جوابُ يزيد عنها إلى ابن زياد ، وأخيراً قُدومُ هذا الكوفة . وهو مُسلسلٌ يقتضي حركاتٍ متواليةٍ تمتدُّ فترةً زمنيّةً لاتقلُّ عن الشهرَين على الأقل ، مهما تكُن حركة أُولئك الذين ضلعوا فيها سريعة . أي أن قدوم ابن زياد الكوفة لا يمكن أن يكون قد حصل قبل أوائل ذي الحجّة . وأي بالتالي أنه نفّذ خطّته بجعْل الكوفة تنقلبُ على الحسين (ع) أثناء شهرٍ واحد تقريباً .

فلنلاحظ هنا أن ابن مُخنف لم يكترث بهذه الرّواية . الأمر الذي يؤكّد حسّه التاريخيّ المُرهَف ، وما أولينا أخبارَه من ثقة .

فهذا الجواب عن أوّل شقّيّ السؤال : متى دخل ابنُ زياد الكوفة ؟

فماذا عن الشقّ الثاني من السؤال : كيف تأتّى لابن زياد أن يدخل الكوفة ، في ظلّ الجو الذي وصفناه ، ليعمل في صميم أهلها عملَه الانقلابي ؟

الجواب يقتضي الوقوف على أعماله التجهيزيّة / التّعبويّة ، التي بدأها في البصرة ، ثم تابعها في الكوفة . كلٌّ بما يقتضيه عنده .

---

١ ـ الطبري : ٥ / ٣٦٠ .

٢ ـ انظر ثبتَ رواياته عنه مُعتمداً فهرست أعلام الكتاب ، مادة " هارون بن مسلم الرّاوي " .

(٩) أعمالُ ابن زياد التجهيزيّة في البصرة

أوّل نذيرٍ تلقّاه ابنُ زياد عمّا يعملُ عليه الحسين (ع) أتى من مكة . أو فلنقُل إنّ أوّل اتصالٍ له بالأزمة القادمة ، كان في الرسائل الخمس التي أرسلها الإمامُ إلى رؤس الأخماس بالبصرة ، وأوصل المنذرُ بن الجارود الرسولَ ونسخةَ الرسالة لصهره عُبيد الله فأمربقتل الرسول . والظاهر أنه اكتفى بهذا العمل النّابي المُستهجَن ، الذي يدلُّ على ميله للبطش ، دون حساب ردّ فعله الأخلاقي والسياسي لدى الناس ، ما سنراه بنحوٍ أدهى بما لايُقاس ، بأمره بدوس جسد الإمام الشهيد بحوافر الخيول ، ثم بتنظيم استعراض نساء وأطفال الشهداء في الأقطار ، ـــ لأن الواقعة الأساسيّة للقضيّة حصلت خارج منطقة ولايته . بالإضافة إلى أن رسالة الإمام لرؤس الاخماس في البصرة يغلبُ عليه الطابع الوعظي الإرشادي المُهادِن ، ولا تشي صراحةً بحقيقة مقاصده وما يعملُ عليه . أمّا الآن وقد أفصح بما لايقبل الرّيب عن مراميه ، وضُمّت الكوفةُ إلى منطقة سُلطة ابن زياد ، فقد باتت القضيّة في مكانٍ مختلف : أُطروحةٌ جذريّة انقلابيّةٌ على الدولة الفعليّة ، تتجه مباشرةً إلى المركز (الخلافة) . في مقابل أُطروحةٍ جذريّةٍ هي الأُخرى معارِضة ، أوكلت الدولةُ أمرها إلى مَن تعرف أنه لن يوفّر وسيلةً ، مهما تكُن قاسيةً ونابيةً ، في الدفاع عن امتيازاتها .

ما أن تلقّى ابنُ زياد كتاب توليته على الكوفة أيضاً ، حتى ارتقى المنبر ليُلقي خطاباً قصيراً ناريّاً ، أخطر الناسَ فيه بأن يزيد قد ولاّه الكوفة ، وأنه غادٍ إليها ، وأنه استخلف على البصرة أخاه عثمان . ختمه بقوله متوعّداً : **"لئن بلغني عن رجلٍ منكم خلافٌ لأقتلنّه وعريفَه ووليَّه"** [١] . والعريف هو المسؤول المُعيّن من قِبَل السُلطة في أحياء المدينة حيّاً حيّاً . وظيفته مراقبةُ سلوك أهليها ، وإخطارُه بها حين يُسأل أو عندما يلاحظ أيَّ ماينبغي أن تكون على خُبرٍ به . أمّا الوليّ فهو كبير عائلته أو أُسرته . أي أنّ ابن زياد قد منح علاقات الجوار والقرابة وظيفةً أمنيّةً رادعةً ، بحيث أنّ يكون كل مَن في داخلها

---

١ ـــ الطبري : ٥ / ٣٥٨ .

شريكاً على قدم المُساواة لَمن ارتكب ، أي ما يستحقّ العقوبة عليه في مقاييسها . وبذلك يخلق رادعاً عن الإخلال بأمنها ، مُضافاً إلى الرّادع الشّخصي الطبيعي . وهذا تدبيرٌ غير مسبوق بمقدار ما نعرف في التفكير الأمني للدولة في الإسلام .

ثم خرج من البصرة ، وأقبل إلى الكوفة .

(١٠) كيف دخل ابنُ زياد الكوفة ؟

هنا تضطربُ الروايات اضطراباً كبيراً .

فمنها روايةٌ مسرحيّةٌ تُصوّره بطلاً يُشبه أبطال الأفلام الأميركيّة : يخرج من البصرة ومعه جيشٌ صغيرٌ من خمسمائة رجل . ولكنّ الجميع تخلّوا عنه أثناء الطريق **"رجاء أن يُلويّ عنهم عُبيدُ الله ويسبقه حسين إلى الكوفة "**. ولكنّه أخفى وجهه بأن تلثّم بعمامةٍ سوداء . وتابع السّير وحده حتى وصل إلى القادسيّة ، إلى أن دخل الكوفة . وطفق الناس يُرحّبون به ظنّاً منه أنه الحسين (ع)، إلى أن وصل قصر الإمارة ، فتدلّى بين شُرفتين ، وعرّف نفسه للنعمان بن بشير فأدخله القصر [1].

ومنها روايةٌ ثانيةٌ تقول أنه خرج من البصرة وليس معه إلا مسلم بن عمرو الباهلي ، حامل رسالة يزيد إليه ، وشريك بن الأعور الحارثي الهمْداني ، وحشمه وأهلُ بيته . وباقي الرواية يُشبه سابقتَها من حيث أن الناس حسبوه الحسين (ع) ، إلى أن صرخ بهم الباهلي : **" تأخّروا ، هذا الأمير عُبيد الله بن زياد "** . إلى أن دخل القصر [2].

---

١ ــ الطبري:٥/ ٣٥٩ . وهذه الرواية عن عيسى بن يزيد الكناني الليثي . وهو من رُواة الطبري . انظر ثبت رواياته عنه ، معتمداً فهرست أعلام الكتاب ، مادة " عيسى بن يزيد بن دأب الكناني الليثي".

٢ ــ نفسه : ٥ / ٣٥٨ . والرواية هذه المرّة عن أبي مُخنف ، بحقّ روايته بالواسطة عن أبي عثمان النّهدي. وهذا من كبار رُواة الطبري ، ومن أصحاب المختار فيما بعد . انظر ثبت رواياته الكثيرة عنه في فهرست أعلام الكتاب "مادة أبوعثمان النهدي" ، وأخباره مع المختار : الطبري : ٦/ ٢٢ و٢٩ . ثم لاحظ هنا أيضاً أن أبي مُخنف لم يكترث بالرواية الأُولى لأسبابٍ نقديّةٍ غير خفيّة . الأمر الذي يُعزّز أيضاً وأيضاً وجاهة اعتمادنا روايته .

الأمر الثابت ، وتتقاطع عنده الروايتان ، أن عُبيد الله نجح في دخول الكوفة دخولاً سهلاً بحيث احتلّ قصر الإمارة ، بما يعنيه احتلال القصرُ من رمزيّة القبض على السُلطة في المدينة . ومن الواضح أن ذلك يدلُّ على دهائه واعتداده بنفسه . كما يدلُّ على حالة التّسيُّب التي كانت تُعاني منها الكوفة آنذاك ، بحيث أن صرخة الباهلي في جمْعهم كانت كافيةً لانكفائهم ، وتُرك عُبيد الله يدخل القصر بكل بساطة . مع أنّه ، بإجماع الروايتيَن ، لم يكُن مصحوباً بمَن يحميه حين الاقتضاء .

(١١) إشكاليّةٌ خفيّةٌ تطرحُ سؤالاً

هذه المُلاحظة الهامّة تصلُحُ بادئاً للتأمّل في إشكاليّة عمل ابن زياد على الكوفة وأهلها ، بحيث نجح في عكْس اتجاهها واتجاههم لجانب الدولة . لكنّني قبل ذلك أودُّ أن أعود إلى إشكاليّة صغيرةٍ خفيّةٍ ، تبدو لي ذات مغزى ، تضمّنتها روايةُ ابن مُخنف الأخيرة ، حيث حصر رفقة ابن زياد في الطريق إلى الكوفة بشخصيَن اثنيَن فقط ، هما مسلم بن عمرو الباهلي وشريك بن الأعور الحارثي الهمداني . مع أن الاثنيَن لا علاقة لهما من قريبٍ ولا بعيد بالأزمة ، التي كان عُبيد الله مُكلّفاً من يزيد بمعالجتها ، علاجاً محصوراً بين إحدى خياراتٍ ثلاثة : بقتل مسلم أو بسجنه أو بنفيه .

أمّا الباهلي فالذي يبدو لنا أنّه كان مفروضاً على ابن زياد فرضاً . فالظاهر أن يزيد حين حمّله الرسالة إلى ابن زياد ، زوّده بتعليماتٍ تقضي بأن يُراقب حُسن تنفيذ الأوامر بنفسه . لأن عُبيد الله كان يعتبر نفسه أحد أفراد الأسرة المالكة ، الأمر الذي يمنحه بزعمه هامشاً من الحق في أن يتفرّد ويجتهد برأيه ، كما كان أبوه يفعلُ من قبل مع (أخيه) معاوية . ولكنّ الأمر الآن مفصليّ ، بحيث لا يتحمّلُ رأياً ولا اجتهاداً قد لا يكون صائباً أو في غير صالح الخليفة في الشام . ولذلك فإن يزيد لم يكتفِ بإصدار ذلك الأمر الحاسم والحدّي ، بل حرص على مراقبة تنفيذه بشخصٍ عُرف بإخلاصه المُطلق للبيت الأُموي[١] .

---

١ ــ انظر ، مثلاً ، الطبري : ٥ / ٢٢٨ .

وأمّا شريك فقد كان في ماضيه عُمدة علي (ع) في البصرة ، ومعتمده في المُهمّات والمُلمّات . وقاتل معه في صفين والنهروان . كما كان على علاقةٍ طيّبة بزياد يوم كان هذا عاملَ الإمام على البصرة . والظاهر أن هذ العلاقة بالأب سَرَتْ إلى ابنه عُبيد الله . ومن المؤكّد أنّه كان من أقرب المُقرّبين إليه . وولاّه قبل سنة على كرمان . ومن هنا فإنّنا نُلاحظ أنّ الحسين (ع) لم يكتب إليه ، في مَن كتب إليهم من رؤس الاخماس في البصرة ، مع أنه كان ، حتى في ذلك الأوان ، من زعماء الشيعة فيها (أو لعلّه ، بل الارجح ، أنّه كان في موضع ولايته بكرمان) .

من المؤكّد أن شريك لم يكُن هو الذي طرح نفسه على ابن زياد رفيقاً له في ذلك الطريق المُلتبس بالاحتمالات والمَحفوف بالمخاطر . بل إنّ عُبيد الله هو الذي ندبه ، وأن ندْبَه إياه لا بدّ أنّه أتى من ضمن أُطروحةٍ مُقنعة ، بحيث أنّ رجلاً في دهاء ابن زياد يطرحُها ، وأنّ آخَرَ في موقع شريك ، خصوصاً بين الشيعة ، وفي تجربته السياسيّة العريقة ، يُمكن أن يقبل بها .

السؤال الآن : ماذا كانت تلك الأُطروحة ؟

الجواب، طبعاً : الله أعلم ! ذلك لأن السؤال هو عن النوايا وما تُسرّه النفوس . وليس من شأن المؤرخ ولا غير المؤرخ أن يطرحه ، فضلاً عن أن يُجيب عنه . إلا بمقدار ما قد تدلُّ عليه الدّلائل .

إذن فلننظر فيما أمامنا من دلائل ، عسى أن تقودنا إلى جوابٍ ما .

من الثابت أن شريك رافقَ ابنَ زياد طوال الطريق من البصرة إلى الكوفة بكامل الغبطة والرضوان إلى أن دخل معه قصرَ الإمارة . فهذا يدلُّ على أنه كان يتحرّك باتجاه غرضٍ وغايةٍ مقبولةٍ لديه ، بوصفه رجلاً مُعرقاً في التشيّع . ولكنّنا سنراه بعد قليل ، كما تقول روايةٌ سنوردها ونُناقشها ، وقد انقلب على صاحبه ، إلى درجة أن يُدبّر خطةً لاغتياله، بل وكان يُشرف شخصيّاً على محاولة تنفيذها . حقاً هي لم تنجح للأسباب التي

---

٢ ــ انظر أخباره في الطبري : ٥ / ١١٢و١٩٣و١٩٩و٢٠٠و٢٠٢و٣٢١و٣٦٠ـ٦١ .

سنوردها أيضاً. ولكنّ الدّلالة هي في نفس تدبير خطّة الاغتيال ثم العمل عليها ، بصرف النظر عن النتائج .

تُرى هل كان ابنُ زياد يُدير في ذهنه خطّةً تؤدّي إلى حلٍّ سياسيٍّ لأزمة الحكم ، وفي هذا السبيل اصطحب شريكاً ، بوصفه زعيماً موثوقاً أو على الأقلّ معروفاً ، ليستفيد من تأثيره لدى شيعة الكوفة ، حيث كان معروفاً على نطاقٍ واسع ، بما له من تاريخٍ مُشرِّفٍ مع أمير المؤمنين (ع) ؟ احتمالٌ يبدو لنا مقبولاً ، ومُنسجماً مع الأحداث التي كانت أصداؤها تتردّدُ في جنبات المدينة . خصوصاً في ظلّ السُّمعة السيئة لابن زياد ، بحيث أنه يعرف أنّه لن يجِد من بين زعماء الشيعة في الكوفة مَن يثِق بأطروحةٍ تصدر عنه مهما تكُن . وخصوصاً أيضاً أننا نعرف أنه لم يكُن مطمئناً إلى جانب يزيد [1]، ونُذكّر هنا بأنه لم يقبل توليته على الكوفة إلا بعد أبرز له سرجون ذلك الكتاب المَزعوم من معاوية . ولو انّ شريكاً عاش مدّةً كافيةً من بعد لربما لم نكُن بحاجةٍ إلى كلّ هذا التّخمين . ولكنّه بوفاته بعد أيام أخذ معه سرّ مانحسبُ أو نظنُّ أنّه كان بينه وبين صاحبه . والله أعلم .

(١٢) عودةٌ إلى عمود البحث

بالعودة إلى الإشكاليّة الأساسيّة في هذه المرحلة من البحث ، التي انقطعت بالعمل على تفسير حَصْر ابن زياد رفقته بمسلم الباهلي وشريك الحارثي ، وهي تفسير انقلاب الكوفة إلى جانب الدولة ، ـــ نقول :

استقرّ بابن زيادٍ المقامُ في قصر الإمارة حيث بات ليلتَه . فلمّا أصبح أمر فنُودي في الناس بالصلاة جامعة ، فاجتمع الناسُ إلى المسجد . فلمّا علم أنهم قد تكاملوا ، خرج إليهم مُتقلّداً سيفه مُتعمّماً بعمامة ، حتى صعد المنبر فالقى خطاباً قصيراً حازماً ، بيّن فيه أن يزيد قد ولاّه الكوفة . وختمه ببيان سياسته فيهم ، بأن قال : " **إنّ أمير المؤمنين ولاّني مصرَكم وثغرَكم ، وأمرني بالإحسان إلى سامعكم ومُطيعكم . وبالشّدة على مُريبكم**

---

١ ــ وقد لاحظ ابن الجوزي ذلك حيث قال : " **كان يزيدُ أبغضَ الناس في عُبيد الله** " . انظر : *تذكرة الخواصّ* ،ط. مكتبة نينوى ، لات. / ٢٤١ .

وعاصيكم . فأنا لُمحسنكم ومُطيعكم كالوالد البَرّ . وسوطي وسيفي على مَن ترك أمري وخالف عهدي . فليُبقِ امرؤٌ على نفسه " [١] .

ذلك كلامٌ حازمٌ ، نعم! ، ولكنّه أيضاً يضعُ **"الوالد البَرّ "** بموازاة **"سوطي وسيفي"** . تاركاً للسامعين أن يختاروا بينهما .

هذه لغةٌ غريبةٌ على الخطاب المألوف من ابن زياد وأمثاله . خصوصاً حين نُقارنه بخطابه قبل أيام بأهل البصرة ، الحافل بصنوف التهديد والوعيد القاسي . مع أنّهم لم يكونوا قد أتوا بأيّ مامن شأنه أن يدلّ على أنهم مُتجهون إلى المُعارضة والنهوض بوجه الدولة . خلافاً لأهل الكوفة الذين كانوا قد قطعوا شوطاً بعيداً في السّير بالاتجاه الانقلابي عليها . بل نقول أيضاً : متى كان ابنُ زياد وأضرابه من جلاوزة السُلطة الأُمويّة يطرحون على الناس أن يكون لهم الخيار بين أُطروحةٍ وغيرها ! دائماً كان الخيار الوحيد هو أن يُطيعوا ويخضعوا ، وإلا ! والشواهد على ذلك لا تُحصى .

فهل نفهم من ذلك أنّه كان بما ضمّنه خطابه يطرح بداية أو مشروع ما سمّيناه قبل قليل تسوية سياسيّة للأزمة ؟ أو أنّه ، على الأقلّ ، يخضع لميزان القوى السياسي والعملاني في الكوفة القائم في الكوفة بعد تلك البيعة العريضة للإمام على يد مسلم ؟

هنا نقول في الجواب أيضاً : الله أعلم . ذلك أن ماسيأتي به ابنُ زياد سيقلب الأوضاع رأساً على عقب . بحيث لم يعُد في البين أي مكانٍ لأُطروحةٍ لحلًّ سياسيّ ، إن صحّ أن شيئاً من ذلك كان في ذهنه . وأيضاً لم يعُد عنده أي اعتبار لِما قدّرناه من ميزان قوى .

---

٢ ــ هذا بحسب رواية أبي مُخنف بالواسطة عن أبي الودّاك جبر بن نوف الهمْداني الكوفي (الطبري: ٥/ ٣٥٨) . وهو من رُواة الطبري . وله كلامٌ جيّدٌ على مسؤوليّة كلّ الذين خرجوا لقتال الحسين (ع) عن الجريمة حتى الذين لم يشركوا بالدّماء ، يدلُّ على تشيُّعٍ سليمٍ ووعيٍ مُتقدّم (انظر : الطبري : ٥ / ٤٣٧). وقد اعتمد روايته هذه كافة المؤرخين تقريباً (انظر :*أنساب* : ٢ / ٣٣٦ وابن الأثير:٢/ ٥٣٦ و*مقاتل الطالبين* / ١٠٠ و*مقتل الحسين* : ١ / ٢٠٠ و*البداية والنهاية* : ٨ / ١٥٣) و*الإرشاد* :٢/ ٤٤) . وخالفهم يسيراً في *الفتوح* : ٥ / ٣٩.

المؤرخون ، ومنهم أبو مُخنف وفقاً للسياق عند الطبري ، يقفزون بعد ذكر خطاب ابن زياد فوراً إلى إجراءاته القمعيّة الدقيقة والقاسية . وكأنّه بدأ بها في اليوم التالي لخطابه .

نعتقد أن بين هذا وذاك مسافةٌ غير مرئيّة للمؤرخين ، نحن إنما عرفناها بأثرها فقط . وخفاؤها ربما بسبب طبيعتها المكتومة ، هي التي أدّت إلى تخلّي ابن زياد عن الاعتبارَين السابقَين .

فما الذي حصل بين الخطاب ذي اللهجة المُهادنة مهما تكُن ضعيفة وممّن لايُوثَق بعهده ، وبين الإجراءات القمعيّة التي سنصفها ؟ وأنا لا أكتم القارئ أنني ، وأنا أُجيلُ النظر في هذه النقطة الغامضة ، تملّكني شعورٌ طاغٍ يُشبه شعورَ المُحقّق البوليسي في ملابسات جريمة ابتغاء اكتشاف مرتكبها . يقيناً مني بأنّ ذلك المكتوم هو النقطة الفاصلة في السياق التاريخي التي قادت إلى جريمة كربلا المَهولة .

ثمة قاعدة في هذا النمط من التحقيق بمثل هذه الأمور ، حيث تكون غارقةً في غموضٍ لايتسلل منه أيُ بصيص ، تقول : إبدأ بحثك بالسؤال عن المُستفيد من الجريمة . وضمناً مَن هو المُتضرّر من بقاء الضحيّة على قيد الحياة . وفيما يتعلّق ببحثنا ، من هو المُستفيد من قمع مسلم ومَن وراءه ومَن يتبعه وتداعياته ، المُتضرّر من الاتجاه التّسووي أو المُهادِن ؟

السؤال يتجه مباشرة إلى المُسمّون بالأشراف من رؤساء القبائل في الكوفة دون غيرهم ، ذلك لأنهم وحدهم المستفيدون المُنتفعون مباشرةً من بقاء الدولة الفعليّة ، المُتمرّسون بالعمل لها . وأنهم سيفقدون كافة امتيازاتهم في ظل انتصار الحركة الانقلابيّة العالقة . وهم الذين رأيناهم من قبل أُسَّ البلاء ، يحاولون تحريض النعمان بن بشير على البطش . فلما لم يمتثل لهم حرّضوا يزيد عليه . وبذلك بدأ ذلك المُسلسل من الأحداث الذي أوصل ابن زياد إلى الكوفة . فكيف لا يُتابعون الآن تحريضه على استعمال أقصى القسوة في مقابل حركة مسلم ، ويعملون كلّ ما في وسعهم لإقناعه بإمكانيّاتهم اللوجستيّة ، في مُواجهة الحركة الشعبيّة العالقة .

لسنا ندري ، وأنّى لنا ، ماذا كتمتْ تلك الليالي من مداولات ومشاورات ووعود وإغراءات وما إلى ذلك . ولكنّنا على شبه اليقين من أن أولئك الأشراف قد أحاطوا بعُبيد الله ، وأنهم أخذوا على عاتقهم ، بما لدى كلٍّ منهم من موقع مؤثّر لدى أتباعه ، تحويلَ مزاج وحوافز ومُيول مَن وراءهم وأتباعهم باتجاهه ، بحيث يُصبح في طوقه أن يواجه مسلم مواجهة النّدّ للنّدّ على الأقل ، بل ربما من موقع الأقوى . وبذلك يقضي على الحركة الشعبية في مهدها وبأدواتها . ويكسب وجهاً عند يزيد . نقول ذلك ، وإن لم يكُن مُستنداً إلى معلومات ، لأن من المؤكّد أنه لولاه أو ما يُشبهه أو مثله لَما كان في يد ابن زياد أدنى قوّة قتاليّة تعطيه أن يواجه في الميدان ، ولم يكُن ليُقدِم على التدبيرات القمعيّة التي سنبدأ بوصفها توّاً . بما تحمله من صفةٍ دلاليّة على دخول عاملٍ سياسيّ ـ لوجستي جديد ، قلبَ ميزان القوى في الكوفة رأساً على عقب .

(١٣) ابنُ زياد ، أعمالُهُ الإعداديّة

ما أن اطمأنّ ابنُ زياد إلى جانب الأشراف ، حتى نزع ثوب" **الوالد البرّ** " ، وامتشق سيف وسوط الأمير .

بدأ بأن استنفر عُرفاء الأحياء ، الذين يأتون بالدرجة الثانية بعد الأشراف في الترتيب الهرمي للسُلطة المحلّيّة ، ليكتبوا إليه الغُرباء وكلّ " **الذين رأيهم الخلاف والشقاق** ". تحت طائلة أنّ مَن لم يكتب ، فذلك بمثابة إخبار بأن ليس في منطقة عرافته مَن يُخشى خلافُه . حتى إذا بان العكس برئت منه الذّمّة وحلّ ما له وسفك دمه ." **وأيما عريف وُجد في عرافته من بُغية أمير المؤمنين أحدٌ لم يرفعه إلينا ، صُلب على باب داره ، وأُلقيت تلك العرافة من العطاء ، وسُيّر إلى موضعٍ بعُمان الزّارة** " [١].

هوذا أدهى وأخبث خطاب قمعي في الإسلام . وضع السُلطة في موقع المُمسِك بتلابيب المجتمع ، بحيث لاتترك له خِياراً إلا الطاعة فقط ، بل وحراستها وخفارتها . ذلك بأن أعفى حِلف الوالي ــ الأشراف من كلّ مسؤوليّة أمنيّة ، ووضعَها

---

١ ــ الطبري:٥/ ٣٥٩ . وشبه هذا الخطاب في مصادر كثيرة .

كاملةً على عاتق الناس : عُرفاء الأحياء مسؤولون حصراً عن تقديم تقريرٍ للوالي بمَن في منطقة كلٍّ منهم من غُرباء ، وممّن هم مشكوكٌ بولائهم للدولة . وكلُّ عريفٍ يتبيّن عمليّاً وجودُ أحدٍ من هؤلاء في منطقة عرافته دون أن يُبلّغَ عنه ، صُلب المطلوبُ على باب دار العريف ، ونُفي هو إلى منطقةٍ قصيّةٍ قاسية اسمها الزّارَة [1] . بالإضافةِ إلى حَرم كلِّ المُقيمين في منطقته من العطاء . أي من حقّ الاستفادة من عوائد الدولة الماليّة (الفيء) ، التي كانت توزّع نقداً على الناس وفقاً لبياناتٍ مُجهّزة سِبقاً وسلفاً ، وكانت المصدر الأساسي للدَّخْل لأكثرهم .

ذلك التدبير غير المَسبوق بمقدار ما نعرف ، حصرَ مصلحة الناس في توفير أمن السُلطة ، مقابل كلّ مَن يُعارضها . العُرفاء يُراقبون كل صغيرةٍ وكبيرة تحت طائلة النّفي عند أي تقصير . والناس يُراقبون العريف كي لا يُقصّر في الجانب الإخباري الموكول إليه ، فيدفعون هم ثمن تقصيره من لقمة عيشهم ، بحجب العطاء عنهم . وفي هذا الجوّ من المُتوقّع أن يتخلّى الناس عن أفكارهم في بسط العدل وفي الدولة العادلة ، وينحصر تفكيرهم في أمنهم الشخصي وفي لقمة عيشهم وعيش عوائلهم .

ومن الواضح لكلِّ مَن يُحسن التأمُّل في النّص وبيئته ومفاعيله ، أن هذا التدبير ، على مافيه من ذكاءٍ شيطانيّ ، وخبرةٍ عميقةٍ بالتركيبة الاجتماعيّة للكوفة وبمواضع الخلل فيها ، لن يكون له أي مفعول معنوي وعمليّ دون دعم الأشراف له . ذلك لأن ابن زياد لم يكُن تحت إمرته مُقاتلٌ واحدٌ ، يُنزل ما أرعدَ به وأبرقَ على الناس المرعوبين من هول ما توعّدهم به ، بحيث يضمن تنفيذ ما توعّد به . اللهم إلا بضع أفراد برسم حراسته الشخصيّة ، تحت إمرة مولاه مهران . وأنّ تجييش المُقاتلين حين اللزوم كان موكولاً حصْراً ، من قبل هذا ومن بعده بزمانٍ طويل ، إلى مَن يُسمّون بـ الأشراف ، أي رؤساء القبائل .

---

١ ــ قال إنها في عُمان . ولكنّ ياقوت يقول إنها من قُرى البحرين ، أي شرق شبه الجزيرة العربيّة بجوار الاحساء والقطيف والخِطّ . (معجم *البلدان* ، مادة " الزّارَة ") .

هكذا حصل انقلابُ الكوفة السريع والمُفاجئ ، من وضْع المُبايِعة بأعدادٍ كبيرةٍ للحسين (ع) بشخص ابن عمّه مُسلم ، إلى التي ستحشد الأُلوفَ من أبنائها لقتاله وقتله .

ومن الغنيّ عن البيان ، بعد ماأوردناه من نصٍّ وتحليل ، أن هذا الإنجاز الذي طالما أذهلنا لا يرجع (الفضلُ) فيه إلى العبقريّة السياسيّة وإلى دهاء ابن زياد ، وإن نكُن لا نُنكر سهمَه ودورَه في ذلك ، بل بالدرجة الأُولى إلى مُداخلة تلك الحُثالة النّفعيّة ، التي ترتضع من بقايا الجاهليّة ومكوّناتها القبَليّة ، المُسمّاة باسمٍ بعيدٍ جدّاً عن هُويتها وحوافزها الحقيقيّة (الأشراف) ، وإلى انحصار همومها في المحافظة على مصالحها وامتيازاتها الماديّة والسياسيّة والإداريّة والاجتماعيّة ، دون أدنى اكتراث بالقيم الدينيّة والأخلاقيّة . وما انفكّت تدافع عن الدولة الأُمويّة بكلّ ما أوتيت من قوّة ، لا لشئ إلا لأن مصلحتها هي في بقاء الدولة قويّةً مُتماسكة .

هوذا الوضع الذي سيلخصه للحسين (ع) القادمُ من الكوفة مُلتحِقاً بالإمام مُجمّع بن عبد الله العائذي بما قلّ ودلّ : " **أمّا أشرافُ الناس فقد أُعظمت رشوتهم ، ومُلئت غرائرهم [.......] فهم إلبٌ عليك واحد . وأما سائر الناس بعدُ ، فإن أفئدتهم تهوي إليك ، وسيوفهم غداً مشهورةٌ عليك** "[1]. وإن يكُن ، في تحليله للوضع القائم في الكوفة ، لم يرَ أو يُدرك الحوافزَ الشخصيّة التي تُحرّك الأشراف ، بالإضافة إلى رشاوى السُلطة في الكوفة لهم .

(١٤) الوضعُ الذي نشأ بانقلاب الكوفة

كان لوقع هذا الانقلاب ما يُشبه الزلزال الذي قلبَ الأوضاع في المدينة رأساً على عقب . وترتّب عليه فوراً أثران مُباشرَين على تطوّر الأحداث :

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٤٠٥ . والخبر عن عقبة بن أبي العيزار . روى عنه الطبري هذه الرواية ليس غير . ويبدو أنه من البُداة في ذو حُسُم ، موضعٌ بطريق الإمام إلى كربلا بعد شراف . انظر كتابنا موكب *الشهادة* / ٨٩ ـ ٩٠ .

ـ الأوّل : أن الناس بدأوا ينفضّون الآن عن مسلم و **"قد عُلم به"** ، بحيث أُسقط ما في يده أو كاد ، وبات همُّه الأول آنيّاً أمنَه الشخصي. فخرج من دار المختار حيث كان مُتخفّياً . وقصد سرّاً دار هانيء بن عروة المُرادي ، ليقول له : **" أتيتُك لتُجيرَني وتُضيّفني "** . فتقبّله هانيء على مَضض . وأخذت الخواصُّ من الشيعة تختلف إليه في دار هانيء [1].

من الواضح أن الغرض من اختلاف أُولئك الخواصّ من الشيعة إلى مسلم ، حيث هو في دار هانيء ، لم يكُن إلا التداول ، وتبادُل الرأي فيما يجب أن يكون عليه العمل ، بعد ماجدّ من تدبير قمعيّ نظّمه تحالُفُ ابن زياد والأشراف . والمصادر لا تذكر أحداً من أُولئك الخواصّ من الشيعة باسمه إلا عُمارة بن عُبيد السَّلولي . وهو أحدُ ثلاثةٍ من الذين حملوا الرسالة الثانية من كبار الشيعة في الكوفة إلى الإمام في مكة يستحضرونه ثم عاد منها بالجواب [2] . أمّا الآخرون من خواصّ الشيعة ، الذين كتبوا الرسائل يستقدمون الإمام ، وهاهم الآن يعقدون اللقاءات في دار هانيء للتشاور ، فما ذُكروا بأسمائهم ، لا لسبب ، فيما نُخمِّن ، إلا لأن اجتماعاتهم هذه كانت تحدث تحت ستارٍ مُحكَمٍ من السّرّيّة ، ولم يحضرها أحدٌ من الرُّواة ، الذين ندين لهم بالروايات التي نعمل عليها في بحثنا .

ـ الثاني : أن شريك بن الأعور ، الذي كان آنذاك مريضاً في دار هانيء جرّاء سفره الطويل من البصرة على كبر سنّه ، قد وجد أنّ عُبيد الله قد نكلَ عمّا كان موضعَ اتفاقٍ وتبانٍ بينه وبينه ، أعني الحلّ السياسي للأزمة ، ولأجله قدِمَ معه إلى الكوفة كما رجّحنا ، ولذلك فقد بات الآن في حِلٍّ من عهوده معه ، فاتجه إلى مُحاولة استعادة زمام المُبادرة في الوضع الانقلابي ، الذي نشأ بالتدبيرات القمعيّة التي اتخذها تحالُف الوالي ـ الأشراف . وذلك باعتماد خطّةٍ من مرحلتيَن أو خطوتيَن :

---

١ ـ الطبري:٥/ ٣٦٢. والرواية عن أبي مُخنف بحق روايته بالواسطة عن أبي ودّاك ، وقد عرّفناه قبلُ.

٢ ـ نفسه : ٥ / ٣٥٢ و ٣٥٤ .

ـ الأُولى : اغتيال ابن زياد بسيف مسلم . وبذلك ، فيما بدا له ، ينهار التحالُفُ بعد أن فقد رأسَه . على أن يتلو ذلك أن يقعد مسلم في القصر ، بما يعنيه ذلك من رمزيّة الاستيلاء عمليّاً على السُلطة الفعليّة في الكوفة . وعليه فقد خاطبه قائلاً : **"اقتله ثم اقعد في القصر ، ليس أحدٌ يحول بينك وبينه "** [1] .

ـ الثانية : بعد أن يتمّ الجزء الأوّل من الخطّة بقسميه ، وبعد أن يبرأ شريك من مرضه ، يرجع إلى البصرة ، التي باتت وفقاً للخطّة في حالة شبه عطالةٍ سياسيّة ، باعتبار أن مَن يلي أمرها هو نائبٌ عن ابن زياد ، القتيل حسب الفرْض ، فيستنهض شيعتَها . أو على حدّ ما قال لمسلم : **" كفيتُك أمرَها "** [1] .

الخطّة من الوُجهة النّظريّة مُحكَمَة . تأخذ بالاعتبار عنصرَي التحالف الذي أجهض ثورة أهل الكوفة . وذلك بقتل رأس السُلطة الفعليّة ، بما يعنيه من الخروج على السُلطة العُليا في دمشق . ثم باستنهاض عناصر ثورةٍ ثانية في البصرة ، لتُعادل على الأقلّ التأثيرَ المُعادي ، الذي يُمثّله أشرافُ الكوفة ، على إرادة سائر الناس فيها . وهو يدلُّ على بُعد نظر شريك ، وعلى ما له من مكانةٍ عاليةٍ بين الشيعة في البصرة .

ومع ذلك فإن الذي حصل أن مسلم ، على الرغم من تعهّده بقتل ابن زياد بسيفه وفقاً للخطّة المُتّفَق عليها ، بعد أن حضر لعيادة صديقه شريك في بيت هانيء حيث يكمن مسلم ، ـ نكل عمّا تعهّد به ، بحجة كراهة هانيء أن يُقتلَ عُبيد الله في داره ، وأن النبي (ص) نهى عن الفتْك ، أي القتل غيلةً وغدراً [1].

(١٥) تحقيقٌ في علّة نكول مسلم عن اغتيال ابن زياد

من المؤرخين المُحدَثين مَن يُلقي الّلوم على مسلم في نكوله ، بل يجعله مسؤولاً بدرجةٍ ما عن التطوّرات التالية وُصولاً إلى يوم كربلا . بالقول أنه لو أقدم على تنفيذ القسط الذي أخذه على عاتقه ممّا جرى التخطيط له ، لاتخذ مسارُ الأُمور منحىً مختلفاً أشدّ الاختلاف ، ولَمَا انحدرت إلى درجة قتل الإمام وأهل بيته وأصحابه ، ومن ثَمّ حمْلِ

---

١ ـ الطبري : ٥ / ٣٦٣ . والخبركسابقه عن أبي مخنف ، بحق روايته بالواسطة عن أبي ودّاك .

النساء والاطفال سبايا .

لكنّ الشيخ الرّيشهري ، بعد أن ينقل نصوصَ الروايات الكثيرة في كافة المصادر على واقعة محاولة الاغتيال ، يعقد فصلاً خاصّاً تحت عنوان " **وقفةٌ عند الرواية التي تُفيد التخطيط لاغتيال ابن زياد** "، ينتهي فيه إلى أن الرواية منحولةً جملةً وتفصيلاً . أي أنّ كل ما قيل عن التخطيط لاغتيال ابن زياد ومآله هو كذبٌ واختلاق ولا أساس له من الصحّة . وذلك استناداً إلى ما بين مُختلف الروايات من اختلاف (" **تناقُض** " ، على حدّ تعبيره) . فضلاً عن اعتباراتٍ ثانويّةٍ أُخرى [٢] .

في رأينا أن صُلب الخبر هو على حدّ الشُّهرة في المصادر . وإن يكُن ثمة انتحال أو اختلاق فهو في بعض التفاصيل ، التي ينبغي لَمن يهمّه الأمر أن ينقدها وقد يُفنّدها . لكن أن نرمي كلَّ ما تقاطعت عليه كافة الرُّواة والروايات بالانتحال ، فهذا منهجٌ وقاعدةٌ ، لو نحن طبّقناها على كلّ أمثالِها ، لَمَا بقي عندنا تاريخ، بل لن يبقى عندنا نصّ.

وإنّني أظنُّ أنّ ماحرّك فكرَ شيخنا الريشهري نحو القول بأن روايات الباب كلّها ، بضرسٍ قاطعٍ ودون استثناء ، مُنتحَلَة ، بذريعةِ اختلافِ أخبارِها ، كان الغيرةُ على البطل الشهيد مسلم بن عقيل ، أن يُرمى ظُلماً بمثل ما رماه به بعضُ المؤرخين ، كما أشرنا أعلاه ، لأسبابٍ في رأسِها امتناعه أو نُكولَه عن تنفيذ الاغتيال. وهي غيرةٌ في محلّها ولاريب ، نؤيّده عليها دون أدنى تحفُّظ . لكن ذلك الغرض النبيل لايتمّ عن طريق وصف أخبار الواقعة قاطبةً بالانتحال ، وهي التي رُويت بمثل تلك الشُهرة العريضة التي وصفناها . بل إنني أخشى أن هذا الحكم غير المُقنع قد يُحرّض المزيد من النقد الجائر بحقّ ابن عقيل .

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٣٥٩ ــ ٦٠ . والرواية عن عيسى بن يزيد الكناني ، بحق روايته عن عمر بن شبّة عن هارون بن مسلم عن الرّاوي الأوّل علي بن صالح . والجميع من رُواة الطبري . أمّا أبو مُخنف فقد روى مثلها بيسير اختلاف ، بحق روايته بالواسطة عن أبي ودّاك (نفسه : ٥ / ٣٦١ ــ ٦٣) .

٢ ــ *الصحيح من مقتل سيّد الشهداء وأصحابه* / ٣٧٢ ــ ٧٣ .

حسناً ، ما دمنا نستنكر رميَ مسلم بما رُمي به من تقصيرٍ وهُروبٍ مزعوميَن من المُهمّة ، وفي الوقت نفسه نُصحّح صُلبَ أخبار واقعة محاولة اغتيال ابن زياد ، بما فيها نكول مسلم عن تنفيذ قسطه الأساسي من الخطّة ، ــ إذن ، فما هو تفسيرنا لما عمله ، أو بالأحرى لِما لم يعمله ؟

نقول في الجواب ، بعد التأمُّل وإعادة قراءة الأحداثيّات ، وتحليل كافة الروايات :

إن ما فعله مسلم ، إذ تراجع عن تعهُّده لإخوانه بقتل ابن زياد بسيفه ، هو عين الصواب . على الرغم من نكوله عن التعهّد الذي قطعه لَمن حضر جلسة الشُّورى ، التي انتهت بقرار الاغتيال . ولكنّ المرءَ قد يُبدّل رأيه بعد أن ينفرد بنفسه ، ويُعيد التأمّل فيما كان موضوع التباحُث والتشاور ، دون أن يجِد الفرصة أو المصلحة للتصريح بذلك لرُفقائه . وذلك استناداً إلى قراءتيَن :

ــ الأوّلى : أن مُشكلته الرئيسة ، والذي أدى إلى إنقلاب الوضع عليه في الكوفة ، من مُبايِعةٍ كثيفة إلى غير مُكترثة حتى الآن ، هي مع الأشراف وعملهم وقد عرفناه . إذن فما من فائدةٍ في اغتيال ابن زياد بنفسه . بل إن اغتياله ، وهو الذي دخل بيت هانيء مُسالِماً عائداً صديقَه الشيعي المُهمّ ، ربما يزيد الوضعَ سوءاً ، ويضع في يد الأشراف سلاحاً معنويّاً ، سيستخدمونه بما لديهم من دهاءٍ وخِبرة ، في التحريض على مسلم ومشروعه تحت عنوانٍ أو غيره .

ــ الثانية : ومع ذلك ، فإن اغتيال ابن زياد هو حقاً كما وصفه هانيء ، بعد أن أحسّ ابنُ زياد بما رُسم له ، فخرج ناجياً بنفسه ، حيث خاطب مسلم بقوله : " **أما والله لو قتلتَه لقتلتَ فاسقاً فاجراً كافراً غادراً** [1] ". لكن شرطَ أن يتمَّ الجزءُ الثاني من الخطّة ، كما رسمها شريك ببراعة ، بأن يرجع إلى البصرة ، ليكفي مسلمَ أمرَها ، على ما قال . وبذلك يُعطّل تأثير أشراف الكوفة بدرجةٍ ما ، بتحريض قوّةٍ سياسيّةٍ شعبيّةٍ كبيرةٍ

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٣٦٣ .

في قِبالهم . الأمر الذي كان مرهوناً بإبلال شريك ، بحيث يغدو قادراً على السفر الطويل عائداً إلى البصرة ، ثم على العمل غير السّهل فيها على تحريض واستنفار شيعتِها. وهو الذي ، فيما يبدو ، مايزال يُعاني على شيخوخته من مشقّة سفره الأوّل من البصرة إلى الكوفة مع ابن زياد . أظنُّ أن إعادة مسلم التأمُل في هذا الشرط هو ما دعاه إلى النكول عن أن يُنفّذ الاغتيال ، بعد أن كان قد أخذه على عاتقه . آخذاً بعين الاعتبار ما يجب أن يتبعه ويتلوه ، من تعليقٍ على أمرٍ مشكوكٍ جدّاً وأكثر بحصوله ، هو إبلال شريك إبلالاً تامّاً ، بحيث يستعيد ما يكفي من القدرة على أداء المُهمّة التي تعهّد بها ، وبناءً على ذلك اتُّخذ القرار باغتيال عُبيد الله .

من الواضح أنه في ظل هذا الوضع ، فإنّ المَضيَّ بتنفيذ القرار سيكون مغامرةً غير محسوبة العواقب ، مبنيّة على إبلال شريك أولاً من مرضه وفي سنّه العالية . وبالفعل توفي بعد ثلاثة أيام **" فخرج ابنُ زياد فصلّى عليه**[1] " .

لذلك قلنا ونؤكّدُ الآن أن ما فعله مسلم كان عين الصواب .

لم يكُن لُمحاولة الاغتيال الفاشلة التأثير المُتوقّع على تطوُّر الأحداث كما تعكسها المصادر . لأن ابن زياد ، وإن يكُن قد بادر إلى الخروج مسرعاً من دار هانيء ، بعد أن أوعز له مولاه مهران ، كبير المجموعة الأمنيّة المُرافقة له ، بوجود ما يُريب . فإنه تظاهر بأنه لم يعرف بما كان يُدبّر له . بل إنه قال فيما بعد أنّه لم يعرف بدور شريك وهانيء في ذلك إلا بعد زمانٍ طويل[1] .

(١٦) روايةٌ موضوعةٌ على تدبيرات ابن زياد

ثمة روايةٌ تسوقها المصادر ، ومنها الطبري ، تورد بتفصيلٍ غير مألوف قصّةً غريبة تقول ماخلاصته ، أنه في الوقت الذي كان فيه خواصُّ الشيعة يعقدون سرّاً جلساتهم مع مسلم في دار هانيء ، كان ابنُ زياد يدبّر خطّة محبوكة ترمي إلى كشف المكان الذي يتخفّى فيه . فدعا مولىً له اسمه معقل ، وأعطاه مبلغاً من المال . مع تعليمات بأن

---

١ ــ نفسه / ٣٦٤.

يطلب أصحاب مسلم ويعطيهم المال ليستعينوا به على الحرب ، مُخادعةً لهم ليوصلوه إلى مكان مسلم . وبالفعل ، على ماتقوله الرواية ، لقي مسلمَ بن عوسجة في جامع الكوفة وبايعه . وتدرّج معه إلى أن أدخله على مسلم في دار هانيء ، حيث يلتأم مجلس كبار الشيعة للتداول والتّشاور بحضور مسلم ، فأخذ مسلمُ بيعته بنفسه . وأمر أبا ثُمامة الصائدي فقبض المال الذي جاء به . وطفق يتردّد على الدار ويسمع كلامهم ، ليُبلّغها عُبيدَ الله أوّلاً بأوّل [1].

هذه الرواية موضع ريبٍ كبيرٍ عندنا ، لا بل قطع بأنّها موضوعةٌ لأسبابٍ غير خفيّة . ذلك لِما أتت به من تفصيلاتٍ حكتْ أحاديث شفويّة دارت بين شخصين فقط : بين عُبيد الله ومولاه معقل ، وبين هذا ومسلم بن عوسجة .

ثم كيف يكون معقل مولىً لابن زياد على ما قالته الرواية ، ومع ذلك فإنّه يُقدّم نفسه لابن عوسجة بوصفه " **من أهل الشام مولىً لذي الكلاع** [2]" ، ثم تنطلي مخادعته انطلاءً سهلاً هيِّناً على ابن عوسجة ، بل وعلى كل خواصّ الشيعة المُجتمعين قاطبة ، فيجلس معهم المرّةَ تلوَ المرّة ، ويستمع إلى أحاديثهم السّرّيّة وكأنه واحدٌ منهم . مع أنه في الحقيقة (دائماً على ما قالته الرواية) مولىً لابن زياد ، أي أنه من أهل الكوفة ، وأي أنه يجب أن يكون معروفاً فيها عند بعضهم على الأقلّ . خصوصاً إن نحن لاحظنا أن لقاءه الأوّل بابن عوسجة قد تمّ ، حسب الرواية ، علناً بجامع الكوفة ، حيث يلتقي الجمّ الغفير من الناس ؟!

---

١ ــ أيضاً : ٥/ ٣٦٢ـ٦٤ . والرواية باختصار ويسير اختلاف فيه :٥/ ٣٤٨ . وهي هنا جزءٌ من رواية الإمام الباقر (ع) الشهيرة على وقائع يوم كربلا ، التي أودعها عمّار الدهني ، و*الأخبار الطوال* / ٢٣٥، و*مقتل الحسين* للخوارزمي : ١ / ٢٠١ ، و*الفتوح* لابن أعثم : ٥ / ٤١ . وقارن كلّ هذه المصادر ، وعلى رأسها الطبرى ، بروايةٍ مختلفة بالتوقيت والرجال والاحداث عن هذه الواقعة المزعومة لدى الطبري أيضاً : ٥ / ٣٦٠ ـ ٦١ .

٢ ــ أيضاً : ٥ / ٣٦٢. وذو الكلاع هو الحِميري من رجال معاوية المعروفين .

لهذه الاعتبارات فإننا نعتقد أن هذه الرواية موضوعة . ربما ابتغاء إظهار سذاجة الشيعه وسهولة خداعهم . وبالُمقابل دهاء وسعة حيلة خصومهم ، أو / و تغطية الُمخبر الحقيقي بمكان مسلم ، الذي لا نراه بعيداً عن الأشراف . وهم الذين باتوا الآن في خدمة ابن زياد ، يراقبون كلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ من أعمال الشيعة في الكوفة . مع الحرص على أن لايظهروا بمظهر الُمعارضين لهوى قاعدتهم الشعبيّة علناً ، الذي كان حتى الآن يميلُ بقوّة إلى جانب الإمام . الأمر الذي يخشون أن يؤدّي إلى خسارة تأثيرهم عليها .

(١٧) التحالُف السُلطوي في ميدان العمل

مهما يكُن ، فإننا سنرى تحالف ابن زياد ــ الأشراف ينتقل فوراً إلى العمل القمعي الُمباشر . فبعث ثلاثةً من كبار الأشراف إلى هانيء ، الذي كان قد انقطع عن مجلس ابن زياد على أثر انكشاف محاولة الاغتيال ، هم محمد بن الأشعث ، وأسماء بن خارجة ، وعمرو بن الحجّاج الزُّبيدي الُمذحجي (أي أنّه من قبيلة هانيء) ، وحمّلهم تعليمات بأن " **القوه فمُروه ألّا يدعَ ماعليه في ذلك الحقّ ، فإنّي لاأُحبُّ ان يفسُدَ عندي مثلُه من أشراف العرب**"[١] . الأمر الذي يؤيّد ما قلناه قبل قليل على تجاهُله (ابنُ زياد) بدهاء محاولة اغتياله . وفي ذلك إمارةٌ على أنّه بدأ حِراكَه في مُقابل مسلم بحذرٍ شديد ، وأن وضعه (مسلم) كان ما يزال مُتماسكاً ، بحيث لا يجرؤ عُبيد الله على قصده بنفسه مباشرةً وعلناً (سيتأيّد ذلك بنحوٍ أكثر تفصيلاً بعد قليل) . وبدلاً عن ذلك اتجه إلى خطّةٍ تعمل على قطع عراقيبه ، باستهداف حاميه الذي يُؤيه في منزله ، وحيث تُعقَد لقاءات التشاور ووضع الخطط .

بنتيجة لقاء الأشراف مسلماً في منزله وإلحاحهم عليه ، رافقهم إلى مجلس ابن زياد ، حيث استقبله هذا " **مُكرِماً مُلطِّفاً** " . لكنّه مالبث أن أسقط عن وجهه ذلك القناع الصّفيق . وواجهه ، يُحيط به شُرطتُه وعشرون من الأشراف وشُريح القاضي ، بالإضافة إلى مسلم بن عمرو الباهلي ، الذي عرفناه من قبل رسولَ يزيد إلى عُبيد الله .

---

١ ــ الطبري:٥/ ٣٦٥.

ونلاحظ الآن أنه ما يزال في الكوفة رقيباً وعيناً ليزيد على أداء ابن زياد ، ــ واجهه بخطابٍ انتهى إلى طلب تسليم مسلم إليه ، تحت طائلة ضرْب عنقه هو. وطبعاً أبى هانيء ذلك كلَّ الإباء لاعتباراتٍ تتصل بشرفه وشرف بيته على ماقال " **أدفع إليك جاري وضيفي وأنا حيٌّ صحيح !** "، وظنّاً منه بأن عشيرته (مُراد ، من بطون مَذحج) ستمنعه . فأمر بحبسه ، بعد أن ضرب وجهه بالقضيب "**حتى كسر أنفه ، وسيّل الدماء على ثيابه ، ونثر لحم خدّيه وجبينه على لحيته** " .

ما أن بلغ ذلك مسلماً حتى أرسل أحد رجاله [1] إلى القصر ليكشف له حقيقة خبر هانيء . فلمّا رجع وأخبره بأنه ضُرب وحُبس أمره فنادى في أصحابه وقد ملأ بهم الدّورحوله ، وكانوا فيها نحو أربعة آلاف رجل : " يامنصور أمِتْ" فنادى . وتنادى أهلُ الكوفة فاجتمعوا عليه . فعقد لعُبيد الله بن عمرو الكندي على رُبع كندة وربيعة ، وقال له : "**سِرْ أمامي في الخيل**" . ثم عقد لمسلم بن عوسجة الأسدي على رُبع مَذحج وأسد ، وقال له :" **انزل في الرجال ، فأنت عليهم** " . وعقد لأبي ثُمامة الصائدي الهمْداني على رُبع تميم وهمْدان . وعقد لعباس بن جَعْدة الجدلي على رُبع المدينة ، أي أخلاط الناس من أهلها . فلمّا أقبلوا نحو القصر تحرّز فيه ابنُ زياد وغلّق الابواب [2]. ومن ذلك نعرف أن القوة القتاليّة ، التي كانت طوع أمر مسلم حتى الآن ، أكبر بكثيرمن التي كانت بالفعل بإمرة ابن زياد .

السؤالُ الكبير هنا ، وهو من الإشكاليّات الأساسيّة للبحث كما بيّنّا فيما كتبناه سابقاً تحت عنوان "توطئة " :

كيف تحوّل مزاج الكوفة سريعاً باتجاه فريق الدولة ، بانت أُولى مظاهره بقتل

---

١ ــ هو عبد الله بن خازم الكثيري ، أحد التوّابين فيما بعد ، قاتلَ وحملَ الرّاية في عين الوردة ، والظاهر أنه قُتل في المعركة . انظر أخباره لدى الطبري : ٥ / ٥٨٣و٦٠١.

٢ ــ الطبري : ٥ / ٣٦٨ ــ ٧٠ . والخبر عن أبي مُخنف ، بحق روايته بالواسطة عن شاهد العيان عبد الله بن خازم .

هانيء ثم مسلم ، وسط صمت الناس الذين استجابوا لنداء مسلم بتلك الحشود ، ثم تطوّر سريعاً نحو قتل الحسين (ع) بأيدي بعض مَن كانوا ضمنها ؟

ما يزيدُ السؤال حَرَجاً ، أن مُحرّك وحافز تلك الآلاف التي حشدها مسلم بسرعة ، لم يكن كلّه العصبيّة القبَليّة . بل إننا نلاحظ أن حشد المَذحجيين الذين تقدّموا إلى القصر ، يقودهم عمرو بن الحجّاج ، على أثر علمه بضرب هانيء وحبسه ، كانوا أوّلَ مَن خذلوا صاحبهم ، بأن انصرفوا بمُجرّد أن شهد لديهم شُريح القاضي زوراً أن هانيء بخير، دون أن ينفي أن النّيّة متجهةٌ إلى قتله [1] . وما من شكٍّ عندنا أن انصرافهم كان بأمرٍ من سيّدهم عمرو ، الذي وإن خرج مُحتجاً على ما أُنزل بأحد رؤساء قبيلته من إهانةٍ وضرْب وتهديدٍ بالقتل ، لكنّ خروجه كان بضغطٍ معنويّ من قبيلته ، وبالمقدار الذي يُرضيها مؤقتاً ، دون أن يصِل إلى مُستوى تحدّي ابن زياد . خصوصاً وأنه رأى بأم العين كيف ضُرب صاحبُه أسماء بن خارجه وحُبس ، لأنه احتجّ على الغدر بهانيء بعد أن جرى جلبه إلى مجلس ابن زياد بواسطتهم . فخاطبه بقوله : **" أرُسُلُ غدرٍ سائر اليوم . أمرتنا أن نأتيك بالرجل ، حتى إذا جئناك به هشمتَ وجهه ، وسيّلتَ دمه على لحيته ، وزعمتَ أنك تقتله ؟ ! "** .

أمّا غيرهم ، ممّن احتشدوا بإشارة مسلم ، فقد كانوا تشكيلاً عابراً للقبيلة ، مكوّناً من كندة وربيعة وأسد وهمْدان ومذحج وتميم فضلاً عن أخلاطٍ من غيرهم ، كما رأينا قبل قليل . أي أن كلّ الكوفة قد تمثّلت في حشدهم الكبير . الأمر الذي يجعلنا نطمع (نظريّاً طبعاً) بأن حوافز أسمى قد تولّدت لدى أهل المدينة المأزومة ، بتأثيرٍ من وضعها الثوريّ الآن ، تجعلها وتجعلهم أعصى على التأثيرات النّفعيّة الخالصة لرؤساء القبائل . لكنّ الانهيار السريع لحشودهم ، كما سنصفُه بعد قليل ، لَيدلّ على أن تلك الحوافز النبيلة العابرة للقبيلة كانت قشرةً رقيقةً مؤقّتة ، سرعان ما سقطت تاركةً الفعلَ كلّ الفعل للأشراف ومصالحهم بخدمة الدولة .

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٣٦٧ ــ ٦٨ .

(١٨) خارطة القُوى في الكوفة عشيّة كربلا

فلنتمعّن الآن في خارطة القُوى العاملة على أرض الكوفة في تلك اللحظات الانقلابيّة .

في القصر عُبيد الله بن زياد ومعه أشراف الكوفة [١]، خلا عمرو بن الحجّاج الزُبيدي المَذحجي وأسماء بن خارجة الفزاري ، ليس معه إلا ثلاثون رجلاً هم حرسه الخاصّ يرؤسهم الحُصين بن تميم التّميمي ، بالإضافة إلى أهل بيته وخدمه . وطفق غيرُهم من الأشراف يتسلّلون إلى القصر من بابٍ خلفيّ .

في مُحيط القصر مسلم ومعه أربعة آلاف ، يملأون المسجد والسوق ، وهم في حالةٍ من الهياج والغضب **"وهم يُكبّرون وأمرهم شديد "** بحيث ضاق بعُبيد الله ذَرْعُه . فأمر كثير بن شهاب الحارثي بأن يخرج فيمَن أطاعه من مَذحج ، فيسير في الكوفة فيمَن أطاعه من مَذحج ، ويُخذّل الناس عن ابن عقيل، ويُخوّفهم الحرب ، ويُحذّرهم عقوبةَ السلطان. وأمر محمد بن الأشعث أن يخرج فيمَن أطاعه من كندة ، فيرفع رايةَ أمان لِمَن جاءه من الناس . وقال مثلَ ذلك للقعقاع بن شور الذُّهلي ، وشبث بن ربعي التّميمي ، وحجّار بن أبجر العجلي ، وشَمِر بن ذي الجوشن العامري . وأمر غيرهم من الأشراف بأن " **أشرفوا على الناس** [من أسوار القصر] **فمنّوا أهلَ الطاعة الزّيادة** [في العطاء] **والكرامة ، وخوّفوا أهلَ المعصية الحرمان والعقوبة . وأعلموهم فُصُولَ** [خُروج] **الجنود من الشام إليهم** " [٢]. وكان أوّل مَن امتثل أمرَه كثير بن شهاب ، وكان من قوله :

---

١ ــ يُذكر منهم باسمه: محمد بن الأشعث الكندي ، القعقاع بن شور الذُّهلي ، شبث بن ربعي التميمي ، حجّار بن أبجر العجلي ، شَمِر بن ذي الجوشن العامري ، كثير بن شهاب الحارثي ، عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرمي،عمارة بن عقبة بن أبي معيط ، العُريان بن هيثم النخعي، أسماء بن خارجة الفزاري، يزيد بن الحارث ، عزرة بن قيس، عمرو بن الحجّاج الزُبيدي، محمد بن عُمير ،عزرة بن قيس الاحمسي.

٢ ــ الطبري : ٥ / ٣٦٩ . والرواية لأبي مُخنف بواسطة عن عباس بن جعدة الجدلي . وهذا لم يروِ عنه إلا هذه الرواية . والظاهر أنه كان شاهد مارواه .

"هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت " . ثم توالى الأشرافُ الكلامَ من بعده بمثل ما قال[1].

كان لذلك الكلام ، وقد أتى على لسان ذلك العدد الجمّ من الأشراف ، كمثل فعلِ ماءٍ على نار ، فأطفأها وذهب باضطرامها وحرارتها ووهجها . ولقد لخّص لنا شاهدُ العيان الشهيدُ عبد الله بنُ خازم ذلك ، بما رواه عنه بالواسطة ابنُ مُخنف ، فقال : **" فلمّا سمع مقالتَهم الناسُ أخذوا ينصرفون"**[2] . ومن ذلك يتبيّنُ لنا بما لايقبلُ الرّيب ، أنّ الفعلَ كلَّ الفعل في إجهاض تنظيم أهل الكوفة وراء ثورة الإمام الحسين (ع) المُرتقبَة كان للأشراف ، وراءَهم طبعاً ابنُ زياد ، تحيطُ به هالة سُلطة الخلافة في دمشق . ومع ذلك فإنّه لولاهم ، ولولا تهويلهم على الناس بالإفقار والعقوبة ، ولولا بالخصوص مُخادعتهم إياهم بالزعم أن عسكر الشام في الطريق إليهم ، لَمَا كان بوِسع عُبيد الله أكبرَ من أن ينجو بنفسه من تلك الجُموع الكبيرة الثائرة ، هذا إن استطاع .

(١٩) تداعي ما بناه مُسلم في الكوفة

هكذا تداعى ما بناه مسلم في ثلاثة أشهر تقريباً من العمل (٥ شوال ــ أواخر ذي الحجة) في بُرهة يومٍ واحد . الأمرُ الذي فاجأ حتى الأشرافَ المُتحلّقين حول ابن زياد وغيرهم الذين معه في قصر الإمارة . فطفقوا ، وقد لاحظوا سكون الأصوات في المسجد المجاور ، يُشرفون من مكمنهم فلا يرون أحداً . فبدا لهم أن الناس قد كمنوا لهم في ظلال الجدران ، إغراءً لهم بالخروج فيُصيبوا منهم . فجعلوا يُخفضون شُعل النار والقناديل بالحبال حتى تنتهي إلى الأرض **" حتى فعلوا ذلك بالظُّلّة التي فيها المنبر "** . فلمّا لم يروا أحداً ، اطمأنّوا إلى أنّه لم يبقَ في المسجد أحد[3].

---

١ ــ نفسه:٥/ ٣٧٠ ــ ٧١. والرواية كسابقتها لأبي مُخنف . لكنه هنا عن سليمان بن أبي راشد عن عبد الله بن خازم . وقد عرّفنا بابن خازم قبل قليل . وإنما أشرنا إلى روايته لأنها تؤيّد الروايةَ السابقة .

٢ ــ الطبري : ٥ / ٣٧٠ ــ ٧١ .

٣ــ نفسه : ٥ / ٣٧٢ .

النقطةُ الهزْليّة ــ المأساويّة في هذا السّياق ، أنه ما أن خرج ابنُ زياد والذين معه إلى المسجد بعدما اطمأنوا إلى خروج الناس منه ، وأمر فنُودي بالناس ، خصوصاً الشرطة والعُرفاء والمناكب (الذين يتولّون توزيع العطاءات) والمُقاتلة ، تحت طائلة براءة الذّمة منهم ، أن يحضروا إلى المسجد " **لم يكُن إلا ساعة حتى امتلأ المسجد بالناس** "[١] . ولكنهم الآن باتوا من فريق الدولة . بعد أن كانوا قُبيل سويعات من الفريق الثائر عليها المُطالب بالانقلاب عليها .

أين هذه الكوفة ، التي تبدو لنا الآن هشّةً مرعوبةً مُدجّنَةً سهلةَ الانقياد حتى ضدَّ ضميرِها ووُجدانِها ، من تلك التي اختارها أميرُ المؤمنين (ع) قبل زُهاء عشرين سنة ، لتكون قاعدةً له ، وخزّاناً للرجال الذين قاتلوا معه فأحسنوا البلاء ؟

نحن لانُقلّلُ أبداً من دور الأشراف الهامّ والأساسي في تأطير عشائرهم بنطاق أصواتهم ومواقفهم ومصالحهم هم ، وفي ترهيب أهل الكوفة من مغبّة الالتحاق بمسلم وعبرَه بالإمام القادم . ومن أنّهم كانوا يداً واحدةً مع ابن زياد ضدّ الحسين(ع) إلى النهاية التّعيسة في كربلا حرصاً على مصالحهم ونفوذهم في ظلّ الدولة الأُمويّة .

ومع ذلك نقول ، إن قوّةَ الأشراف نشأت من ضعف الكوفة ووهنها ، جرّاء مُعاناتها الرهيبة المُتمادية طوال العقدَين الماضيَين على يد معاوية ورجلِه الدّمويّ زياد بن أبيه ، بحيث أنّ عُبيد الله خاطب هانئاً ، بعد أن أُدخل عليه ، يمنُّ عليه بأن أباه زياد لم يقتل أبا هانيء في مَن قتلهم من رجال الشيعة ، فقال : " **ياهانيء ، أما تعلم أن أبي قدم هذه البلد فلم يترك أحداً من هذه الشيعة إلا قتله غير أبيك !** "[٢] . ومن اختيار الوُلاة عليها من بين أعدى أعداء الشيعة (المغيرة بن شُعبة ثم زياد بن أبيه) ، واغتيال الحسن (ع) بالسُّمّ ، وقتل الصحابيّ حجر بن عديّ ورفاقه صبراً . إلى غير ذلك من صنوف الاضطهاد اليومي .

---

١ ــ نفسه .

١ ــ أيضاً : ٥ / ٣٦١ .

الاضطهاد المُزمن والمتمادي ترك الكوفة مُستَلَبَةً مُدجّنَةً ، بحيث أنّ عشرين رجلاً أو يزيدون قليلاً ممّن يُسمّون الأشراف ، بات بوسعهم الآن أن يلووا عنانها إلى الجهة التي تُعارض ولاءها وضميرها ووُجدانها ، حتى بعد أن أعلنته جهاراً بالمُبايعة الكثيفة لمسلم .

باقي القصة معروف ، وما هو إلا قتل هانيء ثم مسلم، ومن ثَمّ جرّهما بأرجلهما في أسواق الكوفة وسككها . وهو إجراءٌ غريبٌ على السلوك العربي إجمالاً ، عرفه العراق بالخصوص منذ الكلدانيين والأشوريين . وقد رأيناه في أيامنا يُنزلُ برجال الدولة الهاشميّة ، إثر ثورة ١٤تموز ١٩٥٨ . وقد تآزر على رواية انهيار الثورة ومقتلهما لأبي مُخنف بالتفصيل أربعةٌ من شهود العيان ، هم : المُجالد بن سعيد الهمْداني [١] ، وجعفر بن حُذيفة الطائي [٢] ، وقُدامة بن سعيد بن زائدة الثقفي [٣] ، وسعيد بن مُدرك بن عُمارة [٤] .

ولعلّ ممّا يستحقُّ التنويه به هنا ، أن روايات أبي مُخنف عن أُولئك الأربعة ، هي من رواياته النادرة عن الرّاوي الأوّل شاهد العيان مُباشرةً ، أي دون توسُّط أحدٍ بينه وبين شاهد العيان . ومن الواضح أن ذلك يجعل روايته عنهم أقوى ، كما يُفسّر لنا غنى روايات أولئك الأربعة بالتفاصيل ، لأنّ ماتراه العين وتتفاعل معه النفس يرسخ في

---

١ ــ نفسه : ٥ / ٣٧١ ــ٧٣ . وهو من كبار رُواة الطبري . انظر ثبت رواياته عنه في فهرست أعلام الكتاب مادة " المُجالد بن سعيد الهمْداني " . وهو من حاشد ، بطنٌ من همدان قدّم ١٨٠شهيداً في صفين . ويُذكر له أنه سعى بين الحسين (ع) وعمر بن سعد في كربلا قبل انفجار القتال إلى حلٍّ سياسيٍّ للأزمة ، سعياً قبِله ابنُ زياد بدواً . ولكن مُعارضة شمِر بن ذي الجوشن أسقطت هذا التوجّه (الطبري:٥/ ٤١٤) .

٢ ــ أيضاً / ٣٧٥ . وهو من رُواة الطبري أيضاً . ثبت رواياته عنه في فهرست أعلام الكتاب ، مادة "جعفر بن حُذيفة الطائي " .

٣ ــ أيضاً / ٣٧٣ ــ ٧٥ . لم يروِ عنه ابنُ مُخنف إلا هذه الواقعة .

٤ ــ أيضا / ٣٧٦ . وهو كسابقه لم يروِ عنه أبو مُخنف إلا هذه الواقعة .

الذاكرة ، بأقوى وأوسع ممّا تسمعه الأُذُن . كما نفهم منه أنّ أُولئك الرُّواة الأربعة كانوا يوم شهدوا مارووه في مُقتبل الشباب ، بحيث أدركهم أبو مُخنف . وأنّه قد تتبّعهم من بعد واحداً واحداً ، ليسمع منهم ويُسجّل عنهم ما كانوا قد شهدوه .

ونحن إنّما اكتفينا من رواياتهم بهذه الإشارة إلى مقتل مسلم ، دون الخوض في تفصيلات قصّة شهادته النّبيلة بالخصوص ، لأن قصدنا من هذا البحث إنّما هو كربلا، وضمناً ما هيّأ ومهّد لها ، ومنها طبعاً انهيار ثورة الكوفة المُفاجئة . أمّا قصّة مسلم وشهادته بنفسها ، فإنها تستحقُّ عملاً مستقلًّا . خصوصاً وأننا نراها حافلةً بالإشكاليّات على مُستوى البحث والباحث .

(٢٠) ختام الفصل ، مناقشة رواية

نُشير في ختام هذا الفصل ، إلى أن المصادر تقول أنه ما أن اطمأنّ ابنُ زياد إلى أن الكوفة قد باتت طوع أمره ، حتى أمر كاتبَه عمرو بن نافع بأن يكتب رسالةً إلى يزيد كان ممّا قاله فيها :

" **أُخبرُ أميرَ المؤمنين أكرمه الله ، أنّ مسلمَ بن عقيل لجأ إلى دار هانيء بن عروة المُرادي . وأنّي جعلتُ عليهما العيون ، ودسستُ إليهما الرجال ، وكدّتُهما حتى استخرجتُهما ، وأمكنَ اللهُ منهما . فقدّمتُهما فضربتُ أعناقَهما . وقد بعثتُ إليك برءوسهما مع هانيء بن أبي حيّةَ الهمداني والزُبير بن الأروح التميمي** " . . . الخ .

وفي الجواب كتب إليه يزيد يُنوّه بعمله ، ويُعلمه باتجاه الحسين (ع) إلى العراق ، ويأمره بان " **ضعْ المناظر والمسالح ، واحترِسْ على الظّنّ ، وخُذْ على التُّهمة . غير أن لاتقتل إلا مَن قاتلَك** " [١] .

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٣٨٠ ــ ٨١ . والرواية لأبي مخنف عن أبي جناب يحيى بن أبي حيّة الكلبي . وهذه الرواية وحيدةٌ لأبي مُخنف عن هذا الرّاوي (انظر فهرست أعلام الكتاب ، مادة " يحيى بن أبي حيّة الكلبي ") . والرواية نفسها باختلافٍ يسير في *أنساب* :٢/ ٣٤٢ و ابن الأثير: ٢ / ٥٤٥ و *الاخبار الطّوال* / ٢٤٢ و *الفتوح* :٥/ ٦٣ و *مقتل الحسين* للخوارزمي : ١ / ٢١٥ و *مناقب آل أبي طالب* : ٤ / ٩٤ و *الملهوف* / ١٢٤ .

هذه الرواية موضع ريبٍ كبيرٍ عندنا ، من حيث أنها ترهنُ وضعَ المناظر والمسالح ، في الطريق الذي سيسلكه الإمام في طريقه إلى الكوفة ، لأمرٍ مُباشرٍ من يزيد . وهو أمرٌ غير معقول ، لأن تلك المناظر والمسالح سيجدُها الإمامُ جاهزةً قُبيل وصوله إلى نطاق الكوفة ، كما عرفنا ممّا سبق ، كما سنذكره في الفصل التالي ، أي بعد أيام معدودات من شهادة مسلم . في حين أن تبادُل الرسالتيَن بين ابن زياد ويزيد ذهاباً وإياباً يقتضي زمناً أطول بكثير . الأمر الذي يدلُّ على أنّ وضعَها قد تمّ بعد شهادة مسلم بمدّة غير قصيرة .

ما من ريبٍ عندنا في أن هذه الرواية موضوعة . أمّا الغاية من وضعها ، فنظنّ أنها تندرج في محاولات ابن زياد وضعَ وِزر كلّ ما يعمله من سيّئات في عنق يزيد ، حيثما تسنّى له . حُسباناً لنفسه لاحتمال تطوّر الأُمور في اتجاهٍ مُخالف . وقد رأينا مثل هذا الحُسبان فيما سبق .

لقد كان ذلك الدّاهية في وضعٍ دقيق . فهو في الوقت الذي كان يعمل فيه كلَّ مافي وُسعِه على إرضاء يزيد ، وبالخصوص على عدم منْح أشراف الكوفة فرصةَ المُزاودَة عليه لدى سيّده في دمشق . كان أيضاً يحسُبُ حسابَ الخروج سالماً ، في حال حدوث أيّ تحوُّلٍ غير منظور .

يؤيّد ذلك أن أصل الرواية في كلّ المصادر هو عن راوٍ وحيدٍ ، هو أبو جناب يحيى بن أبي حيّة الكلبي . وهوشخصٌ لا نعرفُ عنه شيئاً . وقد قلنا في الهامش السّابق أنّه لم يروِ إلا هذه الرواية . الأمرُ الذي يبعثُ على الرّيب القويّ في أنه شخصٌ حقيقيٌّ من رأس . فضلاً عن أنه فيما رواه يورد النصّ الحرفي للرسالتيَن المُتبادلتيَن بين ابن زياد ويزيد . مع أن هذا النّمط من الرسائل الرسميّة ليس الاطّلاعُ عليه برسم العموم ، إلا إذا حدثَ أن أُعلن من قِبَلِ المُرسِل أو المُرسَل إليه ، لغرضٍ سياسيٍّ أو غيره . الأمرُ الذي يطرحُ سؤالاً ، فهل اتُّخذ اسمُه لتغطية غرض ابن زياد من نشرِ الرواية كما قدّرنا ؟ ولكنّ هذه النتيجة تزيد المسألةَ تعقيداً ، إذ تطرحُ سؤالاً على رواية ابن مُخنف عنه مباشرةً ، أي أنه ، إن صحّ ذلك ، قد لقيه وسمع منه . أسئلةٌ وتساؤلات لا نملك عنها جواباً .

ومع ذلك فإنّ هذه المُلابسات ، بما فيها الاطلاع المَزعوم ضمناً لهذا الشخص المجهول وحده ، دون غيره من بقيّة الرُّواة الكثيرين ، على نصيّ الرسالتيَن ، يدفع الناقد إلى القطع بوضع الرواية . الأمرُ الذي يبدو أنّ ابنَ مُخنف لم يلتفت إليه ، إذ أخذ عنه هذه الرواية وأدرجها في كتابه ، لينقلها عنه الطبري وغيرُه .

على أن هذه المراجعة النقديّة لا تنفي أصلَ الإجراء العسكريّ الاحترازيّ لأجهزة الدولة في قِبال الإمام ، ابتغاء منع وصوله إلى الكوفة ، أيّاً يكُن الآمرُ به . وهذا واضح .

الفصـل الخامس

الحسين (ع) في الطريق إلى كربلا

(توطئـة)

ها نحن قد قطعنا حتى الآن مسافةً جيّدة في حلِّ جملةٍ من الإشكاليات التي طرحها تطوُّر الأحداث على الباحث . أكثرُها ممّا طرحناه في سياق الكلام . ولكنّ أكثرها أهميّةً ذلك الذي طرحناه فيما وطّأنا به للبحث ، ألا وهو كيف (استطاع) عُبيدُ الله بن زياد تحويل مزاج الكوفة من مدينةٍ ثائرةٍ على الدولة ، عاملةً في اتجاه الانقلاب عليها ، إلى حدِّ إنشاء سُلطةٍ جديدة ، إلى خانعةٍ مُستسلمةٍ لها . وقد رأينا أن دور الرجل في هذا (الإنجاز) ثانويٌّ جدّاً ، وأن الفعل كلَّ الفعل كان للأشراف حصراً . بل أن هؤلاء كانوا يفرضون عليه ما فيه مصلحتهم كما يفهمونها ، فيخضع لهم . والمثالُ الأبرزُ على ذلك ، أنه عندما توصّل المُجالد بن سعيد الهمّداني وعمر بن سعد إلى حلٍّ سياسيٍّ للأزمة ، قَبِلَه ابنُ زياد ، كما سنعرفُ فيما سيأتي . ولكنّ مُعارضةَ الشّمر بن ذي الجوشن أسقطت الأُطروحة . ولا شكّ في أنّ ذلك يرجع إلى خشية ابن زياد سعيَ الأشراف ، ومنهم الشّمر ، لدى يزيد بتهاونه إزاء مخاطر الاستبقاء على الإمام . كما فعلوا من قبل مع الوالي السّابق النُّعمان بن بشير ، وأودى إلى عزله .

مهما يكُن ، فإنّنا بهذا الفصل سندخلُ إلى صميم العمل والفعل الحسيني المُباشر . أمّا في كلّ ماسبق فقد كنّا معه أيضاً ، ولكن من خلال أمره وتخطيطه الموكول عملانيّاً إلى أنصاره وأعوانه : مسلم بن عقيل ، وهانيء بن عروة المُرادي المَذحجي ، ومسلم بن عوسجة الأسدي ، وأبي ثُمامة الصّائدي الهمْداني ، وعُمارة بن جُعدة الصّائدي الهمْداني أيضاً ، وعُمارة بن عُبيد السّلولي ، وربما يُمكن أن نضمَّ إليهم شريك بن الأعور الحارثي ، لِما له من تاريخٍ مُشرّف مع أمير المؤمنين (ع) ، ثم لِما له من عملٍ وتخطيطٍ لاغتيال ابن زياد كما عرفنا . ونُضيفُ إليهم مَن لم تذكرهم المصادر بأسمائهم ،

وإنّما بوصفهم "خواصّ الشيعة " ، لأن أعمالهم كانت تتمُّ تحت ستارٍ مُحكَمٍ من السِّرّيّة . وكلُّ أولئك قد وقفنا عليهم وعلى ما بان لنا منهم ومن أعمالهم في الفصل السّابق .

المدخلُ الجديد يطرحُ أسئلةً جديدة . أوّلها وأكثرها أهميّةً : لماذا خرج الإمامُ من مكّة مُتجهاً إلى الكوفة ، وماذا كان يروم ؟ لماذا حصل خروجه في حينه بالذات ؟ ماذا عن الظّرف والمواقف التي أطلقها خروجُه ؟ مَن هم بالتحديد أُولئك الذين اصطحبهم في الطريق ؟

لكنّ السؤالَ الأوّل على أهميّته ، ممنوعٌ على الباحث ، لأنه سؤالٌ عن النوايا . لذلك فإنّنا لن نطرحه تحت العنوان المُناسب ، بل سنترك لِما ينكشفُ لنا من خلال البحث أن يُقدّم لنا جواباً ما ، وإن على نحو التخمين المقبول . وعليه فإننا سنبدأ بمعالجة السؤال الذي يدور على توقيت الخروج . وهو وإن يكُن ذا علاقةٍ بالنوايا أيضاً ، لكنّ المُلابسات المُحيطة به ، كما عكستها المصادر ، تسمح للباحث بأن يقفَ على بعض المؤثّرات الموضوعيّة التي كانت وراء قرار الإمام .

(١) في تاريخ خروج الإمام

تتفقُ المصادرُ كافّةً على أنّ خروجَ الإمام من مكة مُتجهاً إلى الكوفة قد تمّ في العشر الأوائل من شهر ذي الحجّة . ثم أنّها تختلفُ في التاريخ الدقيق . فمنها ما يقولُ أنّه خرج في اليوم الثالث من الشهر نفسه [١]، ومنها ما يقول أنّه في اليوم السابع [٢]، أو الثامن [٣]، أو التاسع [٤] ، أو العاشر [٥]. ومثلُ هذا الاختلاف ، في التأريخات الدقيقة ، أمرٌ مألوفٌ لِمَن

---

١ ـ *الملهوف* / ١٢٤ .

٢ ـ الصّدوق : *كامل الزيارات* ،ط. قم ١٤١٧هـ/ ١٥٢ . قال : " **إنّ الحسين خرج من مكة قبل التّروية بيوم** " . وهو برواية أبي الجارود عن الإمام الباقر (ع) .

٣ ـ *تهذيب الاحكام* : ٥/ ٤٣٦ و*الكافي*:٤/ ٥٣٥. وهي عن إبراهيم بن عمر اليماني عن الصادق (ع).

٤ ـ *مروج الذهب* : ٣/ ٧٠ و*مقتل الحسين* للخوارزمي : ١ / ٢٢٠ .

٥ ـ *تاريخ الإسلام* للذهبي : ٥ / ٩ .

مارسَ هذا القبيل من الروايات التأريخيّة في الشؤون الدقيقة .

نحن نميل إلى الأخذ بالرواية التي تؤرّخ لخروج الإمام قبل يوم التروية في ٨ ذي الحجة، وهي أشهر الروايات وأكثرها قبولاً ، وبالتحديد في ٣ ذي الحجّة .

مُستندنا في ذلك روايتان ، بالجمع بينهما وصلنا إلى ما ذهبنا إليه .

أُولاهما : الرّاوي الكبير هشام بن السّائب الكلبي ، عن عوانة بن الحكم الكلبي ، وهو الآخر من كبار رُواة الطبري ، عن لَبَطة بن الفرزدق ، عن أبيه الشاعر المعروف ، قال :

"حججتُ بأُمّي . فأنا أسوقُ بعيرها حين دخلتُ الحرَم في أيام الحج ، وذلك في سنة ستين ، إذ لقيتُ الحسين بن علي خارجاً من مكة ، معه أسيافه وأتراسه . . الخ[١] . "

ثانيتهما : أبو مخنف ، عن أبي جناب يحيى الكلبي ، وهو من رُواة الطبري ، وقد عرّفنا به فيما سبق ، عن عديّ بن حرملة الأسدي ، عن رجلين من بني أسد ، قالا :

"أقبلنا حتى انتهينا إلى الصِّفاح ، فلقينا الفرزدق بن غالب الشاعر . فواقف حسيناً فقال له . . . الخ [١] . "

بالجمع بين الروايتيَن نصِلُ إلى أنّ ما قالته الأُولى " **حين دخلتُ الحرم** " ، عنى به (الصِّفاح) . وهو " **موضعٌ بين حُنين وأنصاب الحرَم ، على يَسْرة الدّاخل إلى مكة من مشاش**[٢] " أي أنّه قبل العلامات (الانصاب) الموضوعة لبيان حدود الحرَم . قبله من جهة مكة (التّنعيم) ، وهو "**وادٍ بمكة أوّل ما يخرج السّائر من حدود الحرَم على طريق المدينة ، يبعد عن مكة مسافة فرسخين** [٣]" أي اثنى عشر كيلو متراً . وأي أن الإمام كان قد خرج عن حدود الحرَم بمسافةٍ غير قصيرة . وأن الفرزدق لم يكُن قد دخله بعد ،

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٣٨٦ . وقد عرّفنا بهشام فيما سبق . وبخصوص عوانة بن الحكم ، انظر ثبت روايات الطبري عنه في فهرست أعلام الكتاب ، مادة " عوانة بن الحكم " .

٢ ــ معجم البلدان : مادة (الصِّفاح) .

٣ ــ نفسه : مادة (التنعيم) .

وبينه وبين الحَرَم مسافةٌ غير قصيرةٍ أيضاً . وعلى كلّ حال فإن الشاعر نصّص ، في بيتٍ له معروفٍ ، على أن لقاءه بالإمام قد تمّ في (الصِّفاح) ، حيث قال :

لقيتُ الحسين بأرض الصّفاح　　　　عليه اليلامقُ والدُّرَّقُ

فائدةُ هذا التّدقيق أن تاريخ لقاء الفرزدق ، الذي كان يدخل مكّة حاجّاً بأُمّه كما قال ، لا يُعقَل أن يكون قد تمّ بينما كان الحاجُّ يروحون إلى منى يوم التّروية في ٨ ذي الحجّة ، أو حتى قبل ذلك بيوم. لأن ذلك يعني أنّه لن يُدرك الحجّ بعد أداء مناسك عُمرة التّمتُّع ، وبينه وبين مكة مسافةٌ طويلةٌ لن يقطعها بأقلّ من يومين ، مهما يجِدّ . بل إنّنا رأيناه يستوقف الإمام ، ويتبادل معه الحديث ، ولم يُفارقه إلا بعد أن **"حرّك الحسين راحلته فقال السلام عليك**[1]**"** . كما لاحظ راويا الواقعة .

إذن ، فالتاريخ المُتعيّن لخروج الإمام من مكة هو ٣ ذي الحجّة ليس غير. وعلى كلّ حال ، فالأمر هيّن . وما دعانا إلى التدقيق بشأنه إلا اختلافُ الروايات ، بالإضافة إلى ما في التدقيق والتحقيق من حلاوةٍ ، يعرفها جيّداً أهلُ البحث والنّظر[2] .

نُشير أيضاً إلى أن خروج الإمام في أيام الحجّ ، أيّاً يكن تاريخه من بين تلك التواريخ المَرويّة ، قد أثار بين الفقهاء بحثاً فقهيّاً يدور على تسويغ الأمر من وُجهة نظرٍ فقهيّة . فكيف خرج مع العلم بأنّ المُحرِم بإحرام الحج إنّما يخرجُ من إحرامه بالتّضحية . تارةً بالقول أنّه كان قد أحرم للحجّ ، فاعتمر عُمرة تمتُّع . ثم غيّر حجّه إلى العُمرة ، وطاف بالبيت وسعى بين الصّفا والمروة وقصّ من شعره . وبذلك أحلّ من إحرامه وجاز له الخروج[3] . وأُخرى بالقول أنه كان قد اعتمر بعُمرةً مُفردّةً . فلمّا طاف بالبيت وسعى وقصّ أحلّ من إحرامه . أي أنه حين خرج من مكة لم يكُن مُحرماً ، لأنه لم يكُن

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٣٨٦ . والشعر في معجم *البلدان* مادة " الصفاح " .

٢ ــ يُروى أن الشهيد الثاني رضوان الله عليه كان يقول ، إذ يصِلُ إلى نتيجةٍ واضحةٍ لمُشكلٍ يعالجه : **"أين الملوك وأبناء الملوك عن هذه اللذّة ".**

٣ــ *الإرشاد* : ٢ / ٦٧ .

يريد الحجّ **"ولا بأس بالعُمرة في ذي الحجّة لَمَن لايُريد الحج"** [1]. يؤيّد ذلك أنّ أصلَ الإشكال لم يُطرَح في حينه ، وإنّما طرحه بعضُ الفقهاء بعدُ بزمانٍ طويل . ولولا أنّه كان واضحاً لدى الكثيرين الذين ذاكروه بشأن خروجه ، كما بيّنه الإمامُ الصادق (ع) ، وعامتهم ممّن مانعوا بخروجه ، لقالوه واحتجّوا به بنحوٍ أو بغيره . وهذا واضح.

(٢) لِـمَ سارع إلى الخروج

ومع ذلك ، فإن تسويغ الخروج لاينفي الحاجة إلى طرح السؤال عن السبب الذي ألجأه إلى المُسارعة بالخروج بينما الناس يدخلون .

فلماذا ، على كلّ حال ، خرج في ذلك الحين بالذّات ؟

والحقيقةُ أن الإمام أجاب على السؤال غير مرّةٍ بعباراتٍ مختلفة .

من ذلك أنه قال لأخيه محمد بن الحنفيّة ، جواباً على تذكيره إياه بغدر أهل الكوفة بأبيه وأخيه ، فقال : **" قد خفتُ أن يغتالني يزيد بن معاوية "** [2] .

أجاب على قول الفرزدق له : **" بأبي أنت . لو أقمتَ حتى يصدر الناس ، لرجوتُ أن يتقصّف** [يزدحم] **أهلُ الموسم معك "** ، فقال : **" لم آمنهم يا أبا فراس "** [3] . وفي روايةٍ أُخرى أنه أجابه بقوله : **" لو لم أعجل لأُخذت "** [4] .

أجاب على قول ابن الزُّبير له: **"أقمْ في هذا المسجد أجمعُ لك الناس"**فقال : **"وأيمُ الله لو كنتُ في جُحر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني "** [5] .

---

١ ــ العبارةُ مُقتبسَةٌ من حديث عن الإمام الصادق (ع) . رواه في *تهذيب الأحكام* : ١٢ / ٣٤٩ . استشهد فيه الإمام بعمل جدّه الحسين (ع) .

٢ ــ *الملهوف* / ١٢٧ *وبحار الأنوار* : ٤٤ / ٣٦٤ .

٣ ــ *طبقات* ابن سعد : ١ / ٤٥٥ .

٤ ــ الطبري : ٥ / ٣٨٦ و *الإرشاد* : ٢ / ٦٧ *وإعلام الورى* : ١ / ٤٤٥ .

٥ ــ الطبري : ٥ / ٣٨٥ . والرواية عن أبي مُخنف ، عن أبي سعيد عقيصي (وهو شخصٌ غير معروف. والظاهر أنّه من عُرُض الناس . لم يروِ عنه غير هذه) عن بعض أصحابه .

فهذه رواياتٌ قيلت في مناسباتٍ مُختلفة ، خوطب بها أشخاصٌ من مختلف الأهواء ، تتآزرُ على مقولةٍ واحدة ، هي أن الإمام إنّما خرج في ذلك الحين بعينه لأنه كان تحت تهديدٍ جِدّيٍّ لحياته ، إن هو بقي في مكة . عبّر عنه بكلماتٍ مختلفة :"**يغتالني** " ، "**لأُخذت**" ، "**لاستخرجوني**". أصرحُها الأُولى . أمّا قوله " **لأُخذت** " فهو يعني عمليّاً أمراً غير مُحدّد ، فيه معنى الاستيلاء والانتزاع ، الذي يمكن أن يحصل بأشكالٍ كثيرة : بالاغتيال ، بالأسر ، بالجرح جُرحاً مُقعِداً ، إلى ما هنالك . والإمام عبّر بهذه الكلمة بما يمكن أن ينطبق على أحد تلك المعاني .

من هنا يمكن للمتأمّل أن يستنتج أنه كان يعلمُ إجمالاً بأن هناك شيءٌ يُخطّطُ له سرّاً لدى أجهزة الدولة على أعلى مستوى . ومن هنا نسب مصدر الخطر على حياته إلى يزيد شخصيّاً " **قد خفتُ أن يغتالني يزيد بن معاوية** " . وعلمه هذا قد يكون عن معلومات أو عن تقدير مُستند إلى مُلاحظات متفرّقة ، تقود بمجموعها إلى حدْس .

مهما يكن ، فالظاهر أن تلك الأجهزة كانت تعملُ على وتُخطّط لعملٍ ما . مستفيدةً من الفوضى المُنظّمة ، التي تنشأ من حركة الأعداد الكبيرة من جَمْع الناس ، وهم يؤدّون مناسك حجّهم . حيث سيكون من العسير جدّاً إن لم يكُن من المستحيل ، توفير الحماية للإمام ، وهو يتحرّك ضمن تلك الجُموع الغفيرة . فتلجأ إلى اغتياله بوسيلةٍ ما لن يُعجزها تدبيرها . وبذلك تحلُّ الدولةُ مشكلتها بالإمام حلّاً شبه مجّانيّ . ثم سيكون من السهولة بمكانٍ عليها أنها ، في حال حصول الاغتيال ، أن تتنصّل من تبعة الجريمة . بل وقد تُنزِل أشدّ العقاب بمن ولي أو اتُّهم بتنفيذها . وبذلك تظهر الجريمة المُدبّرة جريمةَ اغتيالٍ عاديّة ، ارتكبها مَن ارتكبها . فقامت هي بوظيفتها الشرعيّة ، بأن أوقعت بـ (الجاني) العقاب المُناسب . وهكذا يُغلَقُ مشروع ثورةٍ أقلقت بال الدولة بأهون سبيل .

ونُذكّر هنا بوصف الفرزدق الإمامَ بأن "**عليه اليلامقُ والدُّرّقُ**" (الدرقة:درعٌ من جلد) . أي أنه حتى بعد خروجه من مكة ظلّ بلامة القتال . ما نفهم منه أنّه كان مُتحسّباً لمحاولة هجومٍ يُشنُّ عليه ، ابتغاء منعه من متابعة الطريق إلى مقصده .

هنا نُلاحظ أنه من بين الكثيرين الذين التقوا بالإمام ، فإنّ الشاعر هوالوحيد الذي لاحظ هذا التفصيل المُهمّ وسجّله في شعره . والحقيقة أن هذا ومثله هو ما يصنع الشعراء الكبار والشعر الباقي .

ثم أن الظاهر أيضاً أن ذلك التدبير كان من الأُمور المعروفة عند المُتابعين عن قُرب لِما يجري . ومن ذلك أن عبد الله بن عباس ذكرها صريحاً في رسالةٍ خطّها ليزيد . كان ممّا قاله فيها : " **وإن أنسَ ما الأشياء ، فلستُ أنسى اطّرادك للحسين بن علي من حرم الله ، ودسّكَ الرجالَ إليه تغتالُه** "[١] .

فهذا كلامٌ صريحٌ ، من رجلٍ مُطّلع ، رافق الأحداث في تتابعها السريع منذ البداية . خاطبَ به مَن هو أعرفُ منه بموضوع كلامه ، لأنه فاعله . ولو كان عنده أدنى شك بصحّته لمُا خاطب به مَن هو أدرى منه بالأمر .

فمن كلّ ما سردناه ، نكون على يقينٍ من أنّ الإمام ، إذ خرج من مكة ذلك الخروج ، فإنما لأمرٍ جلل وخطرٍ ماثل ، لم يترك له خياراً آخَر . إن هو تركه يمضي فإنّه قد يقضي على كل ما عمل وهيّأ له طوال الأشهر الأربعة وبضع أيام منذ أن غادر المدينة . بحيث لا يبقى منه للأجيال القادمة إلا ذكرُ جريمةٍ فظيعةٍ ارتكبها مجهول .

(٣) المَساعي لمنعه من الخروج

أطلق خروجُ الإمام من مكّة ، مُعلناً أن قصدَه الكوفة ، مجموعةً من المساعي والمواقف . الأمرُ الجامعُ بينها أنّها جميعها تحاول الحيلولة بينه وبين ما يروم . لكن مع اختلافٍ شديدٍ في الدّوافع والمقاصد ، واختلافٍ أقلّ في الأُسلوب والوسيلة .

فمنهم مَن هو مُشفقٌ عليه حقاً من مآل ما هو قادمٌ عليه . استناداً إلى حساباتٍ موضوعيّةٍ ، تأخذ بالاعتبار طبيعة المُلك خصوصاً حين يُنازعه مُنازع ، وميزان القُوى ، وماضي أهل الكوفة المعروف .

ومنهم مَن هو ، بالإضافة إلى ذلك الإشفاق أو بدونه ، مدفوعٌ من رجال

---

١ ــ تاريخ اليعقوبي ، ط. بيروت ، دار صادر ، لات. : ٢ / ٢٤٩ .

الدولة المحليّين ، ابتغاء تغليب حلٍّ سياسيٍّ لصالحها بقعود الإمام .

ومنهم لدافعٍ سياسيٍّ شخصيّ ، مَن يكتمُ الرغبةَ بأن يمضي الإمام لطِيّتِه ، ولكنّ اللياقةَ تفرض عليه أن يأخذ دورَ النّاصح المُشفق . والمثال الوحيد لهذا الأُنموذج عبد الله بن الزُبير .

وأخيراً منهم مَن حاول منعه بالقوّة النّاعمة كما نقول اليوم ، أو المدروسة كما قد يحسُنُ بنا أن نقول . وكلتاهما تعمل على أن تصِلُ إلى بُغيتها دون استفزاز الخصم ، استفزازاً قد يقود إلى تحريض ما هو كامنٌ أو مؤجّلٌ من طاقة الآخَر ، ما لامصلحة لخصمه فيه .

وليس من بُغيتنا سَبْرَ أقوال وأعمال كلٍّ من تلك النماذج ، بل الإشارة إليها بقدر ما يقتضيه الاطلاعُ على التيّارات العاملة في مكة . بالإضافة إلى الإضاءة على مكنونات الإمام وهو يتجه بكامل البصيرة إلى مصيرِه .

فمن أبرز الذين نصحوه بأن لايخرج ، تثبيتاً من أنفسهم : أمُّ سلمه ، وعبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن عباس ، والأخوان أبو بكر وعمر ابنا عبد الرحمان المخزومي، وأخوه عمر ، والفرزدق ، والصحابي أبو سعيد الخدري .

هذا ، بالإضافة إلى الموقف المُلتبس لمحمد بن الحنفيّة ، بين ازوراره عنه بشخصه وبأبنائه الكُثُر ، حتى بعد شهادته . وبين نصيحته له بأن يتنحّى عن الأمصار ، ويدعو إلى نفسه ، وينتظرَ ما يكون من أمر الناس[1] .

أمّا عبد الله بن عمر فقد قيل أنه نهاه تحت شعار" **أن يدخل في صالح ما دخل الناسُ فيه ، فإنّ الجماعة خير** " [2]. وهذا كلامٌ يعكس منطق الدولة .

وأمّا عبد الله بن الزُبير فقد كان موقفه مُلتبساً ، بين إغراء الإمام بالاتجاه إلى

---

١ ــ الإرشاد : ٢ / ٣٤ .

٢ ــ ابن سعد *الطبقات* ،ط. بيروت ،دار صار ،لات. : ١ / ٤٤٤وتهذيب الكمال:٦/ ٤١٦وتاريخ الإسلام للذهبي:٥/ ٧وتاريخ دمشق :١٤/ ٢٠٨والبداية والنهاية:٨/ ١٦٢وغيرها .

الكوفة " **لو كان لي بها مثل شيعتك ما عدلتُ بها** " وبين " **لو أقمتَ بالحجاز ثم أردتَ هذا الأمر هاهنا ما خولف عليك**". ولكنّ الإمام كان يعرف جيّداً حقيقة رغبة الرجل بأن يراه بعيداً عن الحجاز ، لعلمه بأن ليس له من الأمر شيءٌ معه، وأنه لن يخلو له إلا بخروجه منه [١] .

وكان الإمامُ يُجيبُ كلَّ ناصحٍ وناهٍ ومُقترِحٍ بما يقتضيه ظاهرُ كلامُه من حُسْن الخطاب ، حتى إن كان يعرفُ أنّ اللسان في جهة والقلب في غيرها . ولكنّه بيّن لجُلسائه أنه مُدركٌ لحقيقة مقاصد ابن الزُبير . كما أنّه كان غالباً لا يُخفي أنّ خياره الوحيد هو الكوفة .

في إطار رصد سلوك أرباب هذه التيارات، لا بُدّ لنا من الوقوف على عمل الدولة في سبيل الحيلولة بين الإمام وبين ما يروم .

فمن ذلك وأوّله ، ما صدر عن يزيد فيما قيل ، أنه ما أن علم بخروج الحسين (ع) من المدينة إلى مكة ، بما يعنيه ذلك . فكتب إلى ابن عباس رسالةً بأن "**يكفّه عن السعي في الفرقة** " . أرفقها بقصيدةٍ حافلةٍ بصنوف المُداهَنَة والمكر. ذكر فيها الحسين وأمه (ع) بكل خير ، وزعْم مودّةٍ سابقة مع الإمام ، ولقاءً به " **بفناء البيت** " [٢] ، يعني المسجد الحرام . و الخبر ضعيف . والقصيدة نراها مدسوسَةً لاعتباراتٍ نقديّة جمّة في لغتها ومضمونها ، لن نُضيّع الجُهد ببسطها . ونكتفي منه (الخبر) ومنها (القصيدة) بهذه الإشارة ، دون أن نُعوّل عليهما .

يبدو أن الجواب الحازم لابن عباس عن الرسالة ، وعدم اكتراث الإمام بها أو ترتيب أدنى أثرٍ عليها ، هو الذي دفع باتجاه تنظيم الاغتيال على ما بيّنّا قبل قليل .

والظاهرُ أنّ الذي ولي التحضيرَ والتخطيط للاغتيال ، هو الدّاهية عمرو بن

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٣٨٣ .

٢ ــ طبقات ابن سعد : ١ / ٤٤٨ . ونصٌّ مشابهٌ مع القصيدة في تاريخ دمشق :١٤/ ٢١٠ ، والبداية والنهاية : ٨ / ١٦٤ .

سعيد الأشدق . الذي عرفنا فيما سبق أنّه وُلّي على المدينة ، بعد عزل الوليد بن عُتبة ، لتهاونه في الأخذ بالحسين (ع) بأشدِّ ما يكون ، طبقاً لأمر يزيد في رسالته إليه . مع أنّ الحارث بن خالد المخزومي هو الوالي الفعلي لمكة . ولكننا نُلاحظُ أن المخزومي اختفى عن مسرح الأحداث تماماً على أثر توليته . إلى درجة أن الطبري لم يأتِ على ذكره إلا مرّةً فريدة بمناسبة توليته[1] . وأنّ الذّكر والفعل في مكة كان للأشدق . دون أن يقول أحدٌ أن المخزومي قد عُزل ، وأن الأشدق قد أُعطي الولاية .

التفسيرُ الوحيدُ لهذه المُفارقَة ، أنّ مُقتضيات تولية المخزومي قد حالت بعد قليلٍ من توليته . ذلك أنّه إنّما وُلّي للاستفادة من دعم قبيلته القويّة في المعركة السياسيّة المُتوقّعَة مع ابن الزُبير . امّا الآن ، بعد أن باتت الأولويّة لمنع الحسين من الاتجاه إلى الكوفة ، بل للعمل على القضاء على مشروعه باغتياله بعمليّةٍ سرّيّة مُدبّرة ، فقد بات المخزومي غير آهل للعمل ، لأنه لا يؤتمَن على سِرّيّة وتدبير عمليّةٍ دقيقةٍ وخطيرةٍ من حجم اغتيال ابن بنت رسول الله (ص) . ولكن أيضاً فإنّ عزلَه السريع دون مبرّر سيكون له أسوأ الأثر عند قبيلته . بل قد يكون استفزازاً لها ، في الأوان الذي كانت فيه الدولة في وضعٍ حَرِجٍ ، وبحاجةٍ ماسّةٍ لَمَن يقِفُ معها في محنتها . وعليه فقد حُلّت المعضلة بتحييد الوالي الرّسمي جانباً دون أن يُعلَنَ عزلُه . وجيء بشيخٍ من شيوخ أُميّة ودهاتها لتنظيم خطّة الاغتيال وتنفيذها .

لكنّ حدْسَ الإمام أو علمه أو تقديره لِما يُدبّر له في الخفاء، كما قلنا قبل قليل ، وإعلانه العزمَ على الخروج من مكة ، نقلَ المُعضلةَ إلى طورٍ جديد . ومن هنا سنرى الأشدقَ يخرج عن طوره ، فلجأ إلى عملٍ غير مسبوقٍ من الدولة باتجاه الإمام ، رواه المؤرخ بالنّصّ التالي :

"لمّا خرج الحسينُ من مكة ، اعترضه صاحبُ شرطة أميرِها عمرو بن سعيد ابن العاص ، في جماعةٍ من الجُند . فقال : الأميرُ يأمرك بالانصراف .

---

١ ــ انظر تصديق ذلك في فهرست أعلام الكتاب ، مادة " الحارث بن خالد المخزومي " .

فانصرفْ وإلا منعتُك"[1] .

بالتّمعُّن بالخبر نخرج بعدّة أُمور :

ــ الأوّل : ما أشرنا إليه قبل قليل ، أنّ ذلك الاعتراض ومثله عملٌ غير مسبوق من الدولة باتجاه الحسين (ع) . وقد لاحظنا فيما سبق أنّ ابن الزُبير ، عندما خرج من المدينة متجهاً إلى مكة ، لوحق بفرقة مُطارَدة كبيرة . ولكنهم تجاهلوا خروج الإمام من بعده ، ولم يتخذوا بحقّه أيَّ إجراء . وسياسة السكوت أو التّجاهُل بقيت معمولاً بها طيلة مدة إقامته في مكة ، حتى إعلانه الخروج منها ، على الرغم من نشاطه التحريضي غير المكتوم فيها .

ــ الثاني : يبدو أن الاعتراض قد حصل عندما كان الإمام في سبيله إلى الخروج من مكة ، ولم يكُن قد خرج منها بالفعل . بدليل أن الأشدق كان قريباً من موقع الاعتراض ، كي يتدخّل عند اللزوم ، كما سيحصل بالفعل .

ــ الثالث : أن أجهزة الدولة المحليّة كانت تعرف حدودَها ، أو أن الأوامر كانت قد وضعت برسمها حدوداً لحجم التدخُّل . لذلك فعندما امتنع الإمام ، ووصل الأمرُ إلى حدّ الاضطراب بالسّياط ، سارع الأشدق إلى أمر صاحب الشرطة بالانصراف ، منعاً لِما هو أسوأ .

في هذا النطاق من المساعي ابتغاء ثني الإمام عن الخروج ، على اختلاف مراميها ، نذكرُ محاولةً أخيرةً بذلها عبد الله بن جعفر ، بعد أن كان الإمامُ قد سار مسافةً غير طويلةٍ عن مكة . وذلك بأن كتب له رسالةً مع ولديه عون ومحمد ، اللذين سيستشهدان في كربلا ، قال فيها :

---

١ ــ الاخبار الطّوال / ٢٤٤ . ونصٌّ مشابهٌ لدى الطبري:٥/ ٣٨٥ . وقد آثرنا اقتباس الخبر بالصيغة التي أتت عند الدينوري ، لأنها بدت لنا أكثر غنىً وأصدقَ تصويراً . نعم ، أضاف الطبري على رواية الدينوري أن " الرُّسُل "، حسب تعبيره (وهم الذين ذكرهم الدينوري بـ " جماعة من الجُند ") كانوا بإمرة يحيى بن سعيد أخو الأشدق .

"أما بعد . فإنّي أسألك بالله لَمّا انصرفتَ حين تنظر في كتابي . فإنّي مُشفقٌ عليك من الوجه الذي توجَّهُ إليه ، أن يكون فيه هلاكك واستئصال أهل بيتك . إن هلكتَ اليوم طُفيء نورُ الأرض . فإنّك أعلمُ المهتدين ، ورجاء المؤمنين . فلا تعجل بالسّير فإنّي في أثر الكتاب . والسلام " .

الرسالة كانت فاتحةً لخطّةٍ كان ابنُ جعفر قد أحكمها في ذهنه ، ابتغاء ثني الإمام عن متابعة طريقه نحو العراق . فما أن سرّح ابنيه بكتابه ، حتى دخل على الأشدق ليعرض عليه أن **"اكتب للحسين كتاباً تجعلُ له فيه الأمانَ ، وتُمَنّيه فيه بالبرّ والصّلة ، وتوثّـقُ له في كتابك . وتسأله الرجوع، لعلّه يطمئنّ إلى ذلك فيرجع "** . وطبعاً رحّب الأشدق بهذه النعمة غير المُتوقّعَة ، فقال له : **"اكتب ما شئت وائتني به لأختمه"** . فكتب عبد الله ما شاء ، وأتى به الأشدق فختمه . بل وبعث معه أخاه وصاحب شرطته يحيى بالكتاب ، تطميناً لنفس الحسين (ع) ، وإشعاراً له بجِدّيّة العرْض . وطبعاً خاب المسعى[1] ، الذي وإن دلّ على قلقٍ حقيقيّ ومُخلص عند صاحبه ابن جعفر ، فضلاً عن تصريحه بالمقام العالي للإمام في نفسه ، فإنّه ينطوي على مقدارٍ كبيرٍ من السّذاجة ، على الأقلّ في بنائه على وعود وعهود الأشدق . كما ينطوي على نقصٍ فاحشٍ في استيعاب المُعطيات السياسيّة . من حيث أنّ المسعى يصبُّ في النهاية في عيبة الدولة ويحقّق غرضها . ابتداءً من مُعطى التبدُّل في توجهاتها السياسيّة التي أطاحت عمليّاً بولاية الوالي المخزومي ، ثم انتهاءً بالخطر الدّاهم ، بلجوئها إلى التخطيط لاغتيال الإمام ، بوصفه حلّاً رخيصاً وحاسماً لأزمتها . وكلُّ ذلك قد بيّنّاه قبل قليل .

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٣٨٧ ــ ٨٨ . والخبر إجمالاً برواية أبي مُخنف ، عن الحارث بن كعب الوالبي ، وهو من كبار رُواة الطبري . انظر ثبت رواياته عنه في فهرست أعلام الكتاب ، مادة " الحارث بن كعب بن فقيم الأزدي الوالبي " ، بحق روايته عن الإمام زين العابدين (ع) . قال : **" لمّا خرجنا من مكة كتب عبدُ الله بن جعفر . . . الخ. "** .

نُشيرُ أخيراً ، قبل مغادرة هذا الباب ، أنّ بعض المصادر تقول أن الحسين (ع) لمّا كان على أُهبة الخروج إلى العراق [1] خطب "أصحابه " . وكان ممّا نوّه به في كلامه أنه مقتول حتماً . وفي إحدى روايتَي الخطاب يُعيّن بالتحديد الدقيق موضعَ مقتله ، ومآلَ جسده الشريف .

والنّصُّ يكثُرُ نقله في كُتُب المقاتل المتأخّرة ، لِما فيه من تحريكٍ للشّجى. ولكنّه لم يُروَ في كافة المصادر الأصليّة المعنيّة بأدق تفاصيل سيرة الإمام ، مع توفُّر الدواعي لروايته ، فضلاً عن الخطاب خوطب به جمعٌ غفيرٌ من " أصحاب " الإمام. وبالبحث تتبّعنا روايته إلى كتاب *تيسير المطالب في أمالي أبي طالب* [2] ، لأبي طالب يحيى بن الحسين الهاروني (ت : ٤٣٤ هـ / ١٠٣٣م) وهو من أئمة الحديث عند الزّيديّة ، وكتابه هذا من مصادر الحديث الرئيسة عندهم . والظاهر أن ابن طاووس أخذه عنه في كتابه *الملهوف على قتلى الطفوف* ، وغيرُه [3]. مع إضافة عبارة **"بين النواويس وكربلا "**، بعد **" كأنّي بأوصالي تُقطّعها وحوش / ذئاب الفلوات "** ، وعنه انتشر فيما يبدو . فرأينا ذكره مع الإشارة إلى هذه المُلابسات . تاركين للقارئ أن يحكمَ عليه بما يرى .

(٤) الذين خرجوا معه

مهما يكُن ، فإنّ الإمام خرج من مكة قاصداً الكوفة بتاريخ ٣ ذي الحجّة سنة ٦٠ هـ/ ٢٠ أيلول ، سبتمبر ٦٨٠ م ، كما حقّقنا فيما فات. وسيكون علينا أوّلُ أن نقول

---

١ ــ في الملهوف / ١٢٦ : " **لمّا عزم [الحسين] على الخروج إلى العراق** " . وهو غير صحيحٍ قطعاً ، لأن الإمام سيقول ، على ما في كلّ روايات النصّ : " **فإنّي راحلٌ مُصبِحاً** " ، أي أن العزم سابقٌ عليه . وعلى كلّ حال ، فإنّ النّصَّ كلّه موضع ريبٍ عندنا .

٢ ــ *تيسير المطالب* / ١٩٩ . عن *الصحيح من مقتل سيّد الشهداء وأصحابه* / ٥٢٢ .

٣ ــ *الملهوف* / ١٢٦ . وانظر أيضاً : *الأربلي كشف الغُمّة* ،طز بيروت ١٤٠١هـ : ٢ / ٢٤١ ، ونحوه في *مقتل الحسين* للخوارزمي : ٢ / ٥ ، عن زيد بن علي بن الحسين عن أبيه (ع) ، و*بحار الأنوار* : ٤٤ / ٣٦٦ . والحاصل أنّ جميع الروايات ترجع إلى زيد حصْراً .

ما يؤدّي بنا إليه البحث على الذين كانوا معه في خروجه هذا ، لِما سيكون لذلك من فائدةٍ فيما سيأتي . وعلى كلّ حال ، فذلك دائماً جزءٌ أساسيٌّ من القصّة .

تألّف الموكب الذي خرج من مكة من الرجال والنساء من أهل البيت :

الإمام الحسين (ع) ومعه : أُختُه زينب الكبرى ، وأُختُه رُقيّة زوجة مسلم بن عقيل ، وزوجته الرباب بنت امريء القيس ، وابنته منها سُكينة ، وزوجته الأُخرى ليلى بنت أبي مُرّة بن عروة بن مسعود ، وابنه منها علي الأكبر ، وابنه الإمام علي زين العابدين (ع) . وربما كان معه أيضاً أُخته سكينة بنت علي دفينة داريّا ، بغوطة دمشق [1].

وأخوته : العباس ، وعبد الله ، وعثمان ، وجعفر . وأمهم أمُّ البنين بنت حزام. وابنه محمد المُكنّى أبو بكر .

وابنا أُخته زينب الكبرى من عبد الله بن جعفر : محمد وعون .

وأبناء عمّه عقيل : جعفر وعبد الرحمان وعبد الله ، وعبد الله ومحمد ابنا مسلم (أمهما رُقيّة بنت علي (ع) . ومحمد بن أبي سعيد بن عقيل .

وابنا أخيه الحسن : عبد الله والقاسم .

ومن نساء أهل البيت : بنت الشّليل البجليّة أم عبد الله بن الحسن (ع) . ورملة أم القاسم بن الحسن (ع) ، وأُم محمد بن أبي سعيد بن عقيل ولم يُذكَر اسمها .

فهؤلاء الستة أو السبعة والعشرون من الرجال والنساء ، هم عِدّة مَن كانوا في الرّكب الذي خرج من مكة يوم الثالث من رجب سنة ٦٠هـ ، بقيادة الإمام الحسين (ع) . يُضافُ إليهم عددٌ غير معروف من الأطفال . لم يُذكر منهم باسمه إلا ابنُ الإمام عبد الله الرضيع من زوجته الرباب .

وقد أحصى الرجالَ منهم عدّاً الشاعرُ المُعاصرُ والمُطّلعُ مسلم بن قِتّة ، مولى بني هاشم ، بأبياتٍ بُكائيّة ، لعلّها أفضلُ مصدرٍ في هذا الشأن :

---

١ ــ انظر كتابنا *سكينة بنت علي(ع) ومقامها في داريّا* .

عينُ جودي بعَبرةٍ وعويـلِ واندبي إن ندبتِ آلَ الرسولِ
واندبي تسعةً لصُلب علـيٍّ قد أُصيبوا وستةٍ لعقيلِ
واندبي شيخَهم فليس إذا ما ضُنّ بالخير شيخهم بالبخيلِ
وابنَ عمِّ النبيّ عوناً أخاهم ليس فيما ينوبهم بخذولِ
وسميَّ النبيّ غُودرَ فيهم قد علوهُ بصارمٍ مصقولِ [1]

التسعة لصُلب علي (ع) : علي الأكبر ، العباس ، عبد الله ، عثمان ، جعفر ، محمد ، وعبد الله الرضيع ، وعبد الله والقاسم ابنا الحسن (ع) .

الستة لعقيل : جعفر ، وعبد الرحمان ، وعبد الله ومحمد أبناء مسلم . ومحمد بن أبي سعيد بن عقيل .

وعون ومحمد ابنا عبد الله بن جعفر . ومحمد هو المَقصود بـ "سميّ النبيّ ".

أمّا الذين خرجوا مع الإمام من غير أهل بيته ، أو التحقوا به أثناء الطريق ووصلوا معه إلى كربلا ، فهم :

٢٧ ــ **الادهم بن أُميّة العبدي** . صحابيٌّ ثم سكن البصرة . خرج منها قاصداً مكة ، حين بلغته دعوةُ الإمام . فانضمّ إليه ، ورافقه إلى العراق . وقُتل بين يديه .

٢٨ ــ **أسلم** . تركيٌّ من موالي الحسين (ع) . كان قارئاً للقرآن ، عارفاً بالعربيّة ، كاتباً . خرج معه من المدينة . وقُتل بين يديه .

٢٩ ــ **بُرير بن خُضير الهمْداني** . تابعيٌّ من أصحاب أمير المؤمنين (ع) ، ومن شيوخ القُرّاء في الكوفة . كان له بين الهمْدانيين شرفٌ وقدْر . سار من الكوفة إلى مكة قاصداً الإمام . واستُشهد معه .

٣٠ ــ **جابر / جُنادة بن الحارث السّلماني المَذحجي** . كوفيّ . كان مع مسلم في الكوفة . وبعد انهيار أمره خرج للقاء الإمام ، فالتقى به قبل كربلا . واستُشهد معه .

---

١ ــ *مقتل الحسين* للخوارزمي : ٢ / ١٥٢ ــ٥٣ .قارن البلاذري: *أنساب الاشراف*: ٤٢٢/٣، حيث نسب الأبيات للشاعر سُراقة بن مرداس البارقي .

٣١ ــ **جُنادة بن كعب الأنصاري الخزرجي** . من أهل المدينة . جاء إلى الإمام بأُسرته في مكة . وصحبه في الطريق إلى العراق . واستُشهد معه .

٣٢ ــ **جُندب بن حُجير الكندي الخولاني** . من أصحاب أمير المؤمنين (ع) في الكوفة . خرج منها للقاء الإمام فوافقه في الطريق ، قبل اتصال الحرّ به . فصحبه إلى أن قُتل بين يديه .

٣٣ ــ **جون بن حُويّ** . مولى أسود اللون ، وشيخٌ كبير السّن . يبدو من اسمه أنه حبشيّ الأصل. كان للفضل بن العباس بن عبد المُطلب . اشتراه منه عليّ (ع) ووهبه لأبي ذرّ ، فبقي معه إلى أن توفي أبو ذرّ . فالتحق بأمير المؤمنين (ع) . ثم كان مع الحسن (ع) . ثم من بعده مع الحسين (ع) . صحبه من المدينة إلى مكة ، ثم إلى العراق. وقاتل معه ، على شيخوخته ، إلى أن استُشهد .

٣٤ ــ **الحبّاب بن عامر التّيمي** . كوفي . بايع مسلم . وبعد أن رأى خذلان أهلها اختفى . فلمّا سمع بتوجُّه الحسين (ع) إليها ، خرج للقائه فصادفه في بعض الطريق . ولازمه إلى أن استُشهد بين يديه .

٣٥ ــ **الحجّاج بن بدر / زيد السّعدي التميمي** . بصري . جاء مكةَ من البصرة بكتاب مسعود بن عمرو الأزدي إلى الحسين (ع) ، جواباً على رسالته إليه يدعوه إلى نُصرته . وبقي معه إلى أن ورد كربلا . واستُشهد معه .

٣٦ ــ **الحجّاج بن مسروق / مسرور الجُعفي** . كوفي . من أصحاب أمير المؤمنين (ع) . سار من الكوفة إلى أن لقي الإمام في مكة . فصحبه إلى أن استُشهد بين يديه . كان مؤذّن الإمام في أوقات الصلاة .

٣٧ ــ **الحرث بن نبهان** . مولى . كان لحمزة بن عبد المطلب . ثم مع علي فالحسن فالحسين (ع) . سار معه من المدينة إلى مكة ، ثم إلى العراق . قاتل معه واستُشهد بين يديه .

٣٨ــ **زاهر بن عمرو الاسلمي الكندي** . صحابيّ ممّن بايع بيعة الشجرة . حجّ سنة ٦٠ ، فلقي الإمام في مكة . فصحبه وحضر معه القتال ، إلى أن قُتل بين يديه .

٣٩ ــ **زُهير بن القَيْن البجلي الكوفي** . حجّ سنة ٦٠ ومعه زوجته . وبعد أن قضى مناسكه ، خرج من مكة باتجاه العراق مُتجنّباً لقاء الإمام . لكنه انضمّ إليه فيما بعد في قصةٍ عجيبة ، سنرويها في محلّها المُناسب ، إلى أن ورد معه كربلا ، حيث قاتل معه واستُشهد بين يديه .

٤٠ ــ **سالم** . مولى عامر بن مسلم العبدي البصري . سار مع سيّده من البصرة إلى مكة ، حيث لقيا الإمام . ومنها رافقه إلى كربلا ، فقاتل واستُشهد .

٤١ ــ **سعد بن الحارث الخُزاعي** . مولىً لعلي (ع) ، ومن شرطة الخميس . ولاّه الإمام على آذربايجان . ثم كان بعده مع الحسن فالحسين (ع) . خرج معه من المدينة . ورافقه إلى أن ورد كربلا ، فقاتل واستُشهد .

٤٢ ــ **سعد بن عبد الله**. مولى عمرو بن خالد الأسدي الصيداوي .التحق بالحسين (ع) مع سيّده ، فالتقوا به في عُذيب الهجانات ، بعد اتصال الحرّ به . قاتل واستُشهد معه .

٤٣ ــ **سعيد بن عبد الله الحنفي** . كوفي . حمل رسائل أهل الكوفة إلى الحسين (ع) في الدّفعة الثالثة من الرسائل . ثم حمل كتاب مسلم إلى الإمام في مكة . ورافقه في الطريق إلى العراق ، وقاتل معه إلى أن استُشهد .

٤٤ ــ **سيف بن مالك العبدي** (نسبةً لعبد القيس من ربيعة) . بصري . خرج من البصرة بعد أن بلغته دعوةُ الإمام حتى أتاه في مكة . وسار معه إلى كربلا ، وقاتل معه إلى أن استُشهد .

٤٥ ــ **شوذب بن عبد الله الهمْداني** . كوفي . من وجوه الشيعة في الكوفة ، ومن حَمَلَة الحديث . سار منها إلى مكة ، وبقي مع الإمام حتى كربلا . فقاتل معه وقُتل بين يديه .

٤٦ ــ **عائذ بن مجمع بن عبد الله العائذي** . أحدُ أربعةٍ التحقوا بالإمام في عُذيب الهجانات قُبيل كربلا ، وقاتل معه إلى أن استُشهد .

٤٧ ــ **عامر بن مسلم العبدي** (نسبةً لعبد القيس من ربيعة) بصري . خرج

من البصرة إلى مكة ، بعدما بلغته دعوةُ الحسين (ع) . ورافقه إلى كربلا . وقاتل واستُشهد بين يديه .

٤٨ ـ **عبّاد بن مهاجر الجُهني** . كان نازلاً في منازل بني جُهينة حول المدينة . فلمّا مرّ الحسينُ (ع) بهم في طريقه إلى مكة تبعه . ورافقه في الطريق إلى العراق ، حتى استُشهد معه . فهو ، إلى ثلاثةٍ آخرين من أبناء قبيلته ، ممّن سنأتي على ذكر بقيّتهم ، من القِلّة من الأعراب الذين انضموا إلى الإمام أثناء الطريق ، ولم ينفضّوا عنه حتى بعد أن بان لهم واقعُ الحال .

٤٩ ـ **عبد الرحمان بن عبد ربّه الأنصاري الخزرجي** . صحابيّ . ومن أصحاب أمير المؤمنين (ع) . وكان هو الذي أقرأه القرآن . أحدُ الشهود له بحديث الغدير يومَ الرّحبة . جاء مع الحسين (ع) من مكة ، وقاتل وقُتل معه .

٥٠ ـ **عبد الرحمان بن عبد الله الأرحبي الهمْداني** . كوفي . أوفده أهلُ الكوفة إلى الحسين (ع) في مكة ، مع قيس بن مُسهّر الصيداوي ، ومعهما كُتُب ، في الوفادة الثانية لأهل الكوفة . وقبلها وفادة عبد الله بن سبع وعبد الله بن وال . وبعدها وفادة سعيد بن عبد الله الحنفي وهانيء بن هانيء . دخل مكة في ١٢ رمضان ، وسرّحه الإمامُ مع مسلم . ثم بعد أن قُتل عاد عبدُ الرحمان إلى مكة ، ورافق الإمام إلى العراق . فقاتل معه إلى أن استُشهد .

٥١ ـ **عبد الله بن يزيد بن ثبيط العبدي** . بصري . خرج من البصرة مع أبيه في طلب الحسين في مكة . وصحبه إلى العراق إلى أن قُتل معه .

٥٢ ـ **عُبيد الله بن يزيد العبدي** . أخو سابقه . ومثله خرج مع أبيه واستُشهد.

٥٣ ـ **عُقبة بن سِمعان** . مولىً للرباب زوجة الحسين (ع) . رافقه من المدينة حتى نهاية القتال في كربلا ، دون أن يُشارك في القتال ، ربما لكِبَر سنّه وعجزه . فأخذه عمرُ بن سعد وقال له : " مَن أنت ؟ " فقال : " أنا عبدٌ مملوك " . فأخلى سبيله . فهو الوحيد ممّن كان في ركْب الإمام ولم يُقاتل ولم يُقتل . وقد عاش بعدُ ليروي بعضَ ما شهده من أحداث .

٥٤ ــ **عُقبة بن الصّلت الجُهني** . هو كسابقه وابن قبيلته عبّاد (برقم ٤٨) ممّن تبع الإمام من منازل قومه ، ولازمه إلى أن قُتل معه .

٥٥ ــ **عمّار بن حسّان الطائي** . كوفي . أبوه من أصحاب أمير المؤمنين (ع) ، واستُشهد معه في صفين . فكان من محاسن التوفيق لهذا البيت أن صحب الابن الحسينَ من مكة ، ورافقه إلى أن استُشهد معه .

٥٦ ــ **عمر بن جُنادة بن كعب الانصاري الخزرجي** . من أهل المدينة . صحب أباه الذي ذكرناه برقم (٣١) ، وقلنا أنه خرج بأُسرته ، ومنهم هذا ، وانضمّ إلى الحسين (ع) في مكة إلى أن استُشهد معه .

٥٧ ــ **عمرو بن خالد الأسدي الصيداوي** . من أشراف الكوفة . قام مع مسلم إلى أن انهار وضعه فاختفى ، فلما سمع بقتل نسيبه رسول الحسين (ع) قيس بن مُسهّر الصيداوي ، وأنه أخبر قبل مقتله بأن الإمام صار بالحاجر ، خرج إليه ومعه ابنه عائذ (ذكرناه برقم ٤٦) ، فالتحق به في عُذيب الهجانات إلى أن قُتل معه .

٥٨ ــ **قارب بن عبد الله الدُّئِلي** . كانت أُمّه جارية للحسين (ع) ، تزوجها أبوه الصحابي . فكان ابنهما قارب بعد أبيه من جملة المُحيطين بالإمام . خرج معه من مكة إلى أن استُشهد معه .

٥٩ ــ **قعنب بن عمرو النُّميري** . بصريّ . جاء من البصرة إلى مكة فانضمّ إلى الإمام وخرج معه ، إلى أن استُشهد .

٦٠ ــ **مجمع بن زياد بن عمرو الجُهني** . صحابي ممّن شهد بدراً وأُحُد . كان في منازل بني جُهينة حول المدينة . فلمّا مرّ الحسين (ع) بمنازل قومه قاصداً مكة انضمّ إليه ، وصحبه إلى كربلا ، حيث استُشهد معه .

٦١ ــ **مجمع بن عبد الله العائذي** .كوفي . تابعيّ من أصحاب أمير المؤمنين (ع) . لمّا سمع بمقدم الإمام خرج فالتقاه بعُذيب الهجانات ، وسار معه إلى كربلا وقاتل معه إلى أن استُشهد .

٦٢ ــ **مُنجح بن سهم** . من موالي الحسين (ع) . كانت أُمه جاريةً للإمام ،

اشتراها من نوفل بن الحارث بن عبد المُطّلب . ثم تزوّجها أبوه سهم فأولدها مُنجح . صحبه من سفره من المدينة إلى أن قُتل معه .

٦٣ ــ نافع بن هلال الجملي المَذحجي . كوفي . من أصحاب أمير المؤمنين (ع) ، وشهد معه مشاهده كلّها . خرج من الكوفة يتلقّى الحسين (ع) ، فلقيه في بعض الطريق ، وصحبه إلى أن ورد كربلا ، فقاتل معه إلى أن استُشهد .

٦٤ ــ **نصر بن أبي نيزر** . من موالي الحسين (ع) . فارسي أو حبشي . صحبه من المدينة إلى أن استُشهد معه .

٦٥ ــ **يزيد بن ثبيط العبدي** . بصري . خرج من البصرة إلى مكة مُلتحقاً بالحسين (ع) ومعه ابناه عبد الله (ذكرناه برقم ٥١) وعُبيد الله (ذكرناه برقم ٥٢) ، فانضمّ إليه وقاتل معه إلى أن قُتل .

٦٦ ــ **يزيد بن معقل / مُغفل المَذحجي** . مدني . ممّن أدرك النبي (ص) ولم يلقه . ومن أصحاب أمير المؤمنين (ع) ، وشهد صفين معه . ثم كان مع الحسين (ع) في مسيره من مكة ، التي يبدو أنه قصدها حاجّاً ، وقاتل معه إلى أن استُشهد .

فهؤلاء ستةٌ وستون رجلاً وامرأةً من أهل البيت ، بالإضافة إلى مَن التحق بهم من غيرهم .

هؤلاء هم الذين ثبت لدينا ، بعد البحث والتّقصّي والاستقراء التام بقدر الوُسع ، أنهم جَماعُ مَن كانوا مع الإمام حين وصل إلى كربلا . هم الذين خرجوا معه من مكة ، بالإضافة إلى الذين التحقوا به أثناء الطريق إلى العراق . منهم ستةٌ وعشرون رجلاً وامرأةً من أهل البيت ، وثلاثون رجلاً من غيرهم ، فهؤلاء هم الذين خرجوا معه من مكة [1].

---

١ ــ هم مَن ذكرناهم بالأرقام : ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦.

إذن ، فإنّ جَماع الموكب الذي خرج من مكة ستةٌ وخمسون رجلاً وامرأة [1] . يضافُ إليهم عشرة هم الذين التحقوا بالموكب أثناء الطريق . كما يُضافُ إليهم عددٌ غير معروف من النساء وأطفالهن .

(٥) ما في خروج أُولئك من دلالات

علينا الآن أن نستثمر ذلك الإحصاء ، وما بذلناه فيه من جُهد ، بالسعي إلى استنطاق ما فيه من دلالاتٍ ومغازي . ذلك أنّ تلك المجموعة من الرجال قادمون من مُختلف الشرائح الاجتماعيّة والنّسبيّة والبُلدانيّة . ولكلٍّ من هذه هويتها وخصوصيّتها الثقافيّة وتجربتها السياسيّة . وهذه ذاتُ علاقةٍ أكيدةٍ بحوافز الناس وميولهم ، وجَماعُ خصوصيّاتٍ تفصيليّة . يفرض علينا البحثُ ان نتناولها ، على قاعدة السعي لقراءة ما تقودنا إليه مادةُ الإحصاء .

بالتمعُّن في شؤون الأربعين الذين وصلوا مع الإمام إلى كربلا من غير أهل البيت ، نرَ أنّ منهم تسعةٌ من الموالي [2] ، أي العبيد المملوكين ، وتسعةٌ من بني همدان [3] ، وثمانيةٌ بصريّون [4] ، وثمانيةٌ أيضاً حجازيّون [5] . والباقون كوفيّون .

نُلاحظُ أوّلُ وفرةَ عدد الموالي . ومن السّهل تفسير ذلك بوضعهم الاجتماعي، الذي يفرض عليهم أن يكونوا مع سادتهم وبخدمتهم أينما حلّوا أو ارتحلوا . لكنّ هذا

---

١ ــ هذا العديد يختلفُ كثيراً عمّا أورده الخوارزمي في *مقتل الحسين* : ١ / ٢٢٠ . حيث قال : **"وفصلَ [الإمام] من مكة [. . .] ومعه اثنان وثمانون رجلاً من شيعته ومواليه وأهل بيته "** . وهو عن روايةٍ فيما يبدو ، وليس عن إحصاءٍ دقيقٍ كالذي أجريناه . كما أنه لم يضمّ النساء . ولم يُعنَ بالمُلتحقين بالإمام أثناء الطريق .

٢ ــ هم ذووالارقام في الاحصاء : ٢٨،٣٣،٣٧،٤١،٤٢،٥٣،٥٨،٦٢،٦٤.

٣ ــ ٢٩، ٤٥، ٥٠ .

٤ ــ ٢٧ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٥٩ ، ٦٥ .

٥ ــ ٣١، ، ٣٨ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٦٦ .

وحده لا يفسّرُ اشتراكَهم الطّوعي والشُّجاع في القتال ، في ظلّ المعركة غير المُتعادلة الباعثة على اليأس ، حيث ليس لَمن يخوضها في جانب الإمام أدنى أملٍ بالنصر . كما أنّه ما من سبيلٍ إلى فرْض إكراههم على القتال . بل إنّ من الثابت أنّهم كانوا يستأذنون الإمام بالبروز إلى القتال ، شأنَ غيرهم من أهل بيته وأصحابه الأحرار . ثم أيضاً بشهادة أن عُقبة بن سِمعان ، الذي كان مُقرّباً جدّاً من الإمام . بل يمكن القول أنّه كان بمثابة أمين سرّه، إلى درجة أنّه كان يأتمنه على حفظ الرسائل الثمينة لأهل الكوفة إليه [1] . وهو الذي شهد المعركة كلّها، ومع ذلك فإنه الوحيد من الموالي الذي امتنع عن القتال ، دون أن يُطالبه أحدٌ بخوضها . ونجا وعاش من بعد . ليروي ما سجّله المؤرخون ما شهده من أحداثها .

من هذا وذاك رأينا تلك الظاهرة غير المَسبوقَة ، بأُولئك الذين امتشقوا السّلاح مع الأحرار مُقاتلين مع الإمام الأمل . ثم سنراهم بعد قليل على نحوٍ أوفر وأوفى في ثورة المختار ، التي يجب اعتبارها نابتةً من النّوابت الجمّة التي ترتّبت على يوم كربلا. وهي التي كان من شعاراتها البارزة المُساواة بين العرب والموالي . بل إنها اعتمدت على الموالي ، إلى جانب قِلّةٍ من العرب . ثم مالبثت تلك الظّاهرة أن نَمَتْ بعد قرون بثورة الزُّنج التي قادها رجلٌ علويّ (مُنتسب للإمام علي (ع) ، بحيث أصبح أُولئك المَملوكون مالكين ، بعد أن جعل منهم قائدهم البطل عسكريتاريا مُنظّمة أنشأت دولةً حقيقيّة بكامل المُواصفات [2].

هل يصحّ أن نبني على ذلك أن هذه الظاهرة ، وبالخصوص وقفة الأرقّاء الشُّجاعَة مع الإمام ، هي تعبيرٌ عن وعيٍ سياسيّ لديهم على حقوقهم المَهدورة ، توازي وتُكمل وعيَ الأحرار منهم ؟

ظاهرةٌ ثانيةٌ نرصدُها في ذلك الإحصاء ، هي قلّة عديد همْدان . إذ اقتصر

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٣٠٤ .

٢ ــ انظر فصل "علي بن محمد العلوي " من كتابنا *ستة شعراءٍ عراقيين مَنسيّين* .

على ثلاثة رجال، هم: بُرير بن خُضير، وشوذب بن عبد الله ، وعبد الرحمان بن عبد الله . وهو قليلٌ جدّاً بالقياس إلى ما نعرفه من عديد همْدان الكبير في الكوفة قبل عقدين من الزمان . وأيضاً بالقياس إلى تاريخها المُشرّف مع أمير المؤمنين (ع) .

ذلك أننا نعرف أن الكوفة كانت مركزَ التّجمُّع الرئيس لهمْدان ، بعد أن باينت مواطنها الأصليّة في شرق اليمن [1] . وأنه عند تمصير الكوفة فازت همْدان بسُبع المدينة الجديدة [2]. الأمر الذي يدلُّ على أن هذه القبيلة كانت كبيرة العدد فيها . بل يبدو أنها كانت الأكثر عديداً فيها . بشهادة نصٍّ لدى المؤرخ ابن مُزاحم المنقري ، يصِفُ فيه بني أسد ، إحدى أكبر القبائل في المنطقة ، وما تزال حتى اليوم ، بأنها **" حيُّ الكوفة بعد همْدان "** [3] . كما أننا نعرف أن بني همْدان **" كانوا شيعةً لعلي كرم الله وجهه ورضي عنه ، عندما شجر بين الصّحابة** . وهو المُنشِدُ فيهم :

فلو كنتُ بوّابـاً على باب جنّةٍ　　　لقلتُ لهمْدان ادخلوا بســلامِ [4] " .

وكانوا عِمادَ عسكره في صفين . وهو القائلُ في هذا الشأن :

عبّيتُ همْدانَ وعبّوا حِميرا [5]

فما هي علّةُ هذا الغياب العجيب الآن ، بينما الثّابتون من أهل العراق والحجاز يُسارعون إلى الانضمام إلى ركْب الحسين (ع) المُتجه معه إلى العراق ؟

نقولُ في الجواب : الحقيقةُ أن همْدان لم تعُد هناك . لم يعُدْ في الكوفة منها إلا عددٌ غير كبير.مثلما تتركه خلفهاحركةٌ سُكّانيّةٌ كبيرةٌ تحمل أصحابَها بعيداً عن أوطانهم.

---

١ ــ السمعاني : *الانساب* ، ط. بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، مادة "همْدان" .

٢ ــ انظر مُخطّطاً للمدينة تبدو فيه الرُّقعةُ المُخصّصة لبني همْدان في *خطط الكوفة* لماسينيون ، الترجمة العربية ، ط. صيدا ١٩٤٦ / ٢ .

٣ ــ *وقعة صفين* ، ط. مصر ١٣٨٢ باعتناء محمد عبد السلام هارون / ٣١١ .

٤ ــ ابن خلدون : *كتاب العِبَر* ، ط. بيروت ١٩٦١ : ٢ / ٥٣٠ .

٥ ــ المسعودي : *مروج الذهب* / ١٦٧٩ .

لقد طوّحت بها هجرةٌ مفروضَةٌ إلى نواحي الشام . حيث سيكون لحضورها فيه في مُستقبل الأيام من جميل الأثر ما لايزالُ حميدُهُ حتى اليوم [1]. وما أُولئك الثلاثةُ ، إلا أفرادٌ من البقيّة القليلة التي ثبتت في الكوفة لسببٍ أو لغيره .

الظاهرةُ الثالثة نرصدها في أنّ الحسين (ع) هو ابنُ الحجاز . فيه وُلد وشبّ وعاش حتى عشيّة كربلا . وكان له بين أهليه المقام السّامي والمنزلة العالية التي لا تُدانيها منزلة . ومع ذلك فإننا لا نجِدُ في رَكبه بين الذين وصلوا معه إلى كربلا ، من غير أهل بيته ، إلا سبعة حجازيين . ليس بينهم أحدٌ من ذوي الشأن ، إلا ربما الصحابي من السّابقين زاهر بن عمرو الأسلمي الكِندي . أمّا الباقون فهم جميعاً من العباد العاديين . محلُّ الملاحظة هنا ، أن المرء يكسبُ الانصار والاعوان عادةً من أهل الوسط الذي يعيش فيه . خصوصاً إذ يكون في مثل شرف الإمام وجميل صفاته . وخصوصاً أيضاً في أن الناس أقبلوا عليه في مكة ذلك الإقبال الذي وصفناه فيما فات .

فلماذا لم يفُزْ الإمامُ من وطنه إلا بذلك العدد القليل ؟

التفسير الوحيد الذي يبدو لنا ، هو في ميلِ أهل الحجاز إجمالاً عن علي (ع) ووُلده . وهو من الحقائق التاريخيّة المعروفة . ومن ذلك أن البيعة للإمام في المدينة ما كان لها أن تتمّ لولا خروج الأمر من يد رجالات قريش ، على أثر مقتل عثمان ، وسيطرة العناصر الغاضبة القادمة من العراق ومصر على الحِراك السياسي في العاصمة .

ثم أنّ الذين خرجوا معه من الحجاز في أثر طلحة والزُبير ، بعد أن أعلنا نكثَ البيعة وإيقاد الفتنة ، لم يكونوا إلا بضع مئين . ولولا الأُلوف الذين التحقوا بعسكره من أهل الكوفة ، وقاتلوا معه أهلَ الجمل ، لَمَا كان للنّصر عليهم أن يحصل . والمعروف أن ذلك المَيل عن الإمام،قد تأصّلَ لدى قريش منذ أن كانت تقود الشِّرك العربي، مقابل

---

١ ـــ لمن يرغب في تفصيل ما أوجزناه هنا كتابنا *التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية* . فهو مَبنيٌّ على أن سرّ انتشار التشيُّع في الشام ، خلافاً لكلّ ما هو مُتوقّع ، يرجع إلى الهجرة الهمْدانيّة الكبرى وبعضُ ربيعة إليه ، بعد انهيار المشروع السياسي للإمام الحسن (ع) .

الدعوة الإسلاميّة الناشئة ، ودور الإمام في المواطن بقمع قريش وتقتيل رجالها ، لم يغادر ذاكرةَ قريش . وعلى ذلك بنَتْ مواقفها من الإمام ووُلده .

المُلاحظة الأخيرة تدورُ على الذين خرجوا مع الحسين (ع) من أهل البصرة.

والمعروفُ أن هذه المدينة كانت عثمانيّة الهوى . ولسنا ندري ما هو السّرّ في ذلك . ولهذا السبب وقع اختيارُ عائشة والناكثين عليها . فنزلوها واتخذوا منها قاعدةً لعمليّاتهم . والحقيقةُ أن البصرة لم تُخيّب رجاءَهم . ممّا يدلُّ على أن حساباتهم في ذلك الشأن كانت دقيقةً صائبةً إلى حدٍّ بعيد .

لكنّ هذا التقرير ، على صحّته إجمالاً ، لا يعني خُلوّ المدينة ممّن يُشايعُ أمير المؤمنين (ع) . ونحن نملك معلوماتٍ دقيقةٍ عن هؤلاء ، فيما سطره المؤرخون على المجموعات القبَليّة وهي تتقدّم للقتال مع الإمام في صفين . حيث عُقدت الألويةُ وأُمّرَ الأُمراء . سنذكرهم بالصيغة التي على ذكرها المؤرخ المنقري :

مُضر البصرة . بكرُ البصرة . تميم البصرة . سعد ورباب البصرة . عمرو وحنظلة البصرة . ذُهل البصرة . لهازم البصرة . عبد القيس البصرة . قريش البصرة . قيس البصرة [١].

هذا الإحصاء لتلك المجموعات البصريّة المُقاتِلَة ، وإن يكُن لايدلُّ بنفسه على عديدٍ بعينه ، ولكن مُجرّد تخصيص كلٍّ من هاتيك القبائل أو البطون البصريّة بأميرٍ ولواء ، لدليلٌ وافٍ بأن كلًّا منهم لم يكُن قليلا . بل إن المجموع ليدلُّ على أن شيعة البصرة لم يكونوا جماعةً هامشيّة . ومع ذلك ، فإننا نلاحظُ أن الذين لبّوا دعوة الحسين (ع) من أهلها لنُصرته لم يتجاوزوا الثمانية رجال كما رأينا . كلّهم التحقوا به مُبكّرين أثناء الأشهر التي قضاها في مكة . ثم لم نعُدْ نسمع من البصرة حسّاً في الأحداث التالية على جسامتِها . فلماذا ؟

الجواب كامنٌ فيما اضطربت فيه البصرة ، على أثر وُصول رسائل الإمام إلى

---

١ ـ ابن مُزاحم المنقري : *وقعة صفين* ، ط. قم ١٣٨٢هـ / ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

عددٍ ممّن يعرف منهم الاستقامة ويأملُ منهم النُّصرةَ من أشرافها. فطفق الناسُ يعقدون الاجتماعات ، حيث يُقرأُ عليهم كتابُ الإمام أو مؤدّاه . وكانت الاجتماعات تنتهي دائماً بإعلان النُّصرة للحسين بمُجرّد أن يصِلَ إلى الكوفة [1] . لكنّ خيانة أحد الأشراف ، إذ حمل كتاب الإمام إلى عُبيد الله بن زياد ، الوالي على المدينة يومذاك ، قلبت الأُمور رأساً على عقِب . وعلى الأثر استنفر عسكرَه ، وبادر إلى قطع وضبط ومراقبة كافة الطُرُق المُوصلة إلى الكوفة من جهة البصرة . وكل ذلك بسطناه فيما سبق . هذا فضلاً عمّا آل إليه امرُ الكوفة ، قبل وُصول الحسين (ع) إلى العراق ، ممّا وصلت أصداؤه إلى البصرة بسرعة . ومن الغنيّ عن البيان ، أن تلك الاوضاع الانقلابيّة غير المُحتسَبَة قد تركت أثراً مُحبِطاً جدّاً على شيعتها .

أمّا أُولئك الثمانية البصريّون ، الذين سارعوا إلى الالتحاق بالإمام في مكة . وستةٌ منهم من عبد القيس ، ذلك البطن من ربيعة ذو التاريخ النّقيّ والمجيد بالجهاد مع عليّ (ع) ثم مع ابنه الحسن (ع) ، ـ فالظاهر أن التحاقهم المُبكّر به إنّما كان لأمرٍ خاصٍّ . ربما كان على علاقةٍ بموقعٍ مُمتازٍ لهم في الحِراك القادم ، الذي كان آنذاك موضعَ التخطيط والإعداد . ممّا يحملنا على الظنّ أن التحاقهم المُبكّر بالإمام في مكة كان عن أمرٍ ورغبةٍ منه ، أو عن مُبادرةٍ منهم تقبّلها. وعلى كلّ حال ، فلأغراضٍ تتعلّق بما يجبُ التداول بشأنه والإعداد له برسم الاستحقاق القادم .

(٦) منهجُنا في قراءةِ أحداث الطريق

إلى هنا نكونُ قد قُلنا كلَّ ما يحسُنُ بنا قوله ، على الرّكب الذي خرج مع الحسين (ع) من مكة قاصداً الكوفة ، عديداً وتركيبةً ومغازٍ ودلالات . وبات علينا أن نرافقه في الطريق الطويل ، لنصِلَ معه إلى كربلا . على أننا لن نُفصّل الكلام في هذا الشأن تفصيلا ، إلا بمقدار ما يعرف القارئ خريطة الطريق . مع الوقوف فقط عند المنازل التي وقع فيها ما يستحقُّ الذكر ، بما له من علاقةٍ بكربلا . التي قُلنا دائماً أنها هي

---

١ ـ الطبري : ٥ / ٣٥٧ وما بعدها .

المَقصدُ والغاية . وما أهميّة ما غيرها إلا بمقدار ما يطوف بها ، أو يوصلُ القارئ إلى فهمٍ أوفى لبعض أحداثها. وعلى كلّ حال ، فنحن قد قرأنا ذلك الطريق بنحوٍ مُفصّل في كتابنا موكب *الشهادة من المدينة إلى كربلا* . وليس على مَن يريد تفصيل الطريق ومواصفات منازله إلا أن يرجع إليه .

(٧) أوّلُ الطريق

خلافاً لِما هو مُتوقّع ، فقد خرج الموكب من مكة على الطريق الذي يؤدّي إلى المدينة . فمرّ بـ (التنعيم) في الشمال الغربي من مكة . وفيها حصل أوّلُ صدامٍ بينه وبين الدولة . إذ التقى بقافلةٍ قادمةٍ من اليمن ، تحملُ الوَرْسَ والحُلل ، بعث بها الوالي عليها إلى يزيد ، فأخذها [١] . ثم تحوّل إلى (الصِّفاح) في الشمال الشرقي ، على الطريق إلى الكوفة . وفيها لقي الفرزدق ، وتلقّى منه أوّلَ نذير بما سيلقاه في الكوفة . وسجّل الشاعر في شعره أن الحسين (ع) كان مُعتَدّاً بلامة القتال . وكل ذلك ذكرناه فيما فات . وسلوكه ذلك الطريق ، مع أنه يُضيفُ إلى الطريق مسافةً طويلة ، بالإضافة إلى اعتداده ، يدلُّ على أن الإمام كان يضعُ في حُسبانه أن يُطارَدَ ، ابتغاء منعه بالقوّة من مُتابعة الطريق . كما أن استيلاءه على ماهو برسم الخليفة ، يحملُ رسالةً تقول بالمعمول أنّه هو الأولى بالمال العامّ دونه . ثم اجتاز عدّة منازل : (بستان ابن عامر) . ومن هذا المنزل " **أقبل الحسينُ مُغِذّاً لا يلوي على شيء حتى نزل ذات عرق** [١]" فـ (غمرة) فـ (المسلح) فـ (الأُفيعيّة) فـ (معدن بني سليم) فـ (العمق) فـ (السّليليّة) فـ (الرّبذَة) فـ (مغيثة الماوان) فـ (النُّقرة) ، دون أن يلقى سوءاً أو يحصلَ ما يستحقُّ الذكر . ولكنّ في عبارة الطبري التي اقتبسناها أعلاه دليلٌ على أنه كان يُغذُّ السير بحيث يبتعد عن مكة بأسرع ما يمكن . إلى أن وصل إلى (الحاجر من بطن الرُّمّة) .

---

١ ــ الطبري: ٥ / ٣٨٥ *وأنساب* : ٣ / ٣٧٥ *والاخبار الطوال* / ٢٤٥ *والإرشاد* : ٢ / ٦٨ . والخبر من جملة مُشاهدات ورواية عقبة بن سِمعان . رواه أبو مُخنف عن الحارث بن كعب الوالبي عنه.

١ ــ الطبري : ٥ / ٣٨٧ .

(٨) الرسالة الأُولى أثناء الطريق لأهل الكوفة

ويبدو أنه بوصوله إلى هذا المنزل اطمأنّ من جهة احتمال مُطاردته ، وأن طريقه إلى الكوفة سالك . الأمر الذي جعله يهتمّ بإخطار أهلها بأنه في الطريق إليهم . وعليه أرسل قيساً بن مُسهر الصيداوي برسالةٍ إليهم ، جاء فيها :

" بسم الله الرحمن الرحيم

من الحسين بن عليّ إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين .

سلامٌ عليكم . فإنّي أحمد إليكم الله الذي لاإله إلا هو .

أما بعد .

فإنّ كتاب مسلم بن عقيل جاءني يُخبرني فيح بحُسن رأيكم واجتماع ملأكم على نصرنا وطلب حقّنا . فسألتُ الله أن يُحسِنَ لنا الصُّنع ، وأن يُثيبكم على ذلك أعظمَ الأجر .

وقد شخصتُ إليكم من مكة يوم الثلاثاء لثمانٍ مضين من ذي الحجة ، يومَ التّروية . فإذا قدِمَ عليكم رسولي فاكمشوا أمركم وجدّوا . فإنّي قادمٌ إليكم في أيامي هذه إن شاء الله

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته" [١] .

والذي يؤخذُ من لغة الرسالة ، أن الإمام كان لا يزال حتى الآن عند المُعطيات التي زوّده بها مسلم بن عقيل في رسالته الأخيرة . وأنه لم يكُن على علمٍ بأن عُبيد الله بن زياد قد بات في الكوفة ، وأنّه قد بسط سُلطانه عليها بمعونة أكثر أشرافها ، وأنّه أُعلم أو قدّرَ أن الحسين (ع) في أو سيكون في طريقه إليها . فبدأ كلَّ إجراءٍ يحول بين الإمام وبين دخولِها . ومن ذلك أنه بعث صاحب شُرطته إلى القادسيّة ، فنشر هذا عسكره فيها شرقاً وغرباً بخطٍّ مُستعرض ، بحيث بات الطريقُ إلى الكوفة تحت السيطرة التامّة . وطبعاً كان ذلك حالُ الرسول . فأقبل مطمئناً إلى خُلوّ الطريق ، وهو

---

١ ـ الطبري : ٥ / ٣٩٥ . قارن بالشيخ المفيد في *الإرشاد* / ٢٢٠ ، حيث بعد أن أورد الخبر بما لايختلف ، قال " ويُقال بل بعث أخاه من الرضاعة عبد الله بن يقطر " .

الذي سلكه قبل مدّة قصيرةٍ حاملاً رسائل أهل الكوفة للإمام . فلما وصل إلى القادسية أخذه صاحبُ الشرطة ، وبعثه إلى ابن زياد ، الذي أورده موردَ الهلاك . لكن بعد أن أعلن على الملأ مضمون الرسالة التي يحملها . وبذلك أدّاها قبل أن يفوز بالشهادة .

(٩) في (بطن الرُّمّة)

في المنزل التالي الذي تذكره المصادر بـ (ماء من مياه العرب) ولكنّه عُرف فيما بعد بـ (بطن الرُّمّة) ، التقى الإمام للمرّة الثانية بعبد الله بن مُطيع العدوي . وقد ذكرنا فيما سبق أنه التقاه قبلُ في الطريق بين المدينة ومكة . وهو مدني وزعيمٌ قبَليّ واسع النفوذ. كما أنه شديد التعلُّق بنمط الحياة البدوي ، مؤثراً العيش في الصحراء . فسأله أين يُريد ؟ وعندما أجابه الإمام الجوابَ المعلوم ، خاطبه بكلمات سنقتبسها ، لأنّها تُمثّل أُسلوبَ تفكير ومنظومةَ قِيَم شريحةٍ واسعة من الناس يومذاك . قال :

"أُذكّرُكَ اللهَ يابنَ رسول الله وحُرمةَ الإسلام أن تُنتهَك ! أُنشدُكَ اللهَ في حُرمة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ! أُنشدُك اللهَ في حُرمة العرب ! فوالله لئن طلبتَ ما في أيدي بني أُميّةَ ليقتلُنَّك . ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحدٌ أبدا " .

" والله إنّها لَحرمة الإسلام تُنتهَك ، وحُرمة قريش ، وحُرمة العرب . فلا تفعل . ولاتأتِ الكوفة . ولا تعرُض لبني أميّة ! "[١] .

هذه المُطالَعة البارعة الشّاملة تُنبئ عن رؤيةٍ عميقةٍ وعن مقدرةٍ فذّةٍ على ترتيب المُتواليات التي ستنتج عن حدَثٍ جللٍ منظور : تهديدُ بني أُميّة في سُلطانهم الذب سيودي إلى قتل الإمام . وهذا سيودي إلى سقوط حُرمة الإسلام ، بوصف القتيل"ابن" نبيّه على حدّ تعبير ابن مُطيع ، وحُرمة العرب وحُرمة قريش باعتباره من سادتها . فكأن الرجل يقرأُ المستقبل . وكأنه ينظر إلى يومي كربلا والحَرّة ، اللذين لن يُبقيا على حُرمة .

لقد سمعنا من قبل الكثيرين ممّن قصدوا الإمام ناصحين مُحذّرين ، على اختلاف مآربهم ومقاصدهم ، ولكن ما من أحدٍ منهم رسم صورةُ الآتي الذي سيترتّبُ

---

١ ـ الطبري : ٥ / ٣٩٥ ـ ٩٦

على مشروع الإمام ، بمثل هذه البراعة والإحاطة وجودة الرؤية .

لكن إلى جنب هذه البراعة والصدق في التصوير ، ثمة فشلٌ ذريعٌ في الرؤية ، تغييبٌ فظيع لا يُغتفَر لوظيفة الإنسان المسلم ، وطبعاً الإمام بالدرجة الأُولى ، في وُجوب العمل على إقامة القسط . نقرأُهُ في ختام مُطالعته ، حيث قال : " **ولا تعرض لبني أُميّة** " ، الذي لايعني غير الأمر بالقعود والاستسلام تجاه الوضع السياسي البالغ الشذوذ ، تحت طائلة ردّ الفعل العنيف من السُلطة الفعليّة .

هنا تسقطُ كلُّ قيمة التراتيب المنطقي والرؤية المُستقبلة . لأنه غدا من قبيل مُقدّماتٍ صحيحةٍ تصِلُ إلى نتيجةٍ باطلة . ومثل هذا كثيرٌ في التفكير السياسي السُلطوي، الذي يُمثّله فقهاءُ السُلطة ومَن لفّ لفّهم . حيث يصِلون دائماً إلى الأمر بالقعود ، تحت شعار إطاعة وليّ الأمر ، أو عدم شقّ عصا المسلمين .

والحقيقة أنّ العدوي يُمثّل أُنموذجاً مختلفاً ، من حيث أنه يستقي قِيَمَه من المنظومة البدويّة / الاعرابيّة : الحُرمة ، التي تمنحُ الاهتمامَ والاهميّة إلى العناوين ، وليس إلى الانسان الذي تحت هذه العناوين وإلى حقوقه . إنّها تُهملُ المجتمع بما هو مُجتمَع ، وحقوق الانسان بما هو إنسان .

لذلك فإنّ الإمام استمع إلى مُطالعة الرجل . ونخال أنه قدّر غيرتَه الشخصيّة عليه ، ولكنّه لم يُعلّق على كلامه بشئ . ومضى حتى كان بـ

(١٠) في (ماء فوق زَرود) .

ولاصحّة لِما تقوله بعضُ المصادر أنه نزل زَرود والخُزيميّة[1] لخلوّ أرضهما الرملِ من الماء . ونحن أخذنا برواية الطبري عن أبي مُخنف ، الذي لم يأتِ على ذكر نزول الإمام في ذينك الموضعيَن.وسكوتُه هنا حُجّةٌ نافيةٌ لأنه في مقام بيان منازل الطريق . وفي ذلك دليلٌ إضافيٌّ على دقته ، وتحرّيه الرواية عمّن يعرف صدقهم من الرُّواة .

في هذا المنزل التقى الإمامُ بصاحبه المُستشهد معه زُهير بن القين الجلي . ولهذا

---

١ ــ انظر ، مثلاً ، *الصحيح من مقتل سيّد الشهداء (ع) وأصحابه* / ٥٢٩ .

قصةٌ جليلةٌ تستحقُّ أن تُروى بكلِّ تفاصيلها ، لِما فيها من عِبرةٍ وجمال . خصوصاً أن من براعة راويها أبو مُخنف ، أنه في روايته للواقعة جمع بين روايتَي شاهدَي عيان . بحيث زوّدنا برؤيةٍ شاملةٍ لمشهد اللقاء . كما أنّها تزوّدنا بروايةٍ نادرةٍ على طريقة حصوله على مَرويّاته .

قال في الرواية الأُولى :

"قال أبو مُخنف [. . . .] عن رجلٍ من بني فزارة ، قال :

لمّا كان زمنُ الحجّاج [٩٥ ــ ١١٤ هـ / ٦٩٤ ــ ٧١٣م] كُنّا في دار الحارث بن ربيعة التي في التّمّارين [من محالّ الكوفة] ، التي أُقطعت بعدُ زهير بن القين من بني عمرو بن يشكر بن بجيلة . وكان أهلُ الشام لا يدخلونها . فكُنّا مُختبئين فيها . فقلتُ للفزاريّ ، حدّثني عنكم حين أقبلتم مع الحسين بن علي . قال ":

"كُنّا مع زُهير بن القين البجلي ، حين أقبلنا من مكة نُسايرُ الحسين . فلم يكُن شيءٌ أبغض علينا من أن نُسايره في منزل . فإذا سار الحسينُ تخلّفَ زُهير بن القين . وإذا نزل الحسينُ تقدّم زُهير . حتى نزلنا يومئذٍ منزلاً لم نجِدْ بُدّاً من أن نُنازله فيه . فنزل الحسينُ في جانبٍ ، ونزلنا في جانب . فبينا نحن جُلوسٌ نتغدّى من طعامٍ لنا ، إذ أقبل رسولُ الحسين حتى سلّم ثم دخل فقال ، يازهير بن القين ، إنّ أبا عبد الله الحسين بن علي بعثني إليك لتأتيه . قال ، فطرح كلُّ إنسانٍ ما في يده ، حتى كأنّ على رؤوسنا الطير".

الرواية الثانية تبدأُ من حيث انتهت الأُولى ، بحيث تكون الروايتان كروايةٍ واحدةٍ مُتصلة :

"قال أبو مُخنف [. . . .] فحدّثتني دَلهمُ ابنة عمرو امرأة زُهير بن القين ، قالت ":

" فقلتُ له، أيبعثُ إليك ابنُ رسول الله ثم لا تأتيه ، سبحان الله ! لو أتيتَه فسمعتَ كلامَه ثم انصرفت ؟! فأتاه زُهيرُ بن القين . فما لبث أن جاء مُستبشِراً قد أسفر وجهه . فأمر بفسطاطه وثقله ومتاعه فقُدِّم وحُمل إلى الحسين . ثم قال لامرأته : أنتِ

طالق فالحقي بأهلكِ ، فإنّي لا أُحبُّ أن يُصيبكِ من سببي إلا كلُّ خير . ثم قال لأصحابه : مَن أحبَّ منكم أن يتبعني ، وإلا فإنّه آخر العهد . إنّي سأُحدّثكم حديثاً : غزونا بلنجر [1] ففتح اللهُ علينا وأصبنا غنائم . فقال لنا سلمانُ الباهلي : أفرحتم بما فتح اللهُ وأصبتُم من الغنائم ؟ فقُلنا : نعم ! فقال لنا : إذا أدركتم شبابَ آل محمد فكونوا أشدَّ فرحاً بقتالكم معهم منكم بما أصبتُم من الغنائم . فأمّا أنا فإنّي أستودعكم الله [2].

هاتان الروايتان ، اللتان جمعهما أبو مُخنف ببراعة المالك لِحِسٍّ تاريخيٍّ مُرهَف ، حافلتان بصنوف الصُّور المشهديّة وأنواع الخطاب المُتبادَل ، ولذلك فنحن نراهما تستعصي على الوضْع وعمل الواضع ، مهما ملك من براعةٍ وخيال . الأمر الذي يشهدُ شهادةً قويّةً على صحتهما عند النّاقد .

لكنّ ما يُحرّك عجبنا وفضولنا في الرواية هو ، من أين لذلك الباهليّ هذا العلم الاستشرافي المُستقبلي بما سيكون من " **شباب آل محمد** " من قتال ؟ الذي كان تذكُّر زهير إياه ، أو بالأحرى تذكيره به من الإمام ، فيما يبدو ، أثناء ذلك القصير والمكتوم ، ذلك التأثير الانقلابي عليه ، بحيث انخلع من زوجته المُخلصة العاقلة المحبوبة ، ثم أعلن انضمامَه إلى ركب الإمام ، مع علمه بما يعنيه وسيؤدّي إليه ، بعد أن كان يجتنب مُجرّد لقائه . ومن ثَمّ ثباته معه إلى أن استُشهد بين يديه ؟

سلمان بن ربيعة الباهلي لا يُذكَر إلا بوصفه من رجال الدولة ، في تقلُّباتها . وكان له دارٌ في الكوفة ظلّت معروفة باسمه بعد وفاته بزمنٍ غير قصير [3] . ومن المُستبعَد جداً أن يصدر عنه كلامٌ كالذي نُسب إليه . لذلك فإننا نظنُّ ظنّاً يُتاخم اليقين أن صاحبَ زهير هو الصحابي سلمان الفارسي وليس الباهليّ، وأن الاسم قد ناله تصحيف

---

١ ــ مدينةٌ ببلاد الخزر / القفقاز (*معجم البلدان* : ١ / ٤٨٩) .

٢ ــ الطبري : ٥ / ٣٩٦ ــ ٩٧ .

٣ ــ انظر أخباره المنتشرة في غير جزءٍ من الطبري مُسترشداً بفهرست أعلام الكتاب مادة "سلمان بن ربيعة الباهلي" .

سببه ما قد ينال الذّاكرة حيث تتشابه الاسماء . يُعزّزُ ما ذهبنا إليه جملةُ اعتبارات :

ــ أنّ الباهليَّ بعيدٌ جدّاً عن أن يصدرَ منه ذلك الكلام ومثله ، بما فيه من رُؤيةٍ مُستقبِلة ، وولاءٍ لأهل البيت ، خلافاً لِما هو ثابتٌ ومعروفٌ عن سلمان الفارسي .

ــ ليس للباهليِّ إطلاقاً أدنى ذكر في تلك المعركة .

ــ أن سلمان الفارسي كان ممّن شهدوا فتح بلنجر[1].

إذن ، فهذا الخليطُ الثُّنائي من اسمين مُتشابهيَن هو الذي أدّى إلى اضطراب النّصّ . وبما يهمُّنا منه ، أدّى إلى حَرْف شرفِ تلك الرؤية العجيبة عن صاحبها الحقيقي سلمان الفارسي .

(١١) في (الضُّويجعة)

مهما يكُنْ فإنّ موكب الإمام تحرّك إلى أن وصل إلى (الضُّويجعة) حيث بئر ماء . وبذلك يكون قد قطع ثُلثا المسافة إلى الكوفة . وبقُرب هذا المنزل تلقّى خبرَ شهادة مسلم . وقد ساق أبو مُخنف الخبرَ على طريقته مُسنَداً مُفصّلاً . قال :

"حدّثني أبو جناب الكلبي ، عن عُديّ بن حرملة الأسدي ، عن عبد الله بن سُليم والمذاري بن المُشمعَلّ الأسديّان . قالا : "

"مّا قضينا حجّنا لم يكُنْ لنا من همّةٍ إلا اللحاق بالحسين في الطريق ، لننظر ما يكونُ من أمره وشأنه . فأقبلنا ترقلُ بنا ناقتانا مُسرعيَن حتى لحقناه بزَرود [موضعٌ قريبٌ من الضُّويجعة] **فلمّا دنونا منه إذا نحن برجلٍ من أهل الكوفة ، قد عدل عن الطريق حين رأى الحسين . فوقف الحسينُ كأنّه يُريدُه . ثم تركه ومضى ومضينا نحوه . فقال أحدُنا لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا فلنسأله ، فإن كان عنده خبرُ الكوفة علمناه . فمضينا حتى انتهينا إليه ، فقُلنا : السلامُ عليك ، فقال : وعليكم السلام ورحمة الله . قال : أسديّ! فقلنا : ونحن أسديّان ، فمَن أنت ؟ قال : أنا بكير بن المثعبة . فانتسبنا إليه ، ثم قلنا : أخبرنا عن الناس وراءَك ! قال : نعم ، لم أخرج من الكوفة حتى قُتل مسلم بن عقيل وهانيء بن عروة ، فرأيتهما يُجرّان بأرجلهما في السوق "** .

---

١ ــ انظر بما يخصُّ فتح بلنجر وكل ما علّقنا عليه من نصٍّ وتحليل : الطبري : ٤ / ٣٠٤ ــ ٣٠٥ .

والنصُّ بعدُ طويل . عرض فيه الأسديّان كيف أخطرا الإمامَ بالخبر الجلل ، وماذا دار من حوارٍ على الأثر ، لانرى من ضرورةٍ لبسْطه . ولكنّنا نجدُ أن من الضروريّ أن نُشير إلى أنّ بعض أصحاب الإمام خاطبه في المجلس بقوله : " **والله ما أنت مسلم بن عقيل . ولو قدمتَ الكوفة لكان الناسُ إليك أسرع** "[1]. ما يدلُّ على أن من أصحابه مَن كان لا يزال يعتقد أنّ أهل الكوفة لن ينفضّوا عنه إذ يرونه بينهم ، حتى بعد ما قد حصل من انقلاب أهلها ، وما ترتّب عليه من قتل مسلم وهانيء والتّمثيل بجسديهما ، وسط سكوت أهلها .

ونُلاحظ هناأنّه مع اقتراب موكب الإمام من الكوفة بدأت الأحداثُ تتسارَع . وذلك أمرٌ مفهوم ، لأن اقترابه منها يعني اقتراب الإمام من هدف رحلته . الأمر الذي يستدعي عملَ السُلطة كلَّ ما في وُسعها لمنعه . ولن نلبثَ أن نرى أنّ التّسارُع سيزداد وحجمُ الأحداث يكبُر كلّما تقدّم إلى الأمام . كما نُلاحظُ أن الموكب بمغادرته (الضُّويجعه) قد غادر المنطقة البادية ، ودخل في العُمران المُطيف بسواد العراق . وأوّله

(١٢) في (زُبالَة) .

وهي **"قريةٌ عامرةٌ بها أسواق"**[2]. وبوصوله إليها ، كان موكبُ الإمام قد غدا كبيراً ، بمَن انضمّ إليه أثناء الطريق من جُموع الاعراب . لِما كان للإمام من مكانةٍ عاليةٍ في النفوس بحيث **"ظنوا أنّه يأتي بلداً قد استقامت له طاعةُ أهلها [...] فكان لا يمرُّ بأهل ماء إلا اتّبعوه "** [3]. وقد يُضافُ إلى ذلك الظّنّ سببٌ آخر طريف ، هو اعتقادٌ شائعٌ فيما قيل بأنّ السلاح لايفعلُ فيه ولافي أصحابه. حتى قيل أنّ عبد الله بن عمرو بن العاص قال للفرزدق ، بعد أن علم أنّه التقى الإمامَ خارجاً من مكة:**"ويلك فهلاّ اتبعته**

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٢٩٧ ــ ٩٨ .

٢ ــ معجم *البلدان* : ٢ / ١٢٩ ــ ٣٠ .

٣ ــ الطبري : ٥ / ٣٩٨. والخبرُ لأبي مُخنف عن أبي علي الانصاري عن بكر بن مصعب المزني . وهذان لم يُذكرا في أسناد ابن مُخنف إلا هذه المرّة . ما نفهم منه أنّهما صادف أن شهدا ما روياه .

فوالله ليملُكنّ ، ولا يجوزُ فيه السلاح ولا في أصحابه ". وهو خبرٌ تافه لايستحقّ عناية.

في زُبالة علم الإمام بمقتل آخر رسوله إلى أهل الكوفة عبد الله بن بُقطُر ، الموصوف في المصادر بأنه أخوه من الرضاعة . ولكنّ صاحب الخبر لا يذكر مصدره . ونحن نُخمّن أن الخبر قد تحرّك بنفسه مع حركة الناس بين الكوفة وبين زُبالة . وبهذه الوسيلة وصل إلى الإمام مع نزوله القرية . يؤيّد ذلك أن الراوي ساق الخبر تحت عنوان **"سقط إليه مقتلُ أخيه"** و**"أتى الخبرُ حسيناً "** . وفيهما أُسند فعل السقوط والإتيان إلى الخبر . أي أنه لم يكُن عن راوٍ بعينه ، وإنما هو خبرٌ سائرٌ مع حركة الرّائحين والغادين .

ما أن تلقّى الإمامُ الخبرَ حتى جمع أصحابه ، ومَن انضاف إليهم أثناء الطريق . وتلا عليهم بياناً مُختصراً مكتوباً جاء فيه :

"بسم الله الرحمن الرحيم "

"أمّا بعد . فقد أتانا خبرٌ فظيع : قتلُ مسلم بن عقيل وهانيء بن عروة وعبد الله بن بُقطُر . وقد خذلتنا شيعتُنا . فمَن أحبّ منكم الانصراف فلينصرف . ليس عليه منّا ذمام[1] "

"فتفرّق عنه الناسُ ، فأخذوا يميناً وشمالاً . حتى بقي في أصحابه الذين جاؤا معه من المدينة "[2] .

نلاحظُ هنا أنّ هذه هي المرّة الوحيدة التي اعتمد فيها الإمامُ بياناً مكتوباً ، جرى إعدادُه سلفاً . والظاهر أنه أراد بذلك أن يوحي للسامعين بأن هذا الذي يقوله ليس كلاماً مُرتجلاً ابن لحظته . بل هو نتيجةُ تمعُّنٍ في الوضع الذي ينتظره وينتظرهم . فلا يتردّدُ أحدٌ باتخاذ القرار الذي يُناسبُ مقاصدَه ، بعد أن بيّن لهم حقائقَ الأُمور .

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٣٩٨ .

٢ ــ النّصّ مَرويٌّ عن مجهول . وهو يفتقرُ بشدّةٍ إلى الدِّقّة . ذلك أنّ من الثابت أن ممّن بقي معه إلى كربلا واستشهد معه مَن انضمّ إليه من مكة . وقد أتينا على ذكرهم واحداً واحداً في الباب الرابع من هذا الفصل . وسيذكر أبو مُخنف أنّ الأسديين قد رافقا الإمام أيضاً حتى شراف على الأقلّ .

" ثم سار حتى مرّ بـ

(١٣) في بطن العقبة

فنزل بها [1] **"** وهذه العبارة هي ما ختم بها ذلك الرّاوي المجهول نصّه الذي نقدناه في الهامش الأخير. وهي مثل ذلك النّصّ مُربِكة . ذلك أنّه ما من ذكرٍ لـ **" بطن العقبة "** فيما تحت يدنا من كُتُب البلدان ، وهي كثيرةٌ مُتنوّعة . ويقول ياقوت ، تحت عنوان **"واقصة"** ، أنها **" قبل العقبة لبني شهاب من طيّ "** . ما يُفهمُ منه أنها هي نفسها تلك العقبة . إذن فبطن العقبة وواقصة موضعان مُتقاربان . وما ذكرُ ذلك الراوي إياه بالخصوص إلا ربما لنقص معلوماته . بالمقابل ، فإن عدم ذكر أبي مُخنف الموقعَ إياه دليلٌ إضافيٌّ على تحرّيه الدّقّةَ والضّبط فيما يرويه .

هذا ، وإنّ خبر نزول الإمام هذا المنزل ، أيّاً كان ، هو آخر ما يذكره الطبري ، نقلاً عن أبي مُخنف ، من أخبار حركة الإمام في السنة ٦٠ هـ . ثم أنه ينسقُ نُزوله المنزل التالي في أخبار سنة ٦١ هـ . ونحن نفهم من ذلك أن رحيله عن بطن العقبة / واقصة كان في أواخر ذي الحجّة . أي أنه يكون قد أمضى على الطريق حتى الآن زهاء سبعةٍ وعشرين يوماً بالتمام والكمال . هذا إن صحّ ما رجّحناه أنّ خروجه من مكة حصل في اليوم الثالث من الشهر نفسه . المنزل التالي للموكب

(١٤) في (شراف)

موقعٌ غنيٌّ بالمياه . ولم يحدث فيه أمرٌ ذوبال. سوى أنّ الأمام أمر فتيانَه بالاستكثار من الماء ، مع أنّ المنازلَ تتقارب منذ الآن **"من شراف إلى واقصة ميلان "** [2] ، ولم تبقَ من ضرورةٍ لحمل الماء الكثير . ولكنّ ما سيحصلُ بعد قليل سيُثبتُ أن قرارَه كان في محلّه . فكأنه في هذا يتحرّكُ ويعملُ على خِطّةٍ مرسومةٍ في ذهنه بدقّة ، مَبنيّةٍ على ما سيكون قبل أن يكون . ومَبنيّةٍ أيضاً على معرفةٍ شاملة بجغرافيّة المنطقة وخصوصيّاتِها الطوبوغرافيّة . بل إنّ نفس نُزوله (شراف) يدعو إلى التّساؤل ، وهو

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٣٩٩ .

٢ ــ نفسه / ٤٠٠ .

القريب جدّاً من منزله السابق . فالظاهرُ أنّه ، وقد بات قريباً من الكوفة ، قد بدأ يتحرّك بحركاتٍ قليلةٍ مَدروسَة ، ويبني حساباته على الأسوأ . ومن ذلك الاستكثارُ من الماء ، على غير ضرورةٍ في حال سارت الأُمور على ما هو مَنظور . أمّا الباطن فالله به أعلم .

(١٥) لقاءُ موكب الإمام بعسكر الحُرّ

ما أن سار الموكبُ نصفَ نهار عن (شراف) حتى بانَ غيرُ المنظور ، إذ التقى بطليعة "هوادي" العسكر المُولَج بحفظ الطريق إلى الكوفة ، والحيلولة دون دخول الإمام إليها . وعليه الحُرُّ بن يزيد التميمي اليُربوعي ، الأشهر بنسبته (الرّياحي) ، الذي سيستشهدُ معه بعد أيّام . وبناءً على إشارة الشابيَن الأسديَين اللذين ذكرناهما غير مرّةٍ فيما فات ، تحوّل الموكبُ عن الطريق المرسوم إلى (ذو حُسَم) . وهو عبارةٌ عن تلالٍ رمليةٍ ممّا تكوّنه الرياح من رمال الصحراء . وما هذا التحوُّل إلا إجراءٌ دفاعيٌّ ــ قتاليّ ، أملته طوبوغرافيّة المنطقة ، وضروراتٌ تكتيكيّةٌ تعملُ على منع تطويق المُدافعين ومهاجمتهم من أكثر من جهة . ومن البيّن أن التلال الرمليّة الهشّة الصعبة العبور على الفرسان ، تؤدّي المُهمّة بنحوٍ ممتاز .

كان مجيء الحرّ بعسكره من ألف فارس ، ومن ثَمّ التقاؤه بموكب الإمام ، من ضمن خِطّةٍ مرسومةٍ بدقّة ، مركزُ عمليّاتها بالقادسيّة . أوكل ابنُ زياد أمرَها إلى صاحب شُرَطه. تضمّنت نشرَ"المسالح"، أي المجموعات العسكريّة القتاليّة الصغيرة السريعة الحركة، بخطٍّ طويلٍ مُستعرِضٍ مائل، مابين (القُطقُطانة) و(خَفّان) [1]. لتكون حاجزاً بشريّاً رادعاً . لكنّنا نلاحظُ أن عناصره أكثرُ بكثير ممّا يقتضيه توازنُ القُوى لصالحه مع الموكب الصغير المُنهَك القادم من مكة . فذلك يدلُّ على أنّه كان مايزال يخشى وُصولَ الإمام إلى الكوفة ، حتى بعد أن سيطر عليها هو سيطرةً شبه كاملة .

---

١ ــ القُطقُطانة موضعٌ قبل الكوفة لَمن هو قادمٌ من نجد ، إلى الغرب منها . وخَفّان قريةٌ قبال الكوفة إلى الشرق . والمسافة بينهما زُهاء ثلاث كيلومترات . انظر المادتين في معجم *البلدان* . فهذا يدلُّ على كثافة العسكر المُولج بالمهمّة ، وسعة المنطقة التي يُغطيها . يُضافُ إليهم الألفُ فارس وعليهم الحُرّ.

إلى هنا والأُمور تجري في سياق لُعبةٍ لوجستيّة ــ سياسيّة : ابنُ زياد ينشر عسكراً كبيراً . والإمام في المُقابل يتخذُ إجراءً دفاعيّاً مناسباً ، من ضمن الإمكانات المُتاحَة . في الحقيقة هذه عبارةٌ عن رسائل مُتبادلَة ، يخاطبُ كلٌّ منهم الآخَرَ بأنه لن يحيدَ عن موقفه ، وأنّه مُصمّمٌ على السّير به حتى النهاية .

لكنّ أمران حصلا ، أثبتا أن ثمّة أيضاً عناصر قد تكون مؤثّرة في مجرى الأحداث المُتوقّعة ، تأتي من خارج كلّ الحسابات . أحدها أتى من جانب الإمام . والثاني من الحُرّ.

وقف الحُرُّ قبال مضارب الإمام ، دون أن يأتي بحركة . لأنه كان مأموراً بالحيلولة بين الإمام ودخول الكوفة فقط . مع أنّ القوّة التي يقودها كانت ، بالنظر لعديدها، مؤهّلةً وأكثر لقتالٍ مضمون النتائج ضدّ الرجال الذين كانوا مع الإمام .

فمن ذلك نفهم أنّ قرار حسْم الأُمور عسكريّاً لم يكُن قد اتُّخذ بعدُ من ابن زياد . ربما بانتظار ما قدّ يجِدّ . ولقد عرفنا الرجلَ من قبل يحسب حساب مخرجه من المواقف ، بقدر ما يحسب حساب مدخله وزيادة .

أمر الإمامُ فتيانه بسقاية كلّ عسكر الحرّ الواقف أمامه في حرّ الظّهيرة ، ولم يكُن يحمل زاده من الماء . وبريّ ظمأ خيولهم بالمقدار الضروري " **أسقوا القوم وارووهم من الماء . ورشّفوا الخيلَ ترشيفاً** " . فكأنه ، إذ أمر فتيانه باستقاء تلك الكميّة الكبيرة من الماء في (شراف) عن غير ضرورةٍ كما قلنا ، ــ كأنّه كان يرى هذه اللحظة .

هاهنا روايةٌ جميلةٌ عن شاهد عيان ، عاين الواقعةَ وتأثّر بها . وها هو يروي لنا ما عاينه بعباراتٍ تنضحُ بالمودّة والعرفان .

"قال هشام [الكلبي] ، [عن أبي مُخنف] **حدّثني لقيط** [؟] **عن علي بن الطّعّان المحاربي** [من عسكر الحُرّ] : **كنتُ مع الحُرّ بن يزيد ، فجئتُ في آخر مَن جاء من أصحابه . فلمّا رأى الحسينُ ما بي وبفرسي من العطش قال : أَنِخْ الرّاوية** [وعاءٌ كبير من جلد البعير] . **ثم قال : أَنِخْ الجمل فأنختُه . فقال : اشرب ! فجعلتُ كلّما شربتُ سال الماءُ من السِّقاء . فقال الحسين: اخنث السّقاء! أي اعطفه . فجعلتُ لا أدري كيف**

أفعل . فقام الحسينُ فخنثه . فشربتُ وسقيتُ فرسي " [1] .

هذا النّصّ المُذهل ، بما فيه من خطابٍ ودودٍ من الإمام : **" ياابنَ أخي "** ، وبما فيه من عطفٍ ورعاية (سقايتَه للراوي المُحاربي بنفسه) ، هو آخرُ شيءٍ يمكن أن يُتصوّرَ حدوثه تجاه شخصٍ في وضع العدوان الصريح والتهديد الجِدّي . وإنّا وإن نكن لا ندري ما كان تأثير ذلك في العسكر . لكنّ مجرّد روايته ، على النحو الذي قرأناه ، لدليلٌ على تأثُّر الرجل بما لقيه من الإمام من مودّةٍ وعطف .

فذلك هو الأمرُ الأوّلُ من الأمرَين اللذين وعدنا القارئ ببيانهما .

أمّا الثاني فقد رواه أبو مُخنف بالنحو التالي :

حضرت الصلاة ، صلاة الظهر . فأمر الحسينُ الحجّاج بن مسروق الجُعفي أن يؤذّن فأذّن . ثم خرج الحسينُ وعليه إزارٌ ورداء ، مُحتذياً نعلين ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

" أيها الناس ! إنّها معذرةٌ إلى الله عزّوجلّ وإليكم . إنّي لم آتكم حتى أتتني كُتُبُكُم ، وقدمت عليّ رسُلُكم : أن أقدِم علينا ، فإنّه ليس لنا إمام . لعلّ الله يجمعنا بك على الهُدى" .

" فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم . فإن تعطوني ما أطمئنُّ إليه من عهودكم ومواثيقكم ، أقدمُ مصركم . وإن لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين ، انصرفتُ عنكم إلى المكان الذي أقبلتُ منه إليكم " .

فسكتوا عنه وقالوا للمؤذّن : **"أقِمْ الصلاة ! "** فقال الحسينُ للحُرّ : **" أتريدُ أن تُصلّي بأصحابك ؟ "** قال : **" لا ! بل نُصلّي بصلاتك "** . فصلّى بهم الحسين (ع) .

فلمّا كان وقتُ صلاة العصر أمر الحسين (ع) أصحابه بالتّهيؤ للرحيل . ثم خرج وأمر المؤذّن فأذّن ، وأقامَ وصلّى بالقوم أجمعين . ثم أقبل بوجهه على الجَمْع المؤتمّ به فحمد الله وأثنى عليه . ثم قال :

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٤٠١ .

" أيها الناس ! إنكم إن تتقوا وتعرفوا الحقَّ لأهله يكُنْ أرضى لله . ونحن أهلُ البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المُدّعين ما ليس لهم ، والسائرين فيكم بالجور والعدوان . وإن أنتك كرهتمونا وجهلتم حقّنا ، وكان رأيكم غير ما أتتني كُتُبكم وقدمت عليّ به رُسُلكم ، انصرفتُ عنكم " .

فقال له الحُرّ : **" والله ما ندري ماهذه الكُتُب التي تذكر "** .

فقال الحسين : **" ياعقبة بن سِمعان ، أخرِج الخرجين اللذين فيهما كُتُبهم إليّ !"** . فأخرج خُرجين مملؤين صُحُفاً فنشرها بين أيديهم . فلمّا رآها الحُرُّ قال : **" فإنّا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك . وقد أُمرنا إذا نحن لقيناك ألّا نفارقك حتى نُقدمك على عُبيد الله بن زياد** [1] **"** .

هل كان الحُرّ حقاً ليس له أدنى علم بتلك الكُتُب ، حتى أراه الحسين (ع) إياها ؟

الجواب عسير .

فمن جهةٍ ، إن قصّة تلك الكُتُب ، كما عرفنا ممّا سبق ، أنّها كُتبت وأُرسلت في الجو الاستبشاري الذي تلا وفاة معاوية ، والإرهاص بعودة دولة أهل البيت . فكتب المئاتُ من أهل الكوفة يدعون الإمام للقدوم إليهم، مقدّمةً لاستلامه السُلطة، في حالةٍ من التنافُس العلني المكشوف. فكان منهم مَن كتبوا تثبيتاً من عند أنفسهم ، وآخرون على سبيل أن يحفظوا لأنفسهم مكاناً ما في الدولة التي يرونها قادمة .

في هذا الجوّ من المُستبعَد جدّاً أن رجلاً من أهل الكوفة ، ومن أهل المكانة فيها ولدى الدولة ، ثم لا يكون عنده أدنى علمٍ بها .

ومن أُخرى ، فإننا في كل مانعرفه من أعمال ومواقف الرجل ، لم نرَه إلا صادقاً مُنسجماً مع نفسه ، حتى وهو في أعماله التي يُمليها عليه موقعُهُ في الدولة . ولم نرَه ممّن يتخذُ لنفسه سبيلاً بين السُّبُل الشّارعة، فيختارُ من بينها ماهو أحرى بمصلحته.

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٤٠٢ .

لذلك فإنّنا لانملكُ إلا أن نقولَ في الجواب : اللهُ أعلم ! .

مهما يكُن ، فإنّ القارئ اللبيب ، إذ يتمعّن في نصّي الخطابيَن ، وما استتبعا من مواقف ، سيرى دون صعوبة ، أنّهما ينطويان على سلوكٍ عالٍ مؤصّلٍ لدى الطرفين : الإمام والحُرّ . ولكنهما ينطويان أيضاً من جانب الإمام على خطابيَن وأُطروحتيَن مختلفتيَن ، مع أن الفاصل بينهما بضع ساعات ، وموجّهيَن إلى المُخاطبيَن أنفسهما .

بالنسبة لسُلوك الطرفيَن ، فإنّنا رأينا الإمام يبدأ بتلك الخطوة النّبيلة ، حيث سقى العسكر كلّهم ورواهم ، ورشّف خيولهم بمقدار الضرورة . مُعرّضاً نفسَه وأصحابَه لنفاد أو نقص مؤونتهم من الماء . وذلك أمرٌ خطيرٌ في ظلّ الوضع المُلتبس ، الذي قد يكون عليه وعليهم أن يواجهوه عن قريب .

والحقيقةُ أن المرء ، إذ يتأمّلُ فيما أقدم عليه الإمام ، ليملؤه العجب . عجبٌ من كمية الماء الوفيرة التي أمر فتيانه باستقائها وحملِها ، بحيث روت ذلك العدد الجمّ من العطشى . وعجبٌ أكبرُ من السبب الذي حدا به إلى تجشُّم عناء تحضيرها عن غير ضرورةٍ ظاهرة ، بالنظر إلى إلى أنه الآن بات بين منازل مُتقاربة غنيّة بمصادر الماء .

فكأنّه كان يعرفُ ما سيكون قبل أن يكون . وكأنّه قد أعدّ له عُدّته سلفاً أيضاً قبل أن يحصل ، بل قبل أن يكون مَنظوراً . والله أعلم .

تلك الخطوة النبيلةُ قابلها الحُرُّ عفواً بمثلها .

ذلك بأنّه صلّى وعسكرُه بصلاة الإمام . وهذا ينطوي على معنىً أدبيٍّ غير خفيّ . فالقاعدة وما عليه العملُ والنظام أن يؤمّ المُصلّين مَن له الأمر أو مَن يختارَه . والحُرُّ في موقعه الآن يُمثّل أعلى مسؤول رسميّ . إذن ، فهو إذ يُقدّمُ الإمام للصلاة ويُصلّي وعسكرُه بصلاته ، فهو يعمل بموجب تراتبيّةٍ مختلفة ، تتصلُ بأوليّة موقع الإمام في نفسه .وتضع الدولةَ ونُظُمَها في موقعٍ متأخّر .

أمّا بالنسبة للإمام فقد رأيناه في خطابيَه يطرحُ على الجَمع المُتحلّق من حوله أُطروحتيَن مختلفتيَن . الأمرُ الجامعُ بينهما ، أنه في نهايتهما عرض أن يعودَ إلى المكان الذي أتى منه ، أي إلى مكة . ونحن نرى أن هذا العرض شكليّ . وأنّ الإمام كان يعرفُ جيّداً

أنّ الأمرَ ليس بهذه البساطة . وعلى كلّ حال ، فإنّ الحُرُّ ما لبث أن ردّ عليه بسرعة ، بالقول أنه مأمورٌ بأن لا يُفارقه حتى يُقدمه ابنَ زياد . ولعلّه سارع إلى الرّدّ ابتغاء منع تأثير عرْض الإمام على عسكره ، إذ يُقدّم حلًّا سهلاً للأزمة الفعليّة يضعُ احتمال القتال خلفَه . مثله في هذا مثلَ أيّ ضابطٍ يحرص كلّ الحرص على انضباط جنده .

امّا بالنسبة لخطابَي الإمام .

فقد رأيناه في الخطاب الأوّل يوجّه الكلام إلى القوم بوصفهم من أهل الكوفة، الذين كتبوا إليه الكُتُب وبعثوا إليه الرُّسُل ، يُلحّون عليه بالقُدومَ إليهم . وأنّه لم يأتِ إلا إجابةً لطلبهم . أي أنّهم هم أصحابُ المُبادرة ، والمؤاخَذون في موقفهم الفعلي النُّكوصي . وبالتالي فإنهم مسؤولون أخلاقيّاً تجاهه ، ولا يحقُّ لهم أن يصدّوه . بل إنه هو الذي يُطالبهم الآن بتقديم الضّمانات الكافية ، كيما يُتابع طريقه إلى بلدهم . ومن الواضح أن هذا ضَرْبٌ من إلقاء الحُجّة . وربما أيضاً محاولةٌ لاستخراج آخر قطرةٍ من الشهامة لديهم ، ابتغاء دفعهم إلى مراجعة أنفسهم في وضعهم الظّالم . وقد عرفنا ممّا فات قبل قليل ، أن جوابهم لم يكُن إلا السكوت .

أمّا في الخطاب الثاني ، فقد رفع الإمامُ سقفَ خطابه ، لينفذَ إلى قلب المُعضلة السياسيّة التي يتخبّط فيها المُخاطَبون دون بصيرة . لافتقارهم إلى المقاييس التي يمنحُ المسلمُ على ضوئها ولاءَه لسُلطة ، أو يعترض على حاكمٍ جائر ، فيطلبُ منه أو يفرضُ عليه الاعتزال . وما قلبُ تلك المقاييس التي يفتقرون إليها إلا أهليّته هو لضمان إقامة دولة العدل .

هكذا تبدّلت أُطروحةُ الإمام ، إلى خطابهم بوصفهم عسكر السُلطة وأداتها إلتنفيذيّة . فعمدَ إلى بيان مسؤوليّتهم الأساسيّة عن تأييد ونُصرة مَن هو أولى بالولاية ، وحجبها عن السّائرين فيهم بالجور والعدوان . ومن الواضح هنا أيضاً ، أنّ سبب التحوُّل من المسؤوليّة الخاصة التي نشأت بالاستدعاء، إلى المسؤوليّة العامّة بوصفهم مسلمين ، أو على الأقل بشراً من مصلحتهم بسطُ العدل ، هو سكوت المُخاطبين بالخطاب الأوّل عن الرّدّ ، وما يعنيه من إنكارٍ وتنكُّر .

والظاهر أنه على أثر الرّدّ البليد الذي تلقّاه الإمام على خطابه الثاني ، جمع أصحابه في أحد الأخبية . فخطب فيهم خطاباً خاصّاً . رواه أبو مُخنف عن عُقبة بن أبي العيزار ، وهو شخصٌ مجهول ، يبدو أنّه كان من جملة العسكر ، بشهادة أنّ أبا مُخنف لم يروِ عنه إلا هذا الخطاب والذي يليه ، الأمر الذي يدلُّ أيضاً وأيضاً على الجهد الحثيث والتّتبُّع الشامل الذي بذله هذا الرّاوي ــ المؤرخ في سبيل جمع مادة كتابه . حتى لِمَن ليس يحمل إلا روايةً واحدةً .

والظاهر أنّ غرض الإمام من خطابه هذا . هو إزالة آثار خطابه الاعتذاري من أذهانهم . ذلك الخطاب الذي لا ينظر إلا إلى ظاهر الأُمور . ضرورةَ أنّ أداء التكليف لايُعفي صاحبَه من أن يتوسّل إليه بالوسيلة الأنجع لتحقيق المطلوب . فالإمام إذ خرج فإنّما ليؤدّي ماهو من واجبه وحقّه معاً . سيّان كان ذلك بطلبٍ من غيره أم بدونه . وما التذكيرُ بالكُتُب والرُّسُل إلا في سبيل تحريك ضمائر ونخوة أُولئك المساكين . كما نلمسُ من لغة الخطاب أنه أراد أيضاً تحضير أصحابه للأسوأ ، بعد أن بدأت معالمُه تظهر شيئاً فشيئاً .

ذلك الخطاب أعلن فيه الإمامُ يأسَه من الدنيا وأهلِها . بدأه بقوله :" **إنّه قد نزل من الأمر ما قد ترون** ". وختمه بالعبارة التي ستطير وتغدو من شعارات إحياء يوم عاشوراء : " **إنّي لا أرى الموتَ إلا شهادةً [خ.ل. سعادة] ، والحياةَ مع الظالمين إلا برما** "[١] .

ولقد فهم زُهيرُ بن القين فحوى ومغزى كلام إمامه . فعقّب عليه بقوله :

" **لقد سمعنا ، هداك اللهُ يا ابنَ رسول الله ، مقالتك . والله لو كانت الدنيا لنا باقيةً ، وكُنّا فيها مُخلّدين ، إلا أنّ فراقَها في نصرك ومواساتك ، لآثرنا الخروجَ معك على الإقامةِ فيها** "[١] .

تلا ذلك كلامٌ حادٌّ تبادله الإمامُ والحُرّ . لم يخرج فيه الحُرُّ عن حدود الأدب .

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٤٠٣ ــ ٤٠٤ . و / ٤٠٢ بالتوالي .

فبعد أن أعلن الإمامُ رفضه الاتجاه إلى الكوفة معه ، وأمر جَمعه بأ يركبوا ، حال الحُرُّ بينه وبين المسير . فقال له الإمام : " **ثكلتك أمُّك ! ما تُريد ؟** " . فقال : " **أما والله لو من العرب غيرَك قالها ، وهو على مثل الحالةِ التي أنت عليها ، ما تركتُ ذكرَ أُمّه بالثُّكلِ أن أقوله كائناً مَن كان . ولكن ، والله ، ما لي إلى ذكرِ أُمّك من سبيل إلا بأحسنِ ما أقدرُ عليه** " . وذلك جوابٌ يُبينُ معدنَ الحُرّ الطيّب ، الذي سيؤدّي به بعد أيام إلى أن يكون ، رضوان الله عليه ، في طليعة الشهداء بين يدي الحسين (ع) .

في نهاية الخطاب المُتبَادَل ، الذي وقف فيه الطرفان عند الجدود التي ليس بوُسع كلٍّ منهما أن يتجاوزَه ، طرح الحُرُّ حلًّا مؤقّتاً ، بأن قال :

" **إنّي لم أؤمر بقتالِك . وإنّما أُمرتُ أن لا أُفارقك حتى أُقدمكَ الكوفة . فإذا أبيتَ فخُذْ طريقاً لا تُدخلك الكوفة ولا تردُّكَ إلى المدينة . فتكون نصَفاً بيني وبينك ، حتى أكتبَ إلى ابن زياد ، وتكتبَ أنت إلى يزيد بن معاوية ، إن أردتَ أن تكتبَ إليه ، أو إلى عُبيد الله بن زياد إن شئت . فلعلّ الله إلى ذلك أن يأتي بأمرٍ يرزقني فيه العافيةَ من أن أُبتلى بشيءٍ من أمرك** " [1] .

هذا ، كما قُلنا ، حلٌّ مؤقّت ، وإن يكُن بعيداً جدّاً ، لِما تقتضيه المُراسلاتُ المُقترَحَة من زمنٍ طويل . ولكنّه أبعدَ العينَ عن المخرز قليلاً ، بانتظار أن يُجري كلٌّ منهما الاتصالات التي تُناسبه ، بحثاً عن مَخرَجٍ ثابت ، ينأى بالحُرّ عن مسؤوليّة القرار في أمرٍ يتعارضُ فيه ضميره مع موقعه .

لكن لن يفوتنا أن نلاحظَ بؤسَ أُطروحة الحُرّ ، بل وإلى حدٍّ ما سذاجته . حيث اقترح أو تصوّر أن يكتبَ الإمامُ من موقع ضعف ، وأن يرهنَ كلَّ حركته لإرادة عدوّيه ، الأمرُ الذي يجب أن يعرفَ صاحبُه كم هو بعيدٌ عن همّة المُخاطَب . والمصادرُ لا تقول ماذا كان جوابُ الإمام على هذا العرض الواهي . ولكنّ يؤخَذُ من سكوتها عنه أنه سقط فوراً. في حين أن الجزء العملاني منه ، اتخاذُ طريقٍ لا يُدخل الإمام الكوفةَ

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٤٠٢ .

ولا يردّه إلى المدينة ، قد جرى اعتماده دون اعتراضٍ مذكورٍ من الإمام .

(١٦) في (البِيضَة)

وعليه فقد انطلق الرّكبُ من (ذو حُسَم) مُتياسِراً ، مُبتعداً بُعداً إضافيّاً عن طريقه المرسوم . بعد التّحوّل السابق باتجاه (ذو حُسَم) الذي اقتضته اعتباراتٌ تكتيكيّةٌ دفاعيّة ، كما عرفنا . فاجتاز (العُذيب) فـ (القادسيّة) ، حيث مركز العمليّات الرئيس الذي أقامه صاحبُ شرطة ابن زياد ، ابتغاء التّصدّي للإمام والحيلولة بينه وبين الكوفة . ولنُلاحظ هنا أن مَن في مركز العمليّات لم يتدخّل فيما يجري ، تاركاً الإدارة العمليّاتيّة للحُرّ . ما يُقدّم دليلاً إضافيّاً على الثقة والاعتماد اللذين يوليهما إيّاه أولياءُ الأُمور . دون أن ينفي ذلك وجودَ تنسيقٍ بين القيادتيَن ، خفيَ على المؤرخ لأسبابٍ واضحة .

سار الرّكبُ والحُرُّ يُسايرُه إلى أن وصل إلى (البِيضَة) . **" ماءٌ بين واقصة إلى العُذيب "** [1]، يعني (عُذيب الهجانات) . وفيها خطب الإمامُ في الجمع الجامع لأصحابه وأصحاب الحُرّ ، ما نفهم منه ضمناً أنّهم نزلوه . وهو الخطابُ الثاني برواية عُقبة بن أبي العيزار . نقتبسه لِما فيه من أُطروحاتٍ جامعة ، نراها تطوّراً إضافيّاً في الخطاب الحسيني . ثم نُعلّقُ عليه بما يُضيءُ معانيه .

قال :

" أيها الناس ! إنّ رسول الله صلّى الله عليه قال: مَن رأى سلطاناً جائراً مُستحلاً لحُرم الله ، ناكثاً لعهد الله ، مُخالفاً لسُنّة رسول الله ، يعملُ في عباد الله بالاثم والعدوان ، ـ فلم يُغيّر عليه بفعلٍ ولا بقول ، كان على الله أن يُدخله مُدخَلَه " .

" ألا وإنّ هؤلاء قد لزموا طاعةَ الشيطان ، وتركوا طاعةَ الرحمان . وأظهروا الفساد . وعطّلوا الحدود . واستأثروا بالفيء . وأحلّوا حرامَ الله ، وحرّموا حلالَه" .

" وأنا أحقُّ مَن غيّر " .

"وقد أتتني كُتُبكم ، وقدِمتْ عليّ رسُلُكم ببيعتكم ، أنّكم لا تُسلموني ولا

---

١ ـــ معجم *البلدان* : ١ / ٥٣٢ . وهو تعريفٌ مُضلّلٌ ، يتجاهل (شراف) بينهما . ومثله كثيرٌ عند البلدانيين .

تخذلوني . فإنْ تمّمتُم عليّ بيعتكم تُصيبوا رُشدَكم . فأنا الحسين بن عليّ ، وابن فاطمة بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم . نفسي مع أنفُسكم . وأهلي مع أهليكم . فلكم فيَّ أُسوة . وإن لم تفعلوا ونقضتُم عهدي ، وخلعتم بيعتي من أعناقكم ، فلعمري ما هي لكم بنُكْر. لقد فعلتوها بأبي وأخي وابن عمّي مُسلم . والمغرورُ مَن اغترّ بكم . فحظَّكُم أخطأتُم ، ونصيبَكُم ضيّعتُم . ومَن نكثَ فإنّما ينكثُ على نفسه . وسيُغني اللهُ عنكم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته " [١] .

بنظرةٍ إجماليّةٍ ، الخطاب يحملُ تطوُّراً إضافيّاً بالقياس إلى خطابيَه السابقيَن ، وإنْ يكُنْ قد ذكّر بها أيضاً . ذكّر بمسؤوليّتَهم نحو أنفسهم كمسلمين وكبشر من مصلحتهم المؤكّدَة عملُ كل ما يلزم في سبيل إقامة دولة العدل ، ولاءً للعادل ، وتغييراً على الجائر . وذكّر بمسؤوليتهم نحوَه ، باعتبار أنّهم هم الذين كاتبوه يدعونه للقدوم إليهم وبايعوه بشخص مُسلم . وسنُفصّل الكلامَ على ما أجملناه .

الخطاب من أربعة مقاطع :

ــ الأوّل : في ما أوجب الله على لسان رسوله (ص) وجاه السلطان الجائر. أن يُغيّروا عليه . والتغيير يرِدُ في كلام الإمام بوصفه مُعطىً سياسيّاً ، يعني الرّجوع عن طاعته بعد أن كانوا منحوه إيّاها . وذلك بإعلان حرمانه من ولائهم ونبذ طاعته (أي ما يُسمّى في اللغة السياسيّة اليوم : العصيان المَدَني) ، وُصولاً إلى خلعه بالقوّة والقهر، إن لم يُجدِ الموقف . مع التنبيه إلى أنّ الإمام يروي كلام جدِّه بالمعنى فقال :" **مُخالفاً لسُنّة رسول الله"** . ضرورةَ أنه لو كان ينقله بلفظه لكان من حقّه أن يقول : وسُنتي .

ــ الثاني : ما دام الإمامُ قد رتّب هذه الاحكام على الكافّة ، فيلزم أن يُبيّن موضوعَها (السلطان الجائر) ، كيلا يختلطَ الأمرُ على المُكلّفين فيما هو مفهوم الجور ، وفيمَن هو السلطان الجائر ، مثلما هو بالفعل حالُ أكثر المُخاطَبين . وعليه فقد ساق في

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٤٠٣ . قال في طليعة الخطاب ما لم نقتبسه :" **إن الحسين خطب أصحابه وأصحاب الحُرّ بالبِيضة "** .

هذا المقطع من خطابه جُملةً من الصفات والأفعال ، التي تُشكّلُ بمجموعها معنى الجور وتُبيّن مَن هو الجائر .

ولا يذهبنّ بأحدٍ الظن نحو أنه ما من ضرورةٍ لذلك البيان المُسهَب ، ولتفصيلِ الكلام في بيان عناصر الجور عنصراً عنصراً ، لأن معنى الجور واضحٌ لا لَبْسَ فيه ، بحيث يكون خفيّاً على أحد . وهو ظنٌّ مُجانبٌ للصواب . لأنه وإن يكُن معنى الجور معلوماً إجمالاً ، ولكنّ الدّهاء السياسي بمعونة فقهاء السّوء قد عطّلوا المفهوم ومُحتواه عن العمل ، لحساب تغليب مفاهيم أُخرى وظيفتُها قمْعُ الناس قمعاً ذاتيّاً ، وردعهم عن كلِّ تغييرٍ على الجائر. من مثل مفهوم شقّ عصا المسلمين ، والسيرُ بالفتنة بينهم ، والخروج على طاعة وليّ الأمر. . . الخ. بحيث أنّ مَن يخرج يُطالب بحقّه في العدل ، يكون مُعرّضاً للمُلاحَقة ، وإنزال أشدّ العقاب به ، تحت عنوانٍ من تلك العناوين أو غيرها ، وما أكثرَها .

بهذا البيان يبدو لنا ذلك المقطع من خطاب الإمام عملاً إحيائيّاً تجديديّاً لمفاهيم أصيلةٍ في الإسلام ، بعد أن عدا عليها تحالُف ساسة وفقهاء السوء فعطّلوها وجعلوها كأنها لم تكُن . ومن هنا تتأتّى الأهميّةُ الفائقةُ لهذا المقطع في ذلك الموقف .

ــ الثالث : قوله : " **وأنا أحقُّ مَن غيّر** " . الذي نقرأُ فيه أن الإمامَ في خروجه يمتثلُ للتكليف الذي بيّنه في المقطع الثاني بوصفه تكليفاً عامّاً يشمله . بل هو أحقُّ بالامتثال ، والأمرُ عليه أوجب ، لِما له من مكانةٍ بوصفه سليلَ بيت النُّبوّة . وبوصفه الآهل للسّيرِ فيهم بما يسيرُ فيه المرءُ في مصالح نفسه وأهليه " **نفسي مع أنفُسكم . وأهلي مع أهليكم** " . ثم بما له من موقعٍ عالٍ عند عموم الناس ، بحيث لم يجدوا غيرَه ملجأً ومرجعاً وقائداً حين استدعوه تحت شعار "**ليس علينا إمام** " .

ــ الرابع : وفيه التّذكير بما له من بيعةٍ في أعناق المُخاطبين ، وعبرهم في أعناق الأُلوف الكثيرة من قومهم ، الذين بايعوه قبل قليل بشخص مُسلم . مع ملاحظة أنه ضمناً يطرح البيعة بوصفها عقداً بين طرفيَن، يسقطُ موجبُه عن الإمام بنكول المُبايعين عن نصيبهم من مُقتضى البيعة . ومن هنا أنهى خطابَه بالقول أنّهم هم الخاسرون بنكولهم

" **فحظَّكُم أخطأتُم ، ونصيبَكُم ضيّعتُم** . **ومَن نكثَ فإنّما ينكثُ على نفسه** " . أي أنّهم بنكولهم قد ضيّعوا على أنفسهم فرصتَهم الأخيرة في الخلاص ، بعد أن غدوا مكشوفين تماماً للسُلطة . وبات من حقه أن يقطع معهم ، إذ أنهى خطابه بأن قال :" **وسيُغني اللهُ عنكم** " . فكأنّ الإمام في قوله : " **فحظَّكُم أخطأتُم ، ونصيبَكُم ضيّعتُم** " كان ينظرُ إلى المُستقبل القاتم الذي ينتظرُ الكوفةَ عن قريب ، حيث عانت من صنوف الاضطهاد أيّام عبد الملك وواليه عليها الحجّاج . بسبب عدم ثبات موقفها السياسي بين انتفاضٍ وخمود، قد يصِلُ إلى حدِّ النكوص ، وهلم جرّا . ممّا يخرجُ بسْطُ الكلام عليه عن غرضنا من هذه الإشارة .

كان من تأثير هذا الخطاب ، وخصوصاً ما أنهاه به الإمامُ من إنذارٍ وقطْع ، أن يئس الحُرُّ من استمالته إلى وُجهة نظره السّاذجة ، القاضية بمُفاوضة يزيد أو ابن زياد . عسى أن يُنقذه ذلك من مأزقه ذي الوجهيَن . كان الرجلُ مُوزّعَ النفس بين مطلبيَن مُتضادّيَن . مطلب الحفاظ على موقعه بوصفه قائداً عسكريّاً مُعتمَداً في المُهمّات الجليلة . ومطلب أن لايُبتلى بشيءٍ من أمر الإمام ، على حدِّ ما قال . فطفق يخوفّه ، وهو يُسايره في الطريق عن قُرب . وكان من قوله : " **إنّي أُذكّرك اللهَ في نفسِك . فإنّي أشهدُ لئن قاتلتَ لتُقتلّنّ . ولئن قوتلتَ لتهلكنّ فيما أرى** " . وكان من جواب الإمام إيّاه : " **أفبالموت تُخوّفني ؟! وهل يعدو بكم الخطبُ أن تقتلوني ؟!** " [١].

فلمّا سمع منه الحُرُّ ما قال تنحّى عنه . فكان يسيرُ بأصحابه في ناحية ، والحسين (ع) وأصحابه في ناحيةٍ ، حتى انتهوا إلى

(١٧) في (عُذيب الهجانات) .

وهي " **ماءٌ بين القادسيّة والمُغيثة** " [٢] .

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٤٠٤ . والخبر هو تتمّة رواية أبي مُخنف عن عُقبة بن أبي العيزار .

٢ ــ معجم *البلدان* : ٤ / ٩٢ . تحديدٌ مُضلّلٌ أيضاً . القادسيّة قريبةٌ على مسافة أربعة أميال من (عُذيب الهجانات) إلى يمين القادم من نجد . أمّا (المُغيثة) فبعيدة على إثنين وثلاثين ميلاً منها . على يسار القادم.

في (عُذيب الهجانات) التحق برَكب الإمام أربعةٌ من أهل الكوفة . خرجوا منها مُتسللين ، بحيث احتاجوا في مسيرهم إلى دليل يدلّهم على الطريق الآمن . مع أن الموضع قريبٌ جدّاً من بلدهم ، بحيث يمكن القول أنه من ضواحيه . وما سبب حاجتهم لدليلٍ يوصلهم إلى الإمام ، إلا لأنه خبيرٌ بالمسالك الخلفيّة غير المَسلوكَة ، وربما أيضاً بمواقع المسالح التي نشرها ابنُ زياد ابتغاء منع وُصول الإمام إلى الكوفة ، ووُصول مَن يريد الالتحاقَ به من أهلها . وقد ذكرنا أسماء أُولئك الأربعة حيث وقفنا على أسماء الذين وصلوا معه إلى كربلا. وللتّذكير نقول ، أنهم مُجمّع بن عبد الله العائذي، وابنه عائذ ، وعمرو بن خالد الصّيداوي الهمْداني ، وجُنادة بن الحارث . وكان معهم فرسٌ لنافع بن هلال الجملي ، الذي نُذكّر أيضاً أنه خرج من قبلُ للقاء الإمام ، فلقيه وسار معه من (ذو حُسَم) .

امّا الدليل فاسمه الطِّرمّاح بن عديّ ، الذي سنجِدُ له ذكراً بعد قليل . ولكنّه لم ينضمّ إلى رَكب الإمام هذه المرّة . ما يدلُّ على أنّه عاد إلى حيث أتى بعد أن أدّى مُهمّتَه بإيصال الرجال الأربعة وفرس نافع إلى المَقصَد .

الواقعة تنطوي على أمرٍ هامّ ، لسنا نجِدُ عليه أدنى إشارةٍ في المصادر . هي أنّه على الرُغم من التدبيرات الدقيقة الواسعة التي اتخذها عُبيدُ الله بن زياد ، ابتغاء منع التّواصل بين الإمام وأهل الكوفة ، فإن صاحبه نافع بن هلال وجد سبيلاً لإيصال رسالةٍ إلى مَن ينبغي أن تصِلَ إليه ، يطلب فيها إرسالَ فرسه الخاصّ المُسمّى بالكامل ، استعداداً للقتال مع الإمام . ما يدلُّ على أنّ التصميمَ على القتال بات هو الغالب ، بعد ذلك الخطاب القطعيّ للإمام ، وما استتبعه من الحُرّ . كما أنّها تدلُّ على أنّ أُولئك الأربعة، الذين نجحوا في التّسلُّل من الكوفة للإلتحاق بالإمام ، كانوا أو كان دليلُهم يعرفون أين هو بالضّبط . فقصدوه حيث كان .

فهذان دليلان على أنّ أخبارَ ما كان يجري إلى جوار الكوفة كانت تخترقُ الموانعَ التي اصطنعها ابنُ زياد . وذلك ، على كلّ حال ، أمرٌ مفهومٌ . ضرورةَ أنّه من شبه المُستحيل على أيّ سُلطةٍ ، مهما تملُك ، أن تأخذَ كلَّ الدُّروب على كلّ الناس . بل إنّهم

سيجِدون بين ذلك سبيلا .

ما أن رأى الحُرُّ أُولئك الأربعةَ القادمين من الكوفة ينضمّون إلى الإمام ، حتى اعترض فقال للإمام : " **إنّ هؤلاء النّفَر الذين من أهل الكوفة ، ليسوا ممّن أقبلَ معك . وأنا حابسهم** [مانعهم] **أو رادُّهُم** " . فأجابه : " **لأمنعنّهم ممّا أمنعُ منه نفسي . إنّما هؤلاء أنصاري وأعواني . وقد كنتَ أعطيتني ألّا تعرضَ لي بشيءٍ حتى يأتيكَ كتابٌ من ابن زياد** " فقال : " **أجل ! ولكنّ هؤلاء لم يأتوا معك** " قال : " **هم أصحابي . وهم بمنزلةِ مَن جاء معي . فإنْ تمّمتَ عليّ ما كان بيني وبينك ، وإلا ناجزتُك** " اي قاتلتُك .

فهذا دليلٌ إضافيٌّ على ما قُلناه فيما فات على انسجام الحُرّ مع نفسه ، بحيث يلبس الدّورَ الذي تتطلّبُهُ الحالةُ التي هو فيها دون مُداورَة أو مُواربَة . ولكنّه حين هدّده الإمامُ بالقتال تراجع فوراً ، لأن قتاله يتعارضُ مع ضميره ، ولا يُمكن أن يُقدِمَ عليه . هنا جذورُ تحوّله البطولي إلى الاستشهاد مع الإمام ، حين سقطت كلُّ الخيارات على قاعدة التسوية ، ولم يبقَ إلا خيارُ القتال مع أحد الفريقيَن ، فاختار ما فيه قضاء الحق وما يُمليه عليه ضميرُه . والظاهرُ أن الإمام كان يعرفُ جيّداً تركيبةَ الرجل . فلجأ إلى حَسْم الجدال بما هدّده به فانحسم فوراً .

في (عُذيب الهجانات) تلقّى الإمامُ نبأ مقتل رسوله قيس بن مُسهّر الصّيداوي الأسدي .

ذلك أنّه ما أن انتهى السّجالُ مع الحُرّ وجلس إلى القادمين ، حتى سألهم عن خبر الناس وراءهم ، فأجاب مُجمّع العائذي : " **أمّا أشرافُ الناس ، فقد أُعظِمَت رشوتُهُم ، ومُلئت غرائرُهم . يُستمالُ ودُّهُم ، ويُستخلَصُ به نصيحتُهُم . فهم إلْبٌ [جَمْعٌ] واحدٌ عليك . وأمّا سائرُ الناس بعدُ ، فإنّ أفئدتهم تهوي إليك ، وسيوفهم غداً مشهورَةٌ عليك** " . قال : " **فهل لكم علمٌ برسولي إليكم ؟** " قالوا : " **مَن هو ؟** " قال :" **قيس بن مُسهّر الصيداوي** " . فأخبروه بشهادته بأمرٍ من ابن زياد [1] .

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٤٠٥ . هنا تفصيل شهادة قيس البُطوليّة لَمن يرغب .

في عُذيب الهجانات أيضاً تلقّى الإمامُ أفضلَ عرْضٍ للنُّصرة ، بل هو أكثرُها ذكاءً وجِدّيّة .

ذلك إذ أتاه الطّرمّاح بن عَديّ الطّائي ، الذي عرفناه قبل قليل دليلاً لأولئك الأربعة المُتسلّلين من الكوفة ، طلباً للالتحاق برَكب الإمام ، ولكنّه فارقه بعد أن أوصلهم إلى مقصَدهم . وها هو الآن ، وقد تأثّر بموقف الإمام الخطير ، يعود من ذات نفسِه وقد نسج في ذهنه عَرْضاً يراه مُحكَماً ، كفيلٌ بأن يُخرجَه ممّا هو فيه . قال :

" والله إنّي لأنظرُ فما أرى معك أحداً . ولو لم يُقاتلك إلا هؤلاء الذين أراهم مُلازميك لكان كفى بهم . وقد رأيتُ قبل خروجي من الكوفة إليك بيوم ظهرَ الكوفة ، وفيه من الناس ما لم ترَ عيناي في صعيدٍ واحدٍ جَمْعاً أكبرَ منه . فسألتُ عنهم فقيل : اجتمعوا ليُعرَضوا ثم يُسرّحون إلى الحسين ".

" فأُنشدُك الله إن قدرتَ على ألّا تقدم عليهم شبراً إلّا فعلت . فإن أردتَ أن تنزلَ بلداً يمنعُك اللهُ به حتى ترى رأيك ، ويستبينَ لك ما أنت صانع ، فسِرْ حتى أُنزلك مناعَ جبلِنا الذي يُدعى أجأ . امتنعنا والله به من ملوك غسّان وحِميَر ، ومن النُّعمان بن المُنذِر ، ومن الأسود والأبيض[خ.ل. الأحمر والأبيض]. والله إن دخل علينا ذُلٌّ قط . فأسيرُ معك حتى أنزِلكَ القرية . ثم نبعثُ إلى الرجال ممّن بأجأ وسُلمى من طيء . فوالله لا يأتي عليكَ عشرةُ أيّام حتى تأتيكَ طيء رجالاً ورُكبانا. ثم أقِمْ فينا مابدا لك . فإنْ هاجكَ هَيجٌ فأنا زعيمٌ لك بعشرين ألف طائيٍّ يضربون بين يديكَ بأسيافهم . والله لا يوصَلُ إليك أبداً ومنهم عينٌ تطرُف " .

فقال له الإمام : **" جزاك اللهُ وقومَك خيرا . إنّه كان وبين هؤلاء القوم قولٌ لسنا نقدرُ معه على الانصراف "** [1] .

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٤٠٦ . والخبرُ رواه أبو مُخنف ، عن جميل بن مَرثد من بني معن (بطنٌ من طيء)، عن صاحبه الطّرمّاح . أنه **" دنا من الحسين فقال له "** . وجميل من أصحاب عدي بن حاتم الطائي صفيّ أمير المؤمنين (ع) . انظر : نفسه : ٣ / ٣٦٥ .

لماذا لم يستجِب الإمام العَرْضَ ، مع أنّه يبدو قويّاً . ومع أنّه ثمرة تأمُّلٍ مخلِصٍ ومعرفةٍ دقيقةٍ وشاملةٍ بموضوعه ؟

الجوابُ عسيرٌ لأنه يقتضي معرفةً بكامل المُواصفات التي حشدها الطّرمّاح في أُطروحته . المُواصفات الموضوعيّة لقبيلته الكبيرة ومواطنها ، فضلاً عن تاريخها الجيّد إجمالاً مع أمير المؤمنين (ع) ، تبدو مُقنِعَة . ولكن ما شأن وضعها السياسي الحالي . وهل يمكن أن نتصوّر أن معاوية لم يعمل عليها مثلَ ماعملَ على التشكيلات القبائليّة الكبرى ، ابتغاء تفتيت تركيبتِها الصّلبة ، فلا تكون في وضعٍ يؤهّلها لموقفٍ موحّدٍ ، قد يكون ضدّه في يومٍ من الأيام ؟

وعلى كلّ حال ، فإنّنا سنقرأُ الأُطروحةَ قراءةً تحليليّةً ، ترمي إلى كشْفِ ما قد ينكشفُ لنا من خبيئها .

التّساؤلُ الأوّل ينظرُ إلى جِدّيّة الطّرمّاح ، وإلى قدرتِه على الوفاء بالالتزامات الكبيرة التي ضمّنها عرضَه . ومن الغنيّ عن البيان ، أنّ هذين الاعتبارَين الأساسيّيَن هما أوّلُ ما ينبغي الأخذ به في قبول أو ردّ أيَّ عرْضٍ كبُرَ ام صغُر . فكيف بمثل الأمر الكبير الذي يعالجه .

ولقد رأينا الرجلَ قبل قليل يعملُ دليلاً . وإنّا وإنْ نكُنْ نقدّرُ عالياً غيرتَه ، واهتمامه بوضع ما بسطه من خِطّة ، لكن من المعلوم أنّ هذه المهنة أو المُهمّة هي ليست ممّا يعملُ أو تُوكَلَ إلى مَن في وُسعه أن يُحرّك عشرين ألف سيف ، فيما زعم . كما أنّ من المعلوم أنّ طيء قبيلةٌ كبيرةٌ واسعة الانتشار ، كما لا تزال . عليها عشراتُ الرؤساء المحلّيّين في مواطن انتشارها . لكلٍّ من أُولئك الرؤساء مصالحه وشبكة علاقاته ، التي في قلبِها السُلطةُ السياسيّة . ومن التّمَحُّل أن نتصوّرَ أنّهم جميعهم سيتنازلون ببساطةٍ عن مصالحهم ، وعن امتيازاتِ مواقعِهم ، وعن مُقتضيات شبكة علاقاتهم المَربوطة بالسُلطة ، فيدعمون قضيّةً عادلةً ، وإن يكُن على رأسِها الإمامُ الحسين (ع) ، قياماً بذمّة شخصٍ عاديٍّ من القبيلة . هذا ، مع ملاحظة أن عديدَ طيء في الكوفة لم يكُن قليلاً . ومنه عشيرةُ بني الأخزم ، التي ينتمي إليها سيّدُ طيء في الكوفة عديّ بن حاتم . ولكنّنا

لم نرَ أحداً منهم يتقدّم لنُصرة الإمام ، وهو الذي كان ، إذ عرضَ الطّرمّاح خطّتَه ، بأمسِّ الحاجةِ إليها .

ثم كأنّه لم يكُنْ يرى الموقعَ الدقيق الذي في قلبِه الإمام ، وهو يتحرّكُ تحت نظر الأعيُن اليقظِة والحراسةِ المُشدَّدةَ للحُرّ وعسكرِه ، الذي يفوقُ عسكرَ الإمامِ بمرّات . وكأنّهم سيتركونه يذهبُ حيث يشاء .

لكلّ ذلك ، فيما نحسَب ، أجابه الإمام ذلك الجواب التّخلُّصي ، الذي أنهاه بأن " **لسنا نقدرُ على الانصراف** " ، وهو بالفعل لم يكُنْ قادراً ، لكن ليس فقط وبالتّأكيد لـ " **إنّه كان بيننا وبين القوم كلام** " . وإنما أيضاً ، بل بالدرجة الأُولى ، للإعتبارات الموضوعيّة التي ذكرناها .

في نهاية ذلك المطاف الحزين مضى الإمامُ وصحبُه ، حتى انتهى بهم المسير إلى

(١٨) في(**قصر مُقاتِل**) [١] .

وموقع القصر في شمال غرب الكوفة .

ولم يحصل فيه ما يُذكَرُ ،سوى لقاءَه عُبيدَ الله بن الحُرّ الجُعفي .

يروي أبو مُخنف قصّةَ اللقاء عن المُجالد بن سعيد ، وقد عرفناه قبلُ من رُواة الطبري ، عن عامر بن شراحيل الشّعبي ، وهو أيضاً من كبار رُواتِه [٢] . قال :

" **إنّ الحسين بن علي رضي الله عنه** [لمّا رأى فسطاطَ الجُعفي] **قال : لَمن هذا الفسطاط؟ ، فقيل : لعُبيد الله بن الحُرّ الجُعفي . قال : أُدعوه لي ! وبعث إليه . فلمّا أتاه الرسولُ قال : هذا الحسين بن عليّ يدعوك . فقال الحُرّ : إنّا لله وإنّا إيه راجعون ! والله**

---

١ ــ في المصادر " **قصر بني مُقاتل** " ، ولكنّه في معجم *البلدان* " **قصر مُقاتل** " . وهو الصحيح . ومن الشواهد على ذلك ، بالإضافة إلى ياقوت ، ما ذكره من قول شاعرٍ من بني أسد ، أي أنه من أبناء المنطقة :

كأن لم يكُن بالقصر قصرِ مقاتلٍ وزُورَةُ ظلٍّ ناعمٍ وصديقُ

٢ ــ انظر ثبتاً برواياته الكثيرة عنه في فهرست أعلام الكتاب ، مادة " عامر بن شراحيل الشعبي " .

ما خرجتُ من الكوفة إلا كراهةَ أن يدخلَها الحسينُ وأنا بها . والله لا أريدُ أن أراه ولا يراني . فأتاه الرسولُ فأخبره . فأخذ الحسينُ نعليَه فانتعل . ثم قام فجاءه حتى دخل عليه، فسلّمَ وجلس . ثم دعاه للخروج معه . فأعاد إليه ابنُ الحُرّ تلك المقالة . فقال : فإلّا تنصرُنا ، فاتّقِ اللهَ أن تكونَ ممّن يُقاتلُنا ، فوالله لا يسمعُ أحدٌ واعيتنا ثم لا ينصرُنا إلا هلك . قال : أمّا هذا فلا يكونُ أبداً إن شاء الله " [1] .

ولقد بنى غيرُ مؤلّفٍ على ماجرى في اللقاء صورةً سيّئةً جدّاً للجُعفي . منها أنّه خرج إلى معاوية ، وقاتل معه في صفين ، وأنه نهب أموالاً وقطعَ الطريق [2] . ممّا لم نجِد له ذكراً في *وقعة صفين* للمنقري ، ولا لدى الطبري عن أبي مُخنف . مع أنّ المصدرَين في الهامش أدناه زعما أنهما أخذا مانسباه إليه من أعمالٍ شنيعة عن ذينك المصدرَين !

نعم ، خطابه للإمام يدلُّ على أنه من ذلك الأُنموذج من الرجال الذي يسيرُ بحساب ويقِفُ بحساب . يمنحُ اعتبارَ سلامته ومصلحته مكاناً رحباً فيما يُقدِمُ عليه أو ينأى عنه . ومن الواضح أن هذا النّمط من الشخصيّة لا يُنتج شهداء يبذلون حياتهم في سبيل مَن وما يؤمنون به . ولكنّ من دأبه أن يربأ بنفسه عن مواطن الذُّلّ والهوان .

من هنا رأينا الرجلَ يخرجُ من بلده الكوفة ، نأياً بنفسه عن أن يضطرّ إلى الخِيار بين أمرَين ، كلاهما خاسرٌ عنده بمعنى . فلا هو يُقدِمُ على نصرة الإمام ، لأنّه يخوضُ معركةً خاسرةً حتماً بالمقاييس التكتيكيّة . ولا هو يُعرّضُ نفسه لأن يشرُك في دم الحسين (ع) ، ابن بنت رسول (ص) ، لأنه عملٌ خاسرٌ أيضاً باعتباراتٍ أُخرى . ومن ثَمَّ اكتفى بأن عرضَ على الإمام أن يُعطيه فرسَه الذي **" ما طلبتُ عليه شيئاً إلا أذقتُهُ حياضَ الموت** ، [وأن يعطيه] **سيفَه الذي ما ضربتُ به إلا قطعتُ "** [3] . وطبعاً رفض

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٤٠٧ .

٢ ــ *أنساب : ٧/ ٣١*. وانظر ، مثلاً ، *مقتل الحسين* للمُقرّم / ١٨٨ و الطبسي : *وقائع الطريق إلى كربلاء* ،ط. قم ١٤٢١هـ : ٣ / ٢٧٦ .

٣ ــ *أنساب* : ٧ / ٣٠ .

الإمامُ العرضَ الرّخيص .

هنا نلاحظُ أنّه لم ينهَ الإمام عن أن يُتابعَ ما بدأه بخروجِه ، كما فعل كلُّ الذين حاوروه من موقعٍ أو غيرِه . وكأنّه بذلك يقولُ ضمناً أنّه معه من حيث المبدأ ، ولكنّ حساباته تحول بينه وبين أن يكون في صفِّه عمليّاً .

النقطةُ المُضيئةُ في سيرة الجُعفي أنّه ندم بعدُ أشدّ النّدم على ما فرّط من أمر نفسه ، يومَ حجب نُصرته عن الإمام . وله في التعبير عن ندمه شعرٌ في الذّروة بمعانيه ، هو من أوائل الشعر الحسيني ، الذي نظمه أصحابُه يوم كان جرح كربلا ما يزال ينغرُ بالدّم . فأودعوه حزنهم ورعبَهم من الجريمة المُهولَة . كما أودعوه رؤيتَهم وفهمَهم ورجعَهم على الحدث الكربلائي . وبذلك أتى شعرهم يختزن ثروةً لا تُقدّر بثمنٍ من المعلومات عن اتجاهات الناس ، وعن رجعهم وفهمهم للحدَث وأبعاده. وقد جمعناه وقرأنا ما فيه من دلالاتٍ ومغازي ، ومن ضمنه طبعاً شعر صاحبنا ، في كتابنا القادم إن شاء الله *أوائلُ الشعر الحسيني البُكائي* .

ثم أنه حين نهض المُختارُ ، تحت شعار الاقتصاص من الذين شركوا في دماء الشهداء يوم كربلا ، وجدها فرصةً يُكفّر فيها عمّا قصّر ، فانضمّ إليه ، وقاتلَ معه . وله في ذلك شعرٌ يُعبّر فيه عن الاثنين معاً . يُعبّر فيه عن ندمه المُقيم ، ويُعبّر فيه عن احتفاله باليقظة بعد الغفوة ، وبالتّكفير بعد الذّنب ، حيث قال :

ولمّا دعا المُختارُ للثأر أقبلت كتائبُ من أشياع آل محمدِ
وقد لبسوا فوقَ الدّروع قلوبَهم وخاضوا بحارَ الموت في كلّ مشهدِ
همُ نصروا سبطَ النبيّ ورهطهِ ودانوا بأخذِ الثأر من كلّ مُلحدِ
ففازوا بجنّاتِ النعيم وطيبِها وذلك خيرٌ من لجينٍ وعسجدِ
ولو أنّني يومَ الهياج لدى الوغى لأعملتُ حدَّ المشرفيّ المُهنّدِ
ووأسفا أن لم أكُنْ من حُماتهِ فأقتلُ منهم كلَّ باغٍ ومُعتدي[1]

---

١ ــ جواد شبّر : *أدب الطّفّ* ، ط. بيروت ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م : ١ / ٩٩ .

(١٩) الحركةُ الأخيرةُ نحو كربلا

لم يستقرّ مقامُ الإمام في قصر مُقاتل غير سواد ليلةٍ أو أقلّ . فلمّا كان آخر الليل ارتحل تحت الحراسة المُشدّدة للحُرّ وعسكره .

ومن الواضح للقارئ أنّ مسيرَه الآن قد غدا إلى غير ما مقصَد ، وأنّه كلّما تقدّم ازداد بُعداً عن الكوفة . ليس بعدها إلا مزارع مُتناثرة حول فرعٍ صغيرٍ لنهر الفرات، ما يزالُ يُعرفُ حتى اليوم باسمٍ مُعبِّرٍ (الحُسينيّة) . وما ندري متى وكيف اكتسب ذلك الاسم ، الذي يُذكّر بالحسين ومنعه من وُروده . يعمرُها حتى اليوم أيضاً مُزارعون من قبيلة بني أسد الكبيرة . ومع ذلك فإنّ الإمامَ ما يزال يملك قرارَ الرّحيل أو النُّزُول . فإذا ارتحل العسكرُ بارتحالِه ، وإذا نزل نزل العسكرُ معه .

فلمّا أصبح نزل فصلّى الغداة ، ثم عجّل الرُّكوب . فطفق يتياسرُ بأصحابه ، يريدُ أن يُفرّقهم . فيأتيه الحُرُّ فيردُّهم . **" فجعل إذا ردّهم باتجاه الكوفة ردّاً شديداً ، امتنعوا عليه فارتفعوا "** [١] .

فكأنّ الإمام أراد بمسيره المُبكّر ، ثم بتياسُره بأصحابه نحو الكوفة ، أن يمنحهم ، أو مَن يرغبُ منهم ، فرصةَ التّسلُّل والنجاةَ بنفسه في عتمة الثُّلُث الأخير من الليل . فكان الحُرُّ يردّهم يميناً ردّاً شديداً . وبذلك يُضيّقُ الخناقَ عليهم ، ويضبطُ مَسيرَهم . فيمنع اتجاههم إلى الكوفة أو التّسلُّل بعيداً .

مضى الأمرُ على هذا المنوال حتى انتهوا إلى (نينوى / كربلا) .

والأوّلُ من الاسميَن اسمٌ تاريخيٌّ على منطقةٍ شاسعة [٢] . حيث نهضت منذ الألف الخامس قبل الميلاد الدولةُ الأشوريّة ، عاصمتها مدينة (نينوى) . تتداخل مع

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٤٠٨ . والخبر برواية أبي مُخنف ، عن عبد الرحمن بن جُندُب الأزدي ، وهو من كبار رُواة الطبري . انظر ثبتَ رواياته عنه مُستهدياً بفهرست أعلام الكتاب ، مادة **" عبد الرحمن بن جُندب الأزدي "** الكوفي ، عن عُقبة بن سِمعان .

٢ ــ في معجم *البلدان* : ٥ / ٢٣٩ : **" وبسواد الكوفة ناحيةٌ يُقالُ لها نينوى . منها كربلا التي قُتل فيها الحسين رضي الله عنه "** .

منطقةٍ تاريخيّة أُخرى ، هي (بابل) الكلدانيّة ، التي نهضت بعدها غيرَ بعيد .

بينما كانت هذه اللُّعبةُ تمضي على قدمٍ وساق ، كانت عيون عُبيد الله بن زياد ترصدُ ما يجري ، وتُخطِرُ به أميرَها أولاً بأوّل . فلمّا وصلوا إلى (نينوى) إذا براكبٍ أتى من جهة الكوفة ، فوقفوا جميعاً ينتظرون وُصولَه . فلمّا انتهى إليهم سلّمَ على الحُرّ وأصحابه ولم يُسلّم على الإمام وأصحابه . ثم دفع إلى الحُرّ كتاباً جاء فيه :

" أما بعد ، فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابي ، ويقدم عليك رسولي ، فلا تُنزِله إلّا بالعَراء ، في غير حصنٍ وعلى غير ماء . وقد أمرتُ رسولي بأن يلزمك ولا يُفارقك حتى يأتيني بإنفاذِ أمري . والسلام " [١] .

الكتابُ إجمالاً يدلُّ على أن الحُرّ قد خسر الآن ما كان له من منزلةٍ صادقةٍ عند ابن زياد ، ولم يعُدْ موضعَ ثقته . وذلك ، فيما يبدو ، بسبب لُيونته مع الإمام وصحبه . مع أنّ الرجلَ كان يبذلُ جهداً صادقاً في الالتزام كعسكريّ بما أُمر به ، ممّا ذكرناه سابقاً في الكلام على موقع (ذو حُسَم) . مع الحِرص الشديد منه على أن لايوصلَه ذلك إلى حدّ الابتلاء بدم . ذلك هو، فيما نحسب ، ما لم يعُدْ يكفي ابن زياد ، بعد أن وصلت الأُمورُ إلى الحَسْم الذي لن يكونَ إلا دمويّاً . وما أمرُه إياه بأن يجعجع بالحسين ، أي بأن يُلزِمَه الجعجاع ، يعني المكان الضيَق الخشن ، أو أن يُزعجه أو يحبسه (وهذا المعنى الأخير هو مانُرجّحه ، وشاهده قول الحُرّ لأصحاب الحسين بعد قليل : **" أمرني أن أُجعجعَ بكم في المكان الذي يأتيني فيه كتابُه "**) ، ــ ما أمرُهُ ذاك إلا تمهيدٌ للمعركة التي كان يُخطّطُ لها في ذهنه ، يرمي إلى إنهاك أصحاب الإمام ، والأخذِ من روحهم المعنويّة .

كما هو مُتوقّع ، أربك التدبيرُ الجديد الحُرَّ ، بل وضعَه في موقعٍ مُحرِجٍ أمام الحسين(ع) وأصحابه . حيث أنّه بات مُلزَماً باتخاذ تلك الإجراءات بحقّهم، خلافاً لِما عوّدهم عليه حتى الآن . فكان منه أن تلا عليهم الكتاب ، إعذاراً إليهم ، وليعلموا أنّ الأمر قد خرج من يده ، بوجود عين ابن زياد ، المُكلّف منه بمراقبة تنفيذ أوامره .

---

١ ـ الطبري : ٥ / ٤٠٨ . والخبرُ ، بما فيه نصُّ الكتاب ، كسابقه من حيث الرواية والرّاوي .

وعليه فقد أخذهم بالنُّزول حيث هم ، إذ لا ماءَ ولا قرية . فقالوا :" **دعنا ننزلُ في هذه القرية ، يعنون نينوى ، أو هذه ، يعنون الغاضريّة ، أو هذه الأُخرى ، يعنون شُفَيّة** " . فقال : " **واللهِ ما أستطيع ذلك . هذا رجلٌ قد بُعِث إليّ عينا** " ! . فسأل الإمامُ زهيرَ بن القين : " **وأيُّ قرية هي ؟** " ، قال : " **هي العَقْر** [1] " . فقال الحسينُ (ع) : " **اللهم إنّي أعوذُ بك من العَقْر**" [2]. فقال زُهيرُ بن القين : " **بأبي أنت وأُمي يا ابنَ رسول الله ! والله لو لم يأتِنا غيرُ هؤلاء لكان لنا فيهم كفاية . فكيف بمَن يأتينا من غيرِهم ؟! فهلمّ بنا نُناجزُ هؤلاء ، فإنّ قتالَ هؤلاء أيسرُ علينا من قتال مَن يأتينا من غيرِهم !** ". فقال الحسين : " **إنّي أكرهُ أن أبدأَهم بقتالٍ حتى يبدأوا** " [3]. ثم نزل . وذلك يوم الخميس ، الثاني من المُحرّم ٦١ هـ / ١٢ تشرين الأوّل ، أُكتوبر ٦٨٠ م . فلمّا كان الغدُ قدِمَ عليهم عُمرُ بن سعد في أربعة آلاف .

---

١ ــ في *معجم البلدان* : ٤ / ١٣٦ : " **عقرُ بابل قُرب كربلا ، من الكوفة** " .

٢ ــ والإمامُ يعني هنا الكلمةَ في أصل اللّغة . يُقال : عقر الفرس أو البعير ، قطع قوائمَه . (انظر : تاج العروس : ٧ / ٢٤٦ ــ ٤٧ ، مادة " عقر ") .

٣ ــ *الأخبار الطِّوال* / ٢٥١.

الفصلُ السّادس

كـــربـلا

(١) إجراءاتُ ابن زياد السياسيّةُ والتّعبويّة

كان ابنُ زياد يُدرك فظاعةَ الأمر الذي هو مُقبلٌ عليه ، وما ينطوي عليه من مخاطر جمّةٍ . فالحسين (ع) ، وإن يكُن الآن يُعاني من خذلان أهل الكوفة له ، ما أمكنه أن يُخضِعَه لإرادته ولتدبيراتِه القاسية ، ومع ذلك فإنّ الحسينَ (ع) يبقى هو مَن هو في مكانته خصوصاً بين أهل الكوفة ، لايعدِلُ الناسُ به أحداً في الحجاز وفي العراق . ولا يُدرى متى يُشفى الناسُ من قهرِ ابن زياد فينهضون عليه . ثم قد يكونُ هو في طليعة مِن يناله انتقامُهم . كما سيحصلُ بالفعل ، وإن بعد فوات الأوان .

لذلك فإنّه اتخذ دائماً ، سياسيّاً وقتاليّاً ، وخصوصاً قتاليّاً ، تدبيراتٍ وحشْداً أكبر بكثيرٍ ممّا تقتضيه حساباتُ ميزانِ القُوى في المعركة المُنتَظَرَة .

أثناء الأيام الثّمان ، الفاصلة بين نُزول الإمام ساحة كربلا وبين شهادته ، حصلت سلسلةٌ من المُبادرات والتدبيرات المُتوالية . بدأها ابنُ زياد بإطلاق نفيرٍ عامٍ ، ألزم الناسَ دون تمييز (العُرفاء والمناكب والتُّجّار وعامة السُّكان) بأن يخرجوا متأهّبين للقتال ويُعسكروا بالنُّخيلة ، تحت طائلة قتل كلِّ مَن يتخلّف . "فالتحق كلُّ مُحتلِمٍ بالعسكر بالنُّخيلة" [١] .

هنا يبدو لنا استنفارُ التُّجّار سابقةً غير مفهومة . لأنه لم يحصل أن جرى استدعاؤهم للقتال والجهاد من قبلُ بهذا العنوان المهني . فضلاً عن أنّهم لم يكونوا يُشكّلون عديداً في الكوفة يبرّر استدعاءَهم بالخصوص . هذا ، بالإضافة إلى أنّ ذلك يطرحُ سؤالاً عن سبب عدم استنفار أصحاب المِهن لأُخرى ، وفي طليعتهم الحدّادون

---

١ ـ *أنساب* : ٣ / ٣٨٧ . ونحن نرى في عبارة البلاذُري هذه صِرْفَ انطباعٍ شخصي ، كتبه تحت تأثير انفعاليّ . سنرى ممّا سنقوله بعد قليل أنّه غير دقيق .

الكثيرون مثلاً ، الذين كانوا قطاعاً هامّاً في المدينة ، بل وفي أيّ مدينةٍ إسلاميّةٍ غيرها في ذلك الأوان ، لأنّ من مهامِّهم الرئيسة إصلاح وشحذ وصقل السلاح ، ومن هنا كانوا يُسمّى أحدهم بـ (الصّيقل) . ولم يبدُ لنا وجهٌ مُقنِعٌ يُفسّرهذا التّغييب لهم ، إلا ربما في أنهم سيكونون موجودين في ميدان القتال عفواً دون الحاجة إلى الاستنفار ، ولكن بصفتهم المهنيّة وليس كمُقاتلين ، عملهم صيانة وإصلاح الأسلحة التي تتعرّض للثّلوم والالتواء في المعارك العنيفة .

إنّ من المفهوم إجمالاً ، أن إطلاق ما سمّيناه النفيرَ العام ، عن غير ضرورةٍ قتاليّةٍ ، في مُقابل العديد الضئيل نسبيّاً الذي هم مُنتدَبون لقتاله ، يدلُّ على أنّ ابن زياد كأنّه يعمل بجِدّ واجتهاد على توريط أكبرِ عددٍ ممكنٍ من أهل الكوفة في الجريمة المَهولَة التي هو مُقدِمٌ عليها ، ابتغاءَ توزيع المسؤوليّة وتضييع الغريم . فلا يأتي مَن يؤاخذه عليها غداً ، بوصفه حَصْراً المسؤول عن ارتكابها . وبالفعل فإننا نجدُ حتى اليوم رأياً عامّاً يُنددُ بأهلها دون تمييز ، وكأنّ خروجهم لقتال الإمام كان عن اختيارٍ حُرّ ، وليس تفاعُلاً مُعقّداً ، ساهم فيه هشاشةُ وضعِها السُّكّاني وضمناً السياسي ، بالإضافة إلى دور الأشراف البالغ الأثر ، وإلى سطوة الدّولة المَصحوب بالتهديد بالإفقار بحجب الاعطيات ، وإنزال العقاب الشّديد بكلِّ مَن يُخالف أوامرَها .

ومع كلّ التدبيرات التي اتخذها ابنُ زياد ، فإنّ الذي يبدو لنا ، ممّا سنبسطُ الكلامَ عليه عن قريب ، أنّ بقيّةً من روح المُمانعَة تجاه الدولة وتدبيراتِها المُتوالية ، كان ما يزالُ يسكنُ ضميرَ أهل الكوفة ، ويُملي عليهم إستجابةً أدنى من المُتوقَّع لأوامر ابن زياد ، المَصحوبَة بصنوف التهديد والوعيد . بحيث بات عليه أن يتّخذَ تدبيراتٍ إضافيّة .دليلُنا على ذلك ، أنّه ما أن التأم جمعُ الذين عسكروا في النُّخيلَة ، حتى صعد المنبر وخطب فيهم خطاباً طويلاً حافِلاً ، بدأه بأن نوّهَ بمعاويةَ وكرمه في بذل الأُعطيات للمُقاتلة ، وبجَمْعه لكلمةِ الأُمّة ، وأنّ ابنَه يزيد هو خليفتُه والعاملُ بسياستِه . وختمه بأن أعلن أن سيّده أمره بزيادة أُعطياتِهم مائةً مائة ، أي مائة درهم

لكلِّ مَن هو مُسجّلٌ في ديوان المُقاتِلة [1].

من الواضح أن ابن زياد رمى في خطابه الطويل إلى أمرين مُتكاملَين:

ــ الأوّل : شرعيّةُ خلافة معاوية ، عبرَ التنويه بسياسته في رعاية المُقاتِلَة ، الذي يشملُ ضمناً المُخاطَبين الآن . وأن ابنه إذ أمر بزيادة الأعطيات لم يكُنْ يعدو مأصّله أبوه من سياسةٍ أبيه قبلَه .

ــ الثاني:أولويّةُ جمْعِ كلمة الأُمّة ، في مُقابل كلِّ الذين يعملون على تفريق كلمتِها . وهذا كلامٌ ينظرُمن طَرْف إلى خروج الإمام الحسين (ع) ، بزعمه أنّه تفريقٌ للكلمة . وبالتالي فإن الذين عسكروا الآن ، هم موجودون حيث يجِبُ عليهم أن يكونوا .

ومن الواضح أنّ هذا الشّطرَ الذي جعلناه ثانياً ممّا علّقناه أعلاه على الخطاب ، كان موجّهاً إلى النفوس المُتوجّسَة ممّا نُدبوا إليه تحت طائلةِ التهديد بالعقاب الشّديد . بإيهامهم أنّهم إنّما يؤدّون واجباً تجاه الأُمّة حين يُلِمُّ بها خطرٌ وشيك .

ومع ذلك أيضاً . مع كلِّ ما سبق من وعيدٍ وتهديد ، ثم ما تلاه من إغراءٍ وتلعابٍ بالضمائر والعقول ، ومن إيهامِ أصحابها بأنّهم إذ يُعسكرون لقتال سبط رسول الله (ص) هم على صواب ، ــ مع ذلك ، فإن ابن زياد ما لبث أن استنفر ظهيرَه من الأشراف ، نخصُّ منهم : كثير بن شهاب الحارثي ، ومحمد بن الأشعث الكندي ، والقعقاع بن سُويد المنقري التميمي ، وأسماء بن خارجة الفزاري ، فأمرهم أن يطوفوا بأنفسهم على عشائرهم الكبيرة ، ليأمروهم بالطاعة ، ويُخوّفوهم عاقبةِ العصيان ، بأن يخرجوا مع الخارجين إلى النُّخيلَة [1]. وقد ضرب كثير بن شهاب المثلَ الأعلى بالسّعي لحشد أكبر عددٍ من قبيلته مَذحج ، دون كبير نتيجةٍ فيما يبدو ، جرّاء غضبِها من قتل كبيرِها هانيء بن عروة بأمرٍ من ابن زياد .

ثم أنّه عيّنَ أحد الأشراف ، هو القعقاع المذكور أعلاه ، صاحبَ الشرطة ،

---

١ ــ *أنساب* : ٣ / ٣٨٨ .

وأوكل إليه تفقُّد أحياء الكوفة على الخيل ، ليضبُطَ المُتخلّفين عن العسكرة ، وإنزال العقاب بهم . فما كان من الناس إلا أن اختفوا في بيوتهم ، بحيث أن صاحبَ الشُرطة لم يقع ، أثناءَ جولاته الدّائبة ، إلا على رجلٍ من همْدان غريبٍ عن الكوفة ، جاء يطلب ميراثاً له فيها ، فجاء به إلى ابن زياد فقتله [1] ، لا لذنب جناه ، بل فقط ليجعلَ منه عبرةً لكلّ مُتخلِّف . كما أرسل إلى واليه على القادسيّة ، صاحبَ شرطته سابقاً ، الحُصين بن تميم التميمي ، فأتاه إلى النُّخيلة في أربعة آلاف .

فكلُّ ذلك يدلُّ على أنّ ابن زياد لم يُوفِّر جُهداً ، في سبيل حشد أكبر عددٍ مُمكنٍ مُمكنٍ من المُقاتلين لقتال الإمام . وأنّ أهل الكوفة إجمالاً لم يخضعوا للسَّوْق إلى قتالِه ، إلا إذا لم يجدوا منجىً من السُلطة وأدواتِها ، وفي رأسها الأشراف طبعاً . وسنقفُ بعد قليل على أدلّةٍ إضافيّةٍ على الأمرين معاً .

ترأّس ابنُ زياد المُعسكِرين في النُّخيلة بنفسه . وطفق يُرسل منها المُقاتلين إلى كربلا . مع الحِرْص الشديد على أن تكون كلُّ دفعةٍ بقيادة أحد الأشراف ، لأنهم وحدَهم دون غيرهم موضع ثقته ، بأنهم سيصلون بمَن معهم إلى المَقصَد ، فلا يفرُّ أو يفرّون أثناءَ الطريق . ومن ذلك أنه أرسل الحُصينَ بن تميم بمَن أتى بهم من القادسيّة . وأرسل إلى كربلا حجّارَ بن أبجر العجلي في ألف . وأرسل شبثَ بن ربعي في ألفٍ أيضاً . وأرسل يزيدَ بن الحارث بن رويم في ألفٍ أو أقلّ .

ومع ذلك ، فإنه لم يكُن يصِلُ من كلّ ألفٍ إلا ثلاثمائةٍ أو أربعمائة أو أقلُّ منهم " **لكُرههم مُحاربة الحسين** " [2] . وفي ذلك الدليلُ الإضافيُّ الذي وعدنا به القارئ ، على ما قُلناه قبل قليل، على مُمانعة أهل الكوفة عن الدخولِ في أمر السُلطة ومقاصدِها ،

---

١ ــ *أنساب* : ٣ / ٣٨٧ . ومن الجدير منّا بالملاحظة أن الطبري لم يُسنِد عن أبي مُخنف أي ما له علاقةٌ بما بسطناه من تدبيرات . بل قفز مباشرةً إلى شأن عمر بن سعد ، ممّا سنقِفُ عليه بعد قليل . ونخالُ أن السبب في ذلك أنه لم يقع على مِن يروي له أخبارَها ، لسببٍ أو غيرِه .

٢ ــ نفسه . ونُعلّقُ على المعلومة بمثلِ ما علّقناه على سابقتِها .

خِلافاً لِما يقضي به ضميرُهم .

كما جعل المَناظِرَ على الكوفة ، ورتّبَ المسالحَ من حولها ، كي يمنعَ التحاقَ أحدٍ من أهلِها بالإمام . وجعل عليها زُحْر بن قيس الجُعفي . وهو من الأشراف ، عُرِفَ بولائهِ المُطلَق للدولة الأُمويّة [1] .

في ختام هذا العَرْض لتدبيرات ابن زياد وحشْده للمعركة ، وما ترتّب عليها ، نذكرُ أنّه في النُّخيلة جرت المُحاولةُ الثانيةُ لاغتياله [2]، بعد المُحاولة السّابقة ، أو بالأحرى التّخطيط للإغتيال ، الذي عرفنا فيما سبق أنه كان من تدبير بعض زعماء الشيعة في الكوفة ، الذين هيّأوا وأعدّوا له قبل شهرين تقريباً ، ولكنّه سقط للأسباب التي قُلناها فيما سبق .

بطلُ المُحاولة هذه المرّة أحدُ المُقاتلة الذين عسكروا في مَن تعسكر في النُّخيلة، إسمه عمّار بن أبي سلامة الدّألاني ، نسبةً إلى دألان ، بطنٌ من همْدان . وهو صحابيٌّ له رُؤية ، أي أنّ صُحبته تقتصرُ على أنّه رأى النبي (ص) فقط . وكان من أصحاب أمير المؤمنين (ع) . وشهد معه وقائعَه الثلاث . المُحاولةُ فشلت [3] ، وإن نكُن لا نعرف كيف حصلت ، ولا لماذا فشلت ، لأن البلاذري يسوقُ خبرَها بسرعة ، لسببٍ غير معروف . ولكنّ بطلها نجح في النجاة بنفسه إلى كربلا ، على الرُّغم من الموانع الجمّة التي وضعها ابنُ زياد على الطرق المُوصلة إلى كربلا ، لتحولَ دون وصول أحدٍ من أهل الكوفة إليها ، فوصل إليها حيث التحق بإمامه ، ما يدلُّ على شجاعته وسَعةِ حيلته ، وبقي معه إلى أن استُشهد بين يديه [4].

---

١ ــ ايضاً : ٥ / ٢٦٣ .

٢ ــ أيضاً : ٣ / ٣٨٨ .

٣ــ *أنساب* : ٣ / ٣٩٠ .

٤ ــ محمد السّماوي : *إبصار العين في أنصار الحسين* ، ط.إيران ١٤١٩هـ / ١٣٣ ــ٣٤ . وذكره ابن حجر في *الإصابة* : ٥ / ١١٣ بأنه " **أتى الحسينَ في الطفّ وقُتل معه** " .

بعد كلّ تلك الإعدادات بقي أمرٌ أخير . هو مَن الذي ستكون له الإمرةُ على الجيش ، بحيث تكون له من الصّفةِ والمكانةِ ، ما هي محلُّ إطباق الكافّة ، ثم تكون المكانة عابرةً للتّشكيلات القبائليّة المُمثّلة في الكوفة، ما يمنحه بقيادته إيّاه قسطاً من الشرعيّة . وقد عرفنا ممّا سبق ، أن هذا الشأن أو المطلَب ، كان محلَّ اهتمامٍ خاصٍّ من ابن زياد . أي أنّه بهذه الاعتبارات لا يصلحُ لها أحدٌ من الأشراف الكثيرين المُستميتين معه ضدَّ الإمام . لأنّ كُلًّا من هؤلاء إنّما يستمِدُّ مكانته الحصريّة من وضعه في قبيلتِه . ولا يُمكن أن تعبُرَ إلى غيرِها . بل ربما سيكون توليتها أحدَهم بمثابة استفزازٍ للآخَرين ومَن وراءَهم .

هنا وقع نظرُ ودهاءُ ابن زياد على عمر بن سعد بن أبي وقّاص . باعتباره جامعاً لكلّ الصفات المطلوبة . فهو قُرشيٌّ ، وابن صحابيٍّ معروف لايُنكره أحدٌ ، كان قد شهد المشاهد كلّها مع رسول الله (ص) ، فضلاً عن أنه هو من سكَنَةِ الكوفة وأشرافها ، وإن تكُن شرفيّته غير مُستندةٍ إلى ثقلٍ سُكّانيّ ، بل إلى شرف نسبه . مثلُهُ في هذا مثل عمارة بن عقبة بن أبي معيط الأُموي . كلُّ ذلك ، فضلاً عن أنّه صادف أنّ ابن سعد كان يرئسُ بالفعل جيشاً لجباً من أربعة آلاف من مُقاتلة الكوفة ، كان في سبيله للرّحيل إلى بلاد الديلم لمُقاتلة أهلها في قُرى (دَستَبي) ، بين الرّيّ (موقعُها اليوم في ضواحي طهران) وهمذان [1] ، بعد أن ثاروا وغلبوا عليها . كما كان ابنُ زياد قد عهد إليه بالولاية على الرّيّ .

بذلك كلِّه اجتمعت في عمر بن سعد كافة المواصفات والعناصر المطلوبة ، من شخصٍ رفيع النّسَب ، وعسكرٍ جاهز مُتهيّئٍ للقتال وأدواتِه تحت إمرته ، ووسيلةٍ للضغط عليه للقبول بالمُهمّة الشنيعة . وعليه فقد أمره ابنُ زياد بتحويل مُهمّة عسكره ، الذي كان آنذاك مُرابطاً في (حمّام أعيَن) بجوار الكوفة ، ليتوجّه بمَن تحت إمرته فوراً إلى كربلا لقتال الحسين (ع) ، على أن يحظى ، بعد أن يؤدّي مهمّتَه ، بحَبّةِ عينِه ، أي

---

١ ــ معجم *البلدان* :٢ / ٥٤٤ ، مادة " دَستَبي " .

بالولاية على الرّيّ **"سِرْ إلى الحسين . فإذا فرغنا ممّا بيننا وبينَه ، سِرْتَ إلى عملِك "**[1] .

في البداية استهولَ عمرُ الأمرَ ، فطلب من ابن زياد أن يُعفيه . ولكنّ هذا كان يعرفُ جيّداً موضعَ ضعفِ الرجل ، فقال : " **نعم ! على أن تردَّ علينا عهدَنا** " ، يعني بتوليته على الرّيّ . فاستمهله وانصرف إلى استشارة نُصحائه . وجاءه ابنُ أُخته حمزة بن المُغيرة بن شُعبه ، فنهاه أشدَّ النهي ، وكذلك غيرُه .

في النهاية عمل ابنُ سعد مع ابن زياد على أن يَشرُكَ معه في الإمرة عدداً من أشراف الكوفة ، سمّاهم له . رامياً بذلك إلى توزيع ثقل الجريرة ، فلا يكونُ وحدَه موضعَ الإدانة والمُؤاخَذَة . فما كان من الأمير إلا أن أجابه جوابَ غيرِ مُكترثٍ به ولا بعَرْضِه : " **لا تُعلمني بأشراف أهل الكوفة . ولستُ أستأمرُك فيمَن أُريدُ أن أبعث . إن سِرْتَ بجندنا ، وإلا فابعث إلينا بعهدنا** " . قال : " **فإنّي سائر** " . " **فاقبل في أربعة آلاف حتى نزل بالحسين من الغد من يوم نزل الحسين نينوى**[2] " . أي في اليوم الثالث من المُحرّم .

نعرفُ من مُجمل هذه المُلابسات جملةَ أُمور :

ــ الأوّل : أنه كان من المعلوم عند الكافّة ، والذي كان مَدارَ الحِراك السياسي والتّعبوي ، وأيضاً مَدارَ النقاش بين مَن اتصلوا بمجرى الأحداث ، وعالجوا أمرَها أو بعضَه بدرجةٍ أو بأُخرى ، أن بُغية فريق السُلطة وظهيرِه من الأشراف ، إنما هو القضاء على حركة الإمام الحسين (ع) ، بالقضاء عليه شخصيّاً . ذلك هو ما عناه ابنُ زياد بـ " **الفراغ ممّا بيننا وبينه** " . وذلك هو ما كان موضع تحذير نُصحاء ابن سعد ، وخصوصاً فيما قاله له ابنُ أُخته حمزة : **"والله لأن تخرج من دنياك ومالك وسُلطان الأرض كلِّها لو كان لك ، خيرٌ لك من أن تلقى الله بدم الحسين "**[3] .

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٤٠٩ . والرواية للطبري عن أبي مُخنف ، عن عبد الرحمان بن جُندُب الأزدي ، وهو من كبار رُواة الطبري ، عن عقبة بن سمعان . وهي أطولُ روايات عقبة . ما يُفهَمُ منه أن الأزدي كان شديد الاهتمام بتسجيل ما وعاه عقبة ، بحيث جلس إليه طويلاً يسمعُ منه .

٢ ــ نفسه .

ـ الثاني : أنه حتى اليوم الثالث من المُحرّم ، وتكامُلِ وُصولِ أكثرِ العسكر المَرصود لقتال الإمام وأصحابه بعد وُصولهم بيومٍ واحدٍ فقط ، لم يكُن من الأشراف ، أو من كبارهم على الأقلّ ، ممَن ذكر ابنُ سعد أسماءَهم لابن زياد وكتمتها المصادر ، مَن خرج بنفسه للقتال .

هذه ملاحظة مُهمّة جدّاً ، يُفهِمُ منها أن أولئك الأشراف ، الذين كانت لهم اليدُ الطُّولى في التحريض على الإمام وفي الحشد لقتاله ، قد عملوا على تحييد أشخاصِهم حين أزِف أو اقترب أوانُ القتال . كمَن يُشعلُ النارَ ثم ينأى بنفسه عنها كي لاينالَه لهيبُها . مع أنّنا أشرنا قبل قليل ، إلى حِرْص ابن زياد على أن تكون كل إرساليّةٍ من الجُند بقيادة أحد الأشراف ، كي يتأكّدَ من أنّ الجُند لن يتسلّلوا هاربين بأنفسهم من مُحاربة الحسين (ع). ما قد يدلُّنا على أنهم كانوا يتخلّون عن القيادة وينأون بأنفسهم ، بعد أن يوصلَ كلٌّ منهم مَن معهم من العسكر إلى مقصدِه . كما يدلُّ ضمناً على نذالتهم وعلى تركيزهم واهتمامهم المُطلَق بمصالحهم الشّخصيّة . الأمر الذي التفت إليه ابنُ سعد ، فطلب من ابن زياد بأن يكونوا معه في قيادة العسكر . وبذلك ألفته هو أيضاً إلى ما يجري . فأجابه : " **ولستُ أستأمرُك فيمَن أُريدُ أن أبعث** " . أي أنّه لم يكُنْ قد بعثهم بعد . والظاهرُ أنّه على الأثر بادرَ ابنُ زياد فأمرَ مَن سنراهم في المعركة من الأشراف بالخروج بأنفسهم ففعلوا .

ـ الثالث : أن عديدَ الذين عمل ابنُ زياد على حشْدهم لقتال الإمام هو اثنا عشر ألف مُقاتل : ٤٠٠٠ مع ابن سعد ، و٤٠٠٠ مع الحصين بن تميم ، و١٠٠٠ مع الحجّار بن أبجر ، و١٠٠٠ مع شبث بن ربعي ، و ١٠٠٠ مع الحارث بن رُويم . فضلاً عمّن كانوا مع الحُرّ وهم ١٠٠٠ أيضاً كما عرفنا فيما سبق . ولكن العديد ينقصُ عمليّاً عن ذلك . ذلك لِما قُلناه قبل قليل "**إنه لم يكُن يصِلُ من كلّ ألفٍ إلا ثلاثمائةٍ أو أربعمائة أو أقلُّ منهم ، لكُرههم مُحاربة الحسين**". وبذلك يهبطُ العديد إلى حدود عشرة آلاف مُقاتل فيما نُخمّن . نقول هذا مع الإلفات إلى أن الطبري لم يذكر إلا الذين خرجوا مع ابن سعد . لأنه ، فيما يبدو ، لم يحظَ بمَن يُزوّده بالمعلومات المناسبة .

(٢) مفاوضات ما قبل المعركة

في مُقابل تلك التدبيرات من ابن زياد ، ستكون ثمّةَ مساعٍ باتجاهٍ مُختلف .

فمنها ما ينحو باتجاه تسويةٍ سياسيّة للأزمة العالقة تجنُّباً للقتال . وهذه عمل عليها ابنُ سعد أوّلُ ، وهو الذي عرفناه مُثقَلَ الضمير من مُقاتلة الإمام .

ذلك أنّه ما أن استقرّ به المقامُ في مُنبسَط نينوى ، على أرضٍ تحملُ اسماً نبطيّاً هو (كربولا) ، الذي سيغلبُ على الاسم الأصلي لمُجمل المنطقة ، بعد أن تحوّلَ ألسنيّاً إلى (كربلا) ، ــ حتى انصرف إلى بذل مسعى ، باتجاه ما أمِلَ أن يصِلَ به إلى الحلَّ المنشود ، وذلك بمُفاوضة الإمام .

بدأ بأن أوعز إلى عَزْرَة بن قيس الأحمسي ، أن يأتي الحسينَ (ع) فيسأله" **ما الذي جاء به ، وماذا يُريد ؟** " . وعَزْرَة هذا عرفناه من قبلُ أحدَ الخمسةَ من أشراف الكوفة، الذين انفردوا برسالةٍ قويّةٍ إلى الإمام يدعونه للقدوم عليهم ، جاء فيها: " **فقد اخضرّ الجناب ، وأينعت الثّمار ، وطمّت الجناب . فاقدِم على جُندٍ لك مُجنّد** " [١] . فأبى استحياءً من الإمام أن يأتيه الآن مع مَن سيُقاتلونه [٢] . فعرض ذلك على الأشراف الذين كاتبوا الإمام ، باعتبار سَبْق العهد بينهم وبينه ، فأبوا جميعاً ، للسبب نفسه فيما يبدو . إلى أن قام رجلٌ اسمه كثير بن عبد الله الشعبي [٣] ، فقال : " **أنا أذهبُ إليه . والله إن شئتَ لأفتكنّ به** " . فقال له ابنُ سعد : " **ما أُريدُ أن تفتك به . ولكن ائته فسله ما الذي جاء به ؟** " .

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٣٥٣ .

٢ ــ نفسه/ ٤١٠ . ولكنّه لم يستحِ من أن يكون من أشدّ الناس في قتاله الإمامَ بعد قليل . فكان على الخيل يوم عاشورا . وهو الذي طلب من عمر ابن سعد أن يأمر بالحملة الشّاملة على أصحاب الإمام (نفسه / ٤٣٦) . ثم كان أحدَ ثلاثةٍ سرّحهم ابنُ سعد بالرؤوس إلى ابن زياد (أيضاً / ٤٥٦) .

٣ ـ وصفه الطبري (٥ / ٤١٠) بانه " **كان شجاعاً لا يُرَدُّ وجهه شيئ** " . وهو الذي سيقتل زهير بن القين في المعركة (نفسه / ٤٤١) . وسيروي بعضَ مُشاهداته في كربلا وبعدها (أيضاً / ٤٤٥).

فأقبل إليه . فلمّا رآه أبو ثمامة الصّائدي عرفه قال للحسين (ع) : " **قد جاءك شرُّ أهل الأرض وأجرؤه على دمٍ وأفتكُه** " . ثم قام إليه وطلب منه أن يضعَ سيفه ، ثم أن يأخذَ بمقبض سيفه ، ثم أن يُخبره بما جاء به وهو يُبلّغه للإمام . ولكنّ الرجل أبى هذه العُرُوضَ المُتوالية فانصرف [1]. ولنُلاحظ هنا ، إنّ إرسالَ ابن سعد رجلاً بهذه السُّمعة السّيئة لمُفاوضة الإمام ، ليدلُّ على بؤس وضعف حيلته .

أخيراً أرسل قرّةَ بن قيس الحنظلي التميمي . فلمّا رآه الحسين (ع) سأل أصحابه عنه ، فقال له حبيب بن مُظاهر [. . .] "**كنتُ أعرفه بحُسْن الرأي . وما كنتُ أراه يشهدُ هذا المشهد** " . وبالسؤال أجاب الإمامُ :" **كتب إليّ أهلُ مصركم هذا أن أقدِم . فأمّا إن كرهتموني فأنا أنصرفُ عنهم** " . وقال له حبيب : " **ويحك يا قيس ! أنّى ترجعُ إلى القوم الظالمين . أنصُر هذا الرجل الذي بآبائه أيّدك اللهُ بالكرامة وإيّانا ! "**. فقال له : " **أرجعُ إلى صاحبي بجواب رسالته . وأرى رأيي** " . فلما جاء عمرَ بما قاله الإمام قال : " **إنّي لأرجو ان يُعافيني اللهُ من حربه وقتالِه** " [1] ، يعني الحسينَ (ع) . ثم كتب إلى ابن زياد يُعلمه بما آلَ إليه سعيُه . فلمّا قُرئ الكتابُ على ابن زياد قال :

الآن إذ علقت مخالبُنا به يرجو الخلاص ولات حين مناصُ

ثم كتب إلى ابن سعد كتاباً أمره فيه بأن يعرُض على الحسين (ع) أن يُبايع ليزيد هو وجميعُ أصحابه " **فإن فعل ذلك رأينا رأينا** " [1] .

السّعيُ الثاني أتى من قِبَل الإمام . وذلك إذ أرسل أحدَ أصحابه إلى ابن سعد ، بأن يلقاه بين العسكرَين . فالتقيا مُنفردَين ، بعد أن أمر كلٌّ منهم حرسَــه بأن

---

١ ــ الطبري : ٤١٠ ــ ١١ . وابن قيس هذا هو الذي لاحظ على الحُرّ أثناء القتال إمارات ماقبل تحوِّله إلى الإمام فسأله . ثم قال فيما بعد : " **والله لو أطلعني على الذي يُريدُ لخرجتُ معه إلى الحسين**" (الطبري : ٥ / ٤٢٧) . ثم أنه وصف ورُوي عنه منظر النسوة حين مرّوا بهم على القتلى وما قالوه وصفاً مؤثّراً (نفسه / ٤٥٥ ــ ٥٦) . فوصْفُ حبيب إيّاه بما اقتبسناه أعلاه ، وخطابه إيّاه فيما قاله ، يدلُّ على نظرته العميقة إلى الرجال .

يبتعدوا بمقدار لا تُسمعُ أصواتهما . فتكلّما طويلاً . ثم انصرف كلٌّ منهم بأصحابه إلى عسكره . ولم يندّ عن هذا اللقاء ، على لسان أيٍّ من الطرفيَن ، ما يدلُّ على العرْض الذي حمله الإمام لابن سعد .

ذلك حسب رواية أبي مُخنف ، عن أبي جناب الكلبي ، عن شاهد عيان اسمه هانيء بن ثبيت الحضرمي السكوني [1] . ولكنّني شخصيّاً ما أشكُّ أنّه تضمّن وعظه وتبصيره إلى مآلِ وفظاعةِ ما هو مُقدِمٌ عليه ، وليس أكثر من ذلك . لأنّه ، وإن يكُنْ هو أمير العسكر ، ولكن كان إلى جنبه من الأشراف مَن لن يدعوه يخرجُ على أوامر ابن زياد لو شاء .

وطبعاً ذهبت ظنون الناس كلَّ مذهب فيما قاله الحسين (ع) . ومن ذلك أنه قال لابن سعد : " **أُخرج معي إلى يزيد بن معاوية وندَع العسكرين** ، فقال له : "**إذن تُهدَمُ داري** "، قال :" **أنا أبنيها لك** " ، قال : " **إذن تُؤخذُ ضياعي** " ، قال :" **إذن أُعطيك خيراً منها من مالي بالحجاز** [2]" . وذلك كلّه كلامٌ خياليٌّ ، غير معقول أن يصدر عن الإمام . وسنعودُ إليه بعد قليل .

ثم أنّ أبا مُخنف يروي عن المُجالد بن سعيد والصّقعب بن زهير وغيرِهما من المُحدّثين ، أنّه قال له : " **اختاروا منّي خصالاً ثلاثاً : إمّا أن أرجعَ إلى المكان الذي أقبلتُ منه ، وإمّا أن أضعَ يدي في يد يزيد بن معاوية فيرى فيما بيني وبينه رأيه ، وإمّا أن تُسيّروني إلى أيّ ثغرٍ من ثُغور المسلمين شئتم ، فأكون رجلاً من أهله ، لي ما لهم وعليّ ما عليهم**"[3].وهو كسابقه في غرابته وهُجنته . فضلاً عن أنّ هذه الرّواية مقطوعة الأوّل .

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٤١٣ . والراوي الأول شاهد العيان ذكرناه من قبل . قاتلَ الحسين (ع) أشدّ قتال ، وشرك في دم مسلم بن عوسجة . وقتل الطفل عبدالله بن الحسين . وكان يجلس في مجلس الحضرميين بالبصرة ويتحدّث بما جنته يداه . (انظر : الطبري:٥ / ٤٤٩ و ٤٦٨) .

٢ ــ نفسه .

٣ ــ أيضاً .

بالإضافة إلى أنّ كلام الإمام المَزعوم فيه مُوجّهٌ إلى جماعةٍ من المُخاطَبين **"اختاروا مني"**. والفرضُ أن الإمام انفرد بابن سعد .

والطريف أن الخوارزمي جمع كلّ تلك الروايات في روايةٍ واحدةٍ ، جَمْعاً ارتجاليّاً [1] ، مُتجاهلاً ما بينها من اختلافٍ في الرُّواة والرواية . ما يدلُّ على ذهنيّةٍ انتقائيّةٍ في التركيب التأريخي . خلافاً لأبي مُخنف الذي فصلَ الروايات بعضها عن بعض ، التزاماً منه بأمانة النّقل . تاركاً للقارئ والباحث مُهمّةَ التركيب . وفي ذلك مَلمَحٌ نقديٌّ في الغاية من الأهميّة ، يدلُّنا أيضاً وأيضاً على منهجيّتة الدقيقة . ثم أنّه عقّب عليها بروايةٍ عن عقبة بن سِمعان ، بتوسُّط الرّاوي الكبيرعبد الرحمن بن جندب الأزدي ، قال فيها : **" صحبتُ حسيناً ، فخرجتُ معه من المدينة إلى مكة ، ومن مكة إلى العراق ، ولم أُفارقه حتى قُتل . وليس من مُخاطبته الناسَ كلمةٌ بالمدينة ، ولا بمكة ، ولا في الطريق ، ولا في العراق ، ولا في عسكر إلى يوم مقتلِه إلا وسمعتُها . ألا والله ما أعطاهم ما يتذاكرُ الناس وما يزعمون ، من أن يضعَ يدَه في يدِ يزيد بن معاوية ، ولا أن يُسيّروه إلى ثغرٍ من ثغور المسلمين . ولكنّه قال : دعوني فلأذهب في هذه الأرض العريضة ، حتى ننظُرَ ما يصيرُ أمرُ الناس [2] "**.

وفي هذا الكلام ، الذي أحسن ابنُ مخنف نظمَه في سلسلة الروايات ، دليلٌ على أن كلّ ما سواه إنّما هو ظنونٌ وإشاعاتٌ لا يُؤبه بها .

ثم أنّه يؤخذُ من روايةٍ عن المُجالد والصّقعب نفسهما ، أن اللقاءات تكرّرت بعدُ بين الإمام وابن سعد . ونحن وإن نكُن قد نفينا صُدورَ ذلك العَرْض الثُّلاثيَّ من الإمام ، فإن ذلك لا يقتضي نفيَ أصل اللقاءات ، وأيضاً لا ينفي أنّ كلاماً ما قد تداولاه أثناء لقاءتهما التالية ، دون أن يُصرّحوا به لأحدٍ . أو ربما قد قاله الإمام لبعض

---

١ ــ *مقتل الحسين* : ١ / ٢٤٥ . وانظر *الفتوح* : ٥ / ٩٢ و*بحار الأنوار* : ٤٤ / ٣٨٨ و ٤٥ / ٣٠٠ و*تذكرة الخواصّ* / ٣٤٨ و*مناقب* : ٤ / ٥٥.

٢ ــ الطبري : ٥ / ٤١٣ ــ ١٤ .

خُلصائه من أهل بيته وأصحابه . ولكنّه لم يتجاوزهما لأسبابٍ واضحة .

المُهم أنّه بنتيجة تلك اللقاءات توصّل الطرفان إلى مشروع حلٍّ سياسي ما ، يُحرّرُ ضميرَ ابن سعد المُثقَل ، كما يُقرّبُهُ من الولاية على الرّيّ . فسطر كتاباً إلى ابن زياد يُخطره بإنجازه غير المُتوقّع ، الذي سنعرفُ مضمونَه الحقيقي بعد قليل . تقبّله هذا بأحسن القبول ، قال : " **هذا كتابُ رجلٍ ناصحٍ لأميرِه** [يعني نفسَه] ، **مُشفقٍ على قومه** [يعني الطرفيَن المُتهيّئيَن للقتال] . **نعم قد قبلت !** " .

التّطوّر المُفاجئ أغضب الأشراف ، الذين عرفنا أنّهم ربطوا مصيرَهم ببقاء الدولة الأُمويّة دون مُنازِع . فقام شَمِر بن ذي الجوشن فقال : " **أتقبلُ هذا منه وقد نزل بأرضِك وإلى جنبك ! ؟ والله لئن رحل من بلدك ، ولم يضع يدَه في يدِك ، ليكوننّ أولى بالقوّة والعزّة ، ولتكوننّ أولى بالضّعف والعجز** [. . . .] **والله لقد بلغني أن حسيناً وعمر بن سعد يجلسان بين المعسكريَن فيتحدّثان عامّةَ الليل** " . فقال ابنُ زياد : " **نِعمَ مارأيت ، الرّأيُ رأيك!** " [١].

ما من ريبٍ في أن الشّمِر في كلامه كان يُمثّلُ الأكثريّة العُظمى من أشراف الكوفة . ثم أنّ الذي يبدو لنا أنّ بقاءَه إلى جانب ابن زياد في الكوفة ، مع أن باقي الأشراف كانوا قد التحقوا بميدان القتال كما عرفنا ، كان أمراً مقصوداً ، الغاية منه مُراقبة الرجل وقراراته ، ومن ثَمّ تصويبها عند الاقتضاء في اتجاه موقفهم ومصالحهم . ومن هنا رأيناه ينفردُ بالكلام . ولو كان ثمّة غيره منهم في المجلس لقالوا هم ايضاً ، ولدعموا صاحبهم على الأرجح ، ولذُكِرَ قولهم .

ثم أن قول الشّمِر : " **والله لئن رحل من بلدك** " ، ليدلُّ عفواً على صدق ما قاله عقبة بن سِمعان ، وأنّ ذلك الرحيل ، ربما دون تحديد إلى أيّ جهةٍ يكون ، هو كل ما كان الإمام قد عرضه على ابن سعد ، وكتب به هذا إلى ابن زياد . ولم يكُن من ضمنه أن يخرجَ إلى يزيد ، ويضع يدَه في يده . فذلك عَرْضٌ لا ولن يجروء الشّمِر ولا ابن زياد على رفضه من عند نفسيهما ، أي دون استئمار يزيد ، لأنه هو صاحبُ الحقّ الحصري ، لأكثرِ من سبب ، في قبوله أو رفضه .

ثم أنّ العَرْض المزعوم من الإمام ، بأن يضع يده في يد يزيد ، لايعني غير الاستسلام غير المشروط ، والتّنازُل عن كلّ المبادئ والشعارات المُعلنَة من قِبَلِه ، وتعريض موقعه المعنوي للتدمير الكامل . ويا لبُعده عن هذا كلِّه . ثم لماذا يرفضُ فريقُ السُلطة هذا العَرْض لو كان صحيحاً ، مع أنّه يُحقّقُ كلَّ مطالبه دفعةً واحدة مجّاناً ودون أدنى جُهد !؟

بل إنّني أظنُّ أن غرض ابن زياد من الاستجابة السريعة للعَرْض ، كان استكشاف خبيء أولئك الأشراف ، وأن يعرف حقيقةَ توجُّههم ونواياهم ، بعد أن حقّت الحقيقة ، وبات الإمامُ مُطوّقاً بآلاف الجند المُعدّين لحربه . لأن عامّتهم كانوا من شيعة أمير المؤمنين (ع) . خصوصاً بعد أن لاحظ أنّ منهم مَن حاولوا النّأي بانفسهم عن ساحة القتال ، كما عرفنا قبل قليل . فلمّا بان له ميلهم للحسْم بالقتال ، انقلب سريعاً كما رأينا .

هكذا انتهت المُفاوضات الرّامية إلى اجتناب القتال ، واعتماد حلٍّ سياسيٍّ ، إلى نتيجةٍ مُعاكسَةٍ ، سنقرأُ تباشيرَها في الباب التالي .

(٣) نحو الحَسْم بالقتال

تلك الجلسة القصيرة ، التي لم تطُلْ غيرَ بضع دقائق فيما يبدو ، حسمت الخِيارَ السياسيَّ عند فريق السُلطة باتجاه الحرب . أو أنّها ، على الأقلّ ، أعلنته أو أخرجت ما هو كامنٌ في النفوس ، ممّا هو في الحقيقة تشابُكُ مصالح :

مصلحةُ ابن سعد في أن تأتيه الولاية على الرّيّ صفواً ، غير مُلوّثة بدم سبط رسول الله (ص) .

مصلحةُ شَمِر في أن لايتغيّرَ النظام بما يؤدّي إلى خسارة موقعه وامتيازاتِه ، بوصفه شريفاً من شُرفاء الكوفة .

ومصلحةُ ابن زياد في أن يبقى الحكمُ الأُمويّ الذي ينتمي إليه ، موقعاً ونسباً فيما يزعم ويزعمون ، على قوته دون مُنازِع .

هكذا فرض تحالُف السُلطة ـ الأشراف إرادتَه . وهكذا سيُخضَعُ ابنُ سعد .

يروي أبو مُخنف ، عن حميد بن مسلم ، بتوسُّط راوي أكثر أخبار هذا سليمان بن أبي راشد ، (وقد عرفنا ابنَ مسلم مُقرّباً جدّاً من ابن زياد ، كما عرفنا ابنَ أبي راشد مُتسقّطاً دؤباً لأخبارِه) ، أن ابن زياد ما أن اطمأنّ إلى جانب الأشراف وميلهم بعيداً عن كلّ حلٍّ سلميّ ، حتى قال لشَمِر : **"أُخرُجْ بهذا الكتاب إلى عمر بن سعد ، فليعرُض على الحسين وأصحابه النُّزُولَ على حُكمي . فإن فعلوا فليبعثْ بهم إليّ سَلَماً .** [مُستسلمين] ، **وإن هم أبوا فليُقاتلهم . فإن فعل فاسمعْ له وأطِعْ. وإن هو أبى فقاتِلهم ، فأنت أميرُ الناس . وثِبْ عليه** [على ابن سعد] **فاضربْ عنقه وابعثْ إليّ برأسِه "** [1] . ثم أنّه سطر كتاباً بالمعنى نفسه إلى ابنِ سعد ، مع إضافة أمره إيّاه بأن يُمثّلَ بمَن يقتله من أصحاب الإمام ، **" وإن قُتِل حسين فأوطئ الخيلَ صدرَه وظهرَه "** [2] . وكأنّه يبتغي بهذا الأمر الغريب النّافر على كلّ السلوك العربيّ القتالي في الإسلام وقبلِه ، أن يُزايِدَ وينافسَ الأشراف بما يشفي به غليلَ سيده في دمشق .

استلم شَمِر الكتاب فقام ومعه رجلٌ يُدعى عبد الله بن أبي المُحِلّ الكلبي [2] ، وهو امرؤٌ غير معروف . ولم يأتِ الطبري على ذكره إلا هذه المرّة . لكنه يُوصَفُ بأنّ عمّتُهُ أُمُّ البنين الكلابيّة ، آخرُ زوجات أمير المؤمنين (ع) ، وأُمُّ أبنائه الأربعة الشهداء مع أخيهم الحسين (ع) : العباس وعبد الله وجعفر وعثمان . فالظاهرُ أن سببَ قيامه مع شَمِر هو اهتمامُهُ بإنقاذ أبناء عمّته . وبالفعل طلب من ابن زياد أن يكتبَ لهم أماناً ففعل، وشفع فعلَه بالقول:**"نعم ، ونَعمَةَ عين "**[2]. وطبعاً رفض الأُخوةُ الأربعةُ أمانَه .

أمّا سببُ اصطحاب شَمِر إيّاه ، فلعلّه اعتماداً على أن يقبلوا أمانَه ، ويخرجوا بأنفسهم من أصحاب الإمام والمُقاتلين في صفّه . الأمرُ الذي رجا منه أن يتتابعَ بحيث يودي إلى خُروج غيرهم أيضاً ، بعد أن يكون أُخوةُ الإمام قد تخلّوا عنه فيما ارتجى .

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٤١٤ . لاحظ هنا أنه لم يطلب هذه المرّة البيعة ليزيد خلافاً لسابقتِها ، بل النزول على حُكمه شخصيّاً فقط .

٢ ــ نفسه : ٥ / ٤١٥ .

وبذلك ينهدم صفُّه آليّاً ، فيما صوّرَ له ذهنُهُ المريض .

ثم أنّ الظاهر أنّ شَمِر كان قد أطلع ابنَ زياد على ما كان قد حاكه في ذهنه قبل أن يُعلنه بطلبِه . ولذلك لبّى هذا طلبه فوراً ، وشفعه بما قال " **نعم ، ونَعمَة عين** "، دون أن يسأله عن مُسوّغ طلبه الغريب ، مع أنه يُخالف سياسته القاضية بقتل الإمام وأصحابِه كافّة ، التي أعلنها قبل لحظات في أمره إيّاه ، وفي كتابه إلى ابن سعد .

حمل شَمِر الكتاب الرّهيب فوراً وأقبل إلى كربلا . وما أن قرأه ابنُ سعد حتى خاطبه بقوله : **"مالكَ ويلك ! لا قرّبَ اللهُ دارَك ، وقبّح اللهُ ما قدِمتَ به عليَّ . والله إنّي لأظنّكَ أنت ثنيتَهُ أن يقبلَ ما كتبتُ به إليه . أفسدتَ علينا أمراً كُنّا رجونا أن يُصلِح . لا يستسلم والله حسينٌ أبدا . إنّ نفساً أبيّةً لبين جنبيَه "** . فقال له شَمِر : **" أخبرني ما أنت صانع . أتمضي لأمرِ أميرك وتقتل عدوَّه ؟ وإلا فخلِّ بيني وبين الجند والعسكر "**. فقال: **" لا ، ولا كرامة . أنا أتولّى ذلك . فدونك ، وكُنْ أنت على الرجال ! "** [١] .

كانت هذه العبارة الأخيرة اعترافاً ضمنيّاً من ابن سعد بالهزيمة سياسيّاً ، كما أنّ ترئيسَه شَمِر على غير الفرسان من المُقاتلين من عند نفسِه ، أي دون أمرٍ من ابن زياد، هو بمعنى اعتراف منه أيضاً بالموقع المُتقدّم الذي اكتسبه هذا بانتصار ما سعى إليه وفيه مصلحته .

(٤) أحداث ما قبل القتال

هكذا انتهى السّجالُ السياسي إلى فَرْض الحلّ بالقتال المَدعوم من الأشراف . وباتت كلُّ مصداقيّة ابن سعد لدى الدولة ، ومن ثَمّ ولايته العتيدة على الرّيّ ، مُعلّقةً على العمل رُغم أنفه بما قضى به الاتجاه الأقوى . وبات عليه ، بوصفه أميرَ العسكر،

---

١ ــ أيضاً : ٥ / ٤١٥ ــ ١٦ . والخبر ، بتفصيلاتٍ تجاوزناها ، برواية أبي مُخنف ، عن عبد الله بن شريك العامري النّهدي ، بتوسُّط الحارث بن حصيرة الأزدي . وكلاهما من رُواة الطبري . وابن شريك شاهد عيان . انظر ثبت روايات الطبري عنهما في فهرست أعلام الكتاب ، المادة التي تُناسب اسمَ كلٍّ منهما .

أن يأمرَ ببدء الإجراءات القتاليّة . لكن يحسُنُ بنا قبل أن ندخلَ في هذا الأمر العريض ، بوصفه ذروة البحث ، أن نقِفَ على ما يقوله الرُّواة على مجموعةٍ من الأحداث سبقت انفجار القتال .

فمن ذلك خبرٌ لم يروه أبو مُخنف . ولم يأتِ على ذكره الشيخُ المفيد في *الإرشاد*. سنسوقه عن مصادره . خلاصته أن حبيب بن مُظاهر الأسدي ، وقد رأى العساكرَ قد التأمت بمَن لا قِبَلَ بمَن مع الإمام بحربهم ، استأذنه بأن يقصدَ حيّاً من قومه قريب ، مُستنصِراً **"عسى أن يدفعَ بهم عنكَ بعضَ ما تكره"** . فأذن له . فخرج حبيب في جوف الليل مُنكّراً حتى أتى إلى أُولئك القوم . فوصف لهم وضعَ الإمام **" هذا عمر بن سعد قد أحاط به في إثنين وعشرين ألف"** . وخلُص إلى حثّهم على نصرته . فاستجاب له سبعون رجلاً منهم ، خرجوا مع حبيب قاصدين الحسين (ع) . لكنّ أحدَ رجال الحيّ قصد ابن سعد فخبّره . فدعا أحد أصحابه ، الأزرق بن حرب الصّيداوي ، وضمّ إليه أربعة آلاف فارس، التقوا القادمين وقاتلوهم . فانهزموا راجعين إلى منازلهم [1] .

النصُّ يطرح أسئلةً .

أوّلُها ما قلناه أن أبا مُخنف لم يأتِ على ذكر الخبر . مع أنّه هامٌّ . ومع أنه تتبّع أخبار الوقعة ومقدّماتها وما استوعاه الرُّواة منه تتبُّعاً حثيثاً . ثم مع أن الذين شهدوا أو شاركوا بأحداثه كثيرون قريبون مكانيّاً من مطارح نشاط أبي مُخنف . أي أنّ الخبرُ تتوفّر فيه كافة العناصر التي تجعله محل اهتمام الرُّواة الكثيرين الذين أخذ عنهم . فعدم روايته له ، دليلٌ على أنّه لم يقع . لأنه في مقام البيان ولم يُبيّن .

وثانيها أن المنطقة بين الكوفة وكربلا كانت ، وما تزال ، عامرةً ببني أسد . فلماذا وقع اختيارُ حبيب على هذا الحيّ الصغير من أبناء قبيلته الكبيرة ، بحيث أنّهم على حماستهم للنُّصرة لم يُقدّموا إلا سبعين رجلاً فقط ؟

وثالثها أنّ العديد الذي ذكره لعسكر ابن سعد مُبالَغٌ فيه كثيراً . وما من ريب

---

١ ـــ *الفتوح* : ٥ / ٩٠ ، و*مقتل الحسين* للخوارزمي : ١ / ٣٤٣ ، و*أنساب* : ٣ / ٣٨٨.

في أن حبيب كان يعرف عديدهم الحقيقي ، ثم ما من ريبٍ أيضاً في أنّه لم يلجأ إلى تضليل قومه . إذن ، فإيراد ذلك العديد على لسانه يبعثُ على الرّيب في صحة الرواية من رأس .

ومع ذلك ، فها نحن قد أوردنا خلاصةَ الخبرَ وأسنادَه في الكُتُب ، دون أسناده من الرُّواة لخلوّ الكُتُب منها . التزاماً منّا بأمانة البحث ، ثم علّقنا عليه بما يُناسب . تاركين الحكم عليه للقارئ اللبيب . مع الإلفات إلى أنّ خُلوّ *الإرشاد* للشيخ المفيد منه ، وهو مَن هو في حسّه التاريخي السّديد ، أمرٌ ذو مغزىً واضح ، يجب أن يأخذَه القارئُ بعين الاعتبار في حكمه .

ومن ذلك أيضاً أن ابن زياد تعجّل التّضييقَ على الإمام ، منذ اليوم السابع من المُحرّم ، أي آنَ ما كانت محاولاتُ الحلّ السياسيّ ما تزالُ عالقةً . فكتب إلى ابن سعد يأمره أن يحول بين الحسين (ع) وأصحابه وبين الماء **"كما صُنع بالتّقيّ الزّكيّ المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفّان"**. وفي ذلك تأصيلٌ عن أنّ معاوية كان يُحمِّلُ علياً (ع) جريرةَ قتل عثمان ، بعد أن مُنع عنه الماء . بنى عليه ابنُ زياد ، بوصفه من أبناء البيت السفياني فيما يزعم ، أنّه وليُّ الدّم ، وأنّه بمنع الماء عن ابنه يُعاقبه بمثل فعل أبيه . فبعث ابنُ سعد عمرو بن الحجّاج على خمسمائة فارس ، نزلوا على الشّريعة ، ليحولوا بين الحسين (ع) وأصحابه وبين الماء [1].

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٤١٢ . والرواية لأبي مُخنف ، عن سليمان بن أبي راشد ، عن حميد بن مسلم . وقد عرفنا الاثنيَن الأخيريَن وموقعهما من الرواية قبل قليل . وانظر *الاخبار الطِّوال* / ٢٥٥ .

أمّا ابن أعثم في *الفتوح* : ٥ / ٩١ ، فيجعلُ منعَهم عن الماء ذيلاً لخبر بادرة ابن مُظاهر ، بالقول أنّ العسكر الذي حال بين ذلك الحيّ من بني أسد وبين التحاقهم بالإمام ، هم الذين حالوا بين الحسين (ع) وأصحابه وبين الماء . فلمّا أضرّ العطش بالحسين احتفر بئراً فنبعت له عينٌ ، فشرب وشرب الناس أجمعين . فلما بلغ ابن زياد الخبر أمر ابن سعد بمنع الإمام عن الحفر والوصول إلى الماء. ومن الواضح أن هذه الرواية مُركّبة . دبّجها عقلٌ عاجزٌ عن اكتشاف العلاقة المنطقيّة بين الأحداث ، فتخيّل في ذهنه صورةً مُرقّعة بتلك الكرامة المزعومة للإمام .

ثم أنّ من ذلك ، أن الحسين (ع) لمّا كان الليل ، وقد رأى الجِدَّ من العسكر في قتاله ، جمع أصحابه بحضور أهل بيته ، فقال لهم : **" هذا الليلُ قد غشيكم فاتخذوه جملا. ثم ليأخذ كلٌّ منكم بيد رجلٍ من أهل بيتي، تفرّقوا في سوادِكم ومدائنكم حتى يُفرّجَ الله . فإنّ القوم إنّما يطلبوني . ولو قد أصابوني لَهَـو عن طلبِ غيري " .** فقال له إخوتُهُ وأبناؤه وبنو أخيه وابنا عبد الله بن جعفر : **" لِمَ نفعل ، لنبقى بعدك ؟ ! لاأرانا اللهُ ذلك أبدا ! "** . وتكلّم جماعةُ أصحابه بكلامٍ يُشبهُ بعضُهُ بعضاً ، فقالوا : **"والله لا نُفارقُك . ولكن أنفسُنا لك الفدا"** [1] .

والظاهر أن هذه الواقعة جرت في إحدى ليالي ٨و٩و١٠ المُحرّم .

هذا ، إلى وقائع شخصيّةً غيرها جرت قبل القتال ، يأتي على ذكرها أصحابُ المقاتل وبعضُ المؤرخين . صدفنا عن ذكرِها ، ليس تهويناً من شأنِها ، بل لأنّها أدخلُ في باب السّيرة الشّخصيّة لأصحابِها . ونحن في هذا إنّما نولي اهتمامنا للتأريخ الحَدَثي وهو يتوالى ويتراكم حَدَثاً بعد حَدَث ، بمقدار علاقته بدرجةٍ ما أو غيرِها بشهادة سيّد الشهداء (ع) .

(٥) إرهاصات القتال

حصلت أوّلُ جولات القتال بمبادرةٍ من الإمام .

ذلك أنّه لمّا اشتدّ على الحسين (ع) وأصحابه االعطش دعا أخاه العباس ، فبعثه في ثلاثين فارساً وعشرين راجلاً، وبعث معهم بعشرين قِربة . الفُرسان الثلاثون

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٤١٩ ــ ٢٠ . والروايةُ لأبي مُخنف عن عبد الله بن عاصم الفائشي الهمْداني ، عن الضّحّاك بن عبد الله المشرقي الهمْداني . وهذا شاهدُ عيان ، عرفناه فيما سبق . التقى الإمام في كربلا ، وعاهده أن يُقاتلَ معه ، على أن يجعلَه في حلّ من الانصراف إذا لم يجِدْ مُقاتِلاً معه . وبالفعل وفى بعهده ، فقاتلَ معه حتى الهُنيهات الأخيرة من القتال . ثم نجا بنفسه ، وعاش بعد ذلك . وروى الكثيرَ ممّا شهده أو جرى له لابن قبيلته عبد الله بن عاصم . وعن هذا رواها أبو مُخنف (انظر : الطبري : ٥ / ٤١٨ و ٤١٩ ــ ٢٠ و ٤٢١ و ٤٢٣ و٤٤٤) .

للحماية والدّفاع عند الاقتضاء ، والرّجّالة العشرون كلٌّ منهم يحملُ قِربةً فارغة ليرجع بها ملآى . فجاؤا حتى دنوا من الماء ليلاً. واستقدمَ امامَهم باللواء نافعُ بن هلال الجملي ، ربما لأنه من القبيلة نفسها التي منها عمرو بن الحجّاج ، أميرُ العسكر المَنوط به منع الحسين (ع) من الماء . فلمّا رآه عمرو صاح : " **مَن الرجل ؟** " فجيء به . فقال : "**ما جاء بك ؟** " أجاب: "**جئنا نشربُ من هذا الماء الذي حلأتموناا** [منعتمونا] **عنه**" . قال : " **فاشرب هنيئاً !** "(هنا يظهر تأثيرُ القرابة) . ولكنّه عندما تقدّم باقي الحملة ورأى أنهم سيحملون القِرَب إلى مُعسكرهم منعوهم . فدارت معركةٌ سريعة ، انتهت بمجيء العباس ومَن معه بالقِرَب إلى أن أدخلوها معسكرَهم [1] .

وأُلفتُ القارئَ إلى الخِطّة الدقيقة التي عملت عليها الحملة ، بحيث حقّقت الغايةَ منها دون خسائر في المُهاجمين ، على الرُّغم من الفارق الكبير في العديد بين الطرفين (٥٠ مُقابل ٥٠٠) . ويبدو من لحن الكلام " **فبعثه** [الحسين (ع)] **في ثلاثين فارساً وعشرين راجلاً** " ، أنّه هو مَن وضعها .

أمّا المعركة الرئيسة ، فقد بدأت على التّوّ بعد أن أعلن عمر بن سعد أنّه سيتولّى إمرةَ القتال بنفسِه ، وجعْلَه شَمِر على الرجال ، بأن نادى : " **ياخيلَ الله اركبي وابشري !** " . فركب في الناس . ثم زحف نحو مُعسكر الإمام بعد صلاة العصر ، يوم الخميس [2] او الجمعة من المُحرّم .

والظاهرُ أن الحركة المُفاجئة للجيش لم تكُن مُتوقّعةً للإمام . لأنه ، فيما يبدو ، كان مايزال في أجواء الحلِّ السياسيّ الذي اقترحه ابنُ سعد ، وتقبّله ابن زياد بدواً ثم

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٤١٢ . والرواية لأبي مُخنف عن حميد بن مسلم ، بتوسّط راويه سليمان بن أبي راشد . وهذا السّند بات معروفاً للقارئ . قارن هنا بين رواية أبي مُخنف هذه ، وبين روايتَي ابن قُتيبة في *الإمامة والسياسة* : ٢ / ١١ ورواية الخوارزمي في *مقتل الحسين* : ١ / ٢٤٤ ، لتلمس الفارقَ النوعي لصالح أبي مُخنف عن غيره .

٢ ــ *أنساب* : ٣ / ٣٩١ . أمّا الطبري : ٥ / ٤١٤ فيتردّد بين الرّوايتيَن .

أخربه شَمِر ، كما عرفنا . ومن هنا فإنه ، وقد سمع الأصواتَ تقترب ، نادى أخاه العباس وأمره بأن يركبَ بنفسه ويتلقّى القوم فيسألهم:" **ما لكُم، وما بدا لكم ؟**". موضعُ المُلاحظة هنا هي في قوله :" **بدا لكم** " ، التي تعني تبدُّلاً غير محسوب في الموقف عمّا افترق عليه الإمام وابن سعد بالأمس . فجمع العباس عشرين فارساً ، اتجه على رأسهم للقاء القوم وسألهم : " **ما بدا لكم ، وماذا تُريدون ؟** . فقالوا : " **جاء أمرُ الأمير بأن نعرض عليكم أن تنزلوا على حُكمه أو نُنازلكم** " . قال : " **فلا تعجلوا حتى أرجعَ إلى أبي عبد الله فأعرضُ عليه ما ذكرتُم** " . وانصرف العباسُ راجعاً إلى الحسين (ع) يُخبرهُ الخبر . ثم عاد ليقول لهم : " **يا هؤلاء إن أبا عبد الله يسألكم أن تنصرفوا هذه العشيّة ، حتى ينظرَ في الأمر . فإنّ هذا أمرٌ لم يجرِ بينكم وبينه منطق** [أي لم يكُن موضعَ كلامٍ ومُفاوضةٍ بينهما من قبل] **فإذا أصبحنا التقينا إن شاء الله** " .

في الأثناء بقي فريقُ العباس في مواجهة القوم ، على رأسه حبيب بن مظاهر الأسدي وزهير بن القين ، فتداولا في أن يُكلّما القوم واعظين إياهم ، خصوصاً وأنهم بلديّون يعرفُ بعضهم بعضاً . فقال لهم زهير [1] : " **أما والله لبئس القوم عند الله غداً قومٌ يقدمون عليه قد قتلوا ذريّة نبيه وعترته وأهل بيته وعُبّاد هذا المصر** " . فقال له عَزْرَة بن قيس الأحمسي (من أشراف الكوفة) : " **إنك لتُزكّي نفسك ما استطعت** " . يعني بما وصف به نفسه ضمناً بقوله " **عُبّاد هذا المِصر** " . ثم ذكّره بأنه لم يكُن من شيعة أهل هذا البيت " **إنما كنت عندنا عثمانيّاً** " . فأجابه مُعرّضاً بأنه ممّن كتب إلى الإمام " **أما والله ما كتبتُ إليه كتاباً قط ، ولا أرسلتُ إليه رسولاً قط . ولا وعدتُهُ نُصرتي قط . ولكنّ الطريق جمع بيني وبينه . فلمّا رأيته ذكرتُ به رسولَ الله ومكانَه منه. وعرفتُ ما يتقدمُ عليه من عدوّه وحزبِكم . فرأيتُ أن أنصره ، وأن أكونَ من حزبِه ، وأن أجعلَ نفسي دون نفسِه ، حفظاً لِما ضيّعتم من حقّ الله وحقّ رسولِه** " [1] .

---

١ ــ في الطبري:٥/ ٤١٦ أن حبيب هو الذي خاطبهم . ولكن ما سيذكره من كلام تبادله الفريقان يدلُّ بما لا يقبل الريب أنه كان زهير بن القين .

عاد العبّاس حاملاً جواب الإمام بأن يُمهلوه إلى الغد " **إنّ هذا الأمر** [يعني الخيار بين أن ينزلوا على حُكم ابن زياد وإلا القتال] **لم يجرِ بينكم وبينه منطق . فإذا أصبحنا التقينا إن شاء الله . فإمّا رضيناه فأتينا بالأمر الذي تسألونه وتسومونه ، او كرهناه فرددناه** " . والحقيقةُ أن صيغة هذا الكلام هو ما رأى العباس أن يقوله للقوم جواباً يقبلونه . وإنما كان نصُّ كلامه : " **ارجع إليهم . فإن استطعتَ أن تؤخّرهم إلى غدوة ، وتدفعهم عند العشيّة ، لعلّنا نُصلّي لربّنا وندعوه ونستغفره . فهو يعلمُ أنّي قد كنتُ أُحبُّ الصلاةَ له وتلاوة كتابه وكثرةَ الدعاء والاستغفار** "[١] .

على الأثر دار جدال سريع بين رؤوس القوم ، هل يُجيبون طلب الإمام أم يُبادرون بالقتال . افتتحه ابنُ سعد بسؤال شَمِر : " ما ترى يا شَمِر ؟ " ، لأنه الرقيب عليه من ابن زياد . فأجابه هذا : " أنت الأمير ، والرّأي رأيُك ! " . حسمه عمرو بن الحجّاج بقوله : " **والله لو كانوا من الدّيلم ، ثم سألوك هذه المنزلة ، لكان ينبغي لك** (لعمر بن سعد) **أن تُجيبهم إليها** " . وقال قيس بن الأشعث : "**أجبهم إلى ما سألوك . فلعمري ليصبحنُّك بالقتال غدوة**" .

ما يجدُرُ بنا ملاحظته بالتأمُّل في هذه المُلابسات وما أثارته من مواقف وأقوال أمران :

ــ الأول : الوجود الكثيف للأشراف في المجموعة التي لبّت نداء ابن سعد على عجَل ، فاتجهت من فورها دون تشكيلٍ قتاليّ إلى موقع الإمام ومَن معه قاصدةً افتتاح القتال .

ــ الثاني : اختلاف منازع القوم . فبينما رأى ابنُ الحجّاج أن يُجيبهم لاعتباراتٍ إنسانيّة ، رأى ابن الأشعث الرأي نفسه لاعتباراتٍ موضوعيّة . أهميّةُ هذه الملاحظة أنّها تكشف الحوافز العميقة التي تُحرّك الرجلين . فابن الحجّاج مع أنه كان من الشهود على الصحابي ابن حجر ، تلك الشهادة التي أودت إلى قتله ، ومع ذلك فإنه كان يُحاول دائماً

---

١ ــ نفسه / ٤١٧ .

أن يتظاهر باللين والمرحمة ، فقط في التفاصيل . ولكنه في أصل مواقفه يتبع دائماً مصلحته ، مهما تكُن قاسية ومهما يكُن من ضحايا . أمّا ابن الأشعث فهو ذلك الثعلب الماكر ، الذي يقيسُ الأُمور بميزان الكسب والخسران . ولذلك فممّا لديه من معرفةٍ بالإمام ، ويقينه بأنه لن يُهادن مهما تكن العاقبة ، فإنه لم يرَ فرقاً في توقيت القتال بين عشيّة اليوم وصبيحة الغد ، ما دام سيقعُ على كلّ حال ، وهذا هو المطلوب .

في نهاية ذلك السياق الحَرِج ، أتى رسولٌ من ابن سعد ، فوقف حيث يُسمع الصوت ونادى : " **قد أجّلناكم إلى غد . فإن استسلمتُم سرّحنا بكم إلى أميرنا عُبيد الله بن زياد . وإن أبيتُم فلسنا بتاركيكُم** " [١].

ومع أنّ الإمام قال صادقاً أنّه طلب التأجيلَ إلى الغد ابتغاء كسب وقتٍ للعبادة ، فقد كان ينوي أمراً آخر ، عمله بما لايتعارض مع تخصيص الليل للعبادة . ذلك أنه " **عند قُرب المساء** "جمع أصحابه وقال لهم: " . . . **أمّا بعد . فإنّي لا أعلمُ أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي ، ولا أهلَ بيتٍ أبرَّ ولا أوصلَ من أهل بيتي . فجزاكم اللهُ عنّي خيرا . ألا وإنّي أظنُّ يومنا من هؤلاء الأعداء غداً . ألا وإنّي قد رأيتُ لكم ، فانطلقوا جميعاً في حِلّ ، ليس عليكم منّي ذِمام . هذا الليلُ قد أقبلَ فاتخذوه جملا**" [٢] . " **ثم ليأخذ كلُّ رجلٍ منكم بيدِ رجلٍ من أهل بيتي . تفرّقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يُفرّجَ الله . فإنّ القوم إنّما يطلبوني . ولو قد أصابوني لهوا عن طلب غيري** " [٣].

---

١ ــ ايضاً / ٤١٨ . والنّصُّ وملابسته من الوقائع النادرة التي رواها الإمام زين العابدين (ع) . أبو مُخنف، عن الحارث بن حصيرة ، عن عبد الله بن شريك العامري ، عن الإمام .

٢ ــ نصُّ كلام الإمام إلى هنا بالسند السابق نفسه .

٣ ــ ما بين المُزدوجين إضافةٌ على الرواية السابقة . وهي برواية أبي مُخنف ، عن عبد الله بن عاصم الفائشي الهمْداني ، عن الضّحّاك بن عبد الله المشرقي . وهذا قد عرفناه من قبل مُعاهداً للإمام أن يُقاتل معه "**ما كان له نافعاً** " . وبقي وقاتل معه بالفعل حتى نهايات القتال يوم عاشورا .

أجوبة أصحاب الإمام على عرْضه النبيل هي من أعظم الأدبيّات الأخلاقيّة الرّفيعة . ولذلك فإنّنا سنعرضها بنصّها :

بدأ الكلام إخوتُه وأبناؤه وبنو أخيه وابنا ءُ أُخته من عبد الله بن جعفر ، فقالوا بلسانٍ واحد : **" لِمَ نفعلُ ، لنبقى بعدك ؟! لا أرانا اللهُ ذلك أبدا"** . فقال الحسين (ع) :**" يا بني عقيل ، حسبكم من القتل بمسلم . اذهبوا فقد أذنتُ لكم ! "** . قالوا : **" فما يقولُ الناس . يقولون إنّا تركنا شيخَنا وسيّدَنا وبني عمومتنا خير الاعمام ، ولم نرمِ معهم بسهم ، ولم نطعن معهم برُمح ، ولم نضرب معهم بسيف ، ولا ندرِ ما صنعوا ؟! لا والله لا نفعل . ولكن تفديك أنفسُنا وأموالُنا وأهلونا . ونقاتلُ معك حتى نرِدَ موردَك . فقبّح اللهُ العيشَ بعدك ! "** .

وقال مسلم بن عوسجة:**"أنحنُ نخلّى عنك ولمّا نُعذِر إلى الله في أداء حقّك؟ أما والله حتى أكسرَ في صدورهم رمحي، وأضربهم بسيفي ماثبت قائمهُ في يدي ولا أُفارقك.ولو لم يكن معي سلاحٌ أُقاتلهم به لقذفتُهم بالحجار دونك حتى أموتَ معك"**.

وقال سعيد بن عبد الله الحنفي : **" والله لانُخلّيك حتى يعلمَ اللهُ أنّا حفظنا غيبةَ رسول الله فيك . والله لو علمتُ أنّي أُقتل ثم أحيا ، ثم أُحرَقُ حيّا ثم أُذرّ ، يُفعلُ ذلك بي سبعين مرّة ، ما فارقتُك حتى ألقى حِمامي دونك . فكيف لا أفعلُ ذلك ، وإنما هي قَتلّةٌ واحدة . ثم هي الكرامةُ التي لا انقضاء لها "** .

وقال زهيرُ بن القين :**" والله لوددتُ أنّي قُتلتُ ثم نُشرت ثم قُتلتُ كذا ألف قتلة ، وأنّ الله يدفعُ بذلك القتلَ عن نفسك وعن أنفُس هؤلاء الفتية من أهل بيتك "** .

وتكلم جماعةُ أصحابه بكلامٍ يُشبه بعضُه بعضا : **"والله لانُفارقك . ولكن أنفسُنا لك الفدا . نقيك بنُحورنا وجباهنا وأيدينا . فإذا نحن قُتلنا كُنّا وفينا وقضينا ما علينا "** [1] .

---

١ ــ الطبري:٥/ ٤١٩ـ٢٠والنصوص برواية أبي مخنف عن الَضحّاك بن عبد الله المشرقي.

الأُنموذج المُعاكس نقرأُه في فريق السُلطة . فبينما أمسى أصحابُ الإمام وقد قاموا الليلَ يُصلّون ويستغفرون ويدعون ، كان أُولئك يولون اهتمامهم لمراقبتهم خشيةَ أن يفرَّ أحدُهم بنفسه . فمرّ بهم خيلٌ ، عليهم عَزْرَة بن قيس الأحمسي ، من أشراف الكوفة ، سمعوا الإمام يقرأ : ﴿ ولا يحسبنّ الذين كفروا أنّما نُملي لهم خيرٌ لأنفسهم إنّما نُملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذابٌ أليم . ما كان اللهُ ليذَرَ المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميزَ الخبيثَ من الطّيّب ﴾ . فسمعها رجلٌ من تلك الخيل فقال : " **نحن وربِّ الكعبة الطّيّبون ، مُيّزنا منكم** " . يقول الرّاوي الضّحّاك بن عبد الله المشرقي: " **فعرفتُه ، فقلتُ لبُرير بن خُضير الهمْداني : تدري مَن هذا ؟** "قال : " **لا !** " قلتُ :"**هذا أبو حرب السُّبيعي (الهمْداني) عبد الله بن شهر**" (لاحظ أنّ بُرير عرفه في عتمة الليل من نبرة صوته ، فهو همْدانيٌّ أيضاً) . فقال له بُرير : " **يافاسق ، أنت يجعلك الله في الطّيّبين ؟!** " . فقال له : " **مَن أنت ؟** " قال :" **أنا بُرير بن خُضير** " . قال : " **إنّا لله ، عزّ عليّ ، هلكتَ والله يابُرير !**" . فقال له بُرير : " **هل لك أن تتوبَ إلى الله من ذنوبك العِظام . فوالله إنّا نحن الطّيّبون ، ولكنكم لأنتم الخبيثون** . ثم قال له الضّحّاك :" **ويحك ! أفلا ينفعُك معرفتُك ؟!** " **قال** : " **جُعلتُ فداك ! فمَن يُنادمُ يزيدَ بن عذرة العنزي ؟!** "[1] .

(٦) التعبئة ، خطبتا الإمام في القوم

أمضى أصحابُ الإمام ليلهم في العبادة . إلا بعضهم بعض الوقت ، أمرهم أن يحفروا خندقاً في مكانٍ من ورائهم منخفضٌ كأنه ساقية ، فحفروه في ساعةٍ من الليل فجعلوه كالخندق . ثم جعلوا فيه الحطب والقصب ، حتى إذا قاتلوهم ألقوا فيه النار كيلا يُؤتوا من ورائهم[2].

---

١ ــ نفسه / ٤٢١ . والعنزي ، هذا ، لم يُذكَر إلا بهذه المناسبة . والظاهر أنّه شخصٌ عادي ، كان صاحب ابي حرب في مجالس الشَراب .

٢ ــ أيضاً / ٤٢٢ . والخبر لأبي مخنف ، عن عبد الله بن عاصم ، عن الضّحّاك المشرقي . وأتت الإشارةُ إليه في *الأمالي* للصّدوق / ٢٢٠ مُرسَلاً عن عبد الله بن منصور عن الإمام الصادق (ع) عن أبيه عن جدّه زين العابدين (ع) .

لكن رواية الصّدوق المذكورة أعلاه تُضيف إلى ذيل رواية شاهد العيان الضّحّاك ، أن الإمام أرسل ابنه عليّاً الأكبر في ثلاثين فارساً وعشرين راجلاً ليستقوا الماء ، وأنه قال لأصحابه : "قوموا فاشربوا [. . .] وتوضّأوا واغتسلوا واغسلوا ثيابكم لتكونَ أكفانكم" .

الذي يُفهم من سياق هذه الرواية أن إرسال ابنه . . . الخ. قد حصل ليلة العاشر. وذلك أمرٌ غير معقول لغير سبب : مَنْعهم المُشدّد من وُرود الماء . الحراسة المُشدّدَة أيضاً عليهم كي لايأتوا بأيّ ما من شأنه مغادرة مواقعهم ، فكيف بالخروج العلني لعسكرٍ كثيفٍ من خمسين مُقاتلاً من بينهم ، على رأسهم الابنُ الأكبرُ للإمام . إغفالُه بيان كيف نجح عليٌّ في إنفاذ أمر أبيه بسهولةٍ ويُسْر ودون مُمانعة ، بحيث بات لديهم ماءٌ كثير أتاح للإمام أن يخاطب أصحابه جميعاً بقوله :" قوموا فاشربوا . . . الخ". إشغالُهم عن العبادة وما هم فيه بأمرٍ سخيف : غسْل ثيابهم ثم نشرَها لتجفّ كيما تكون أكفانهم نظيفة ! وكم كانت كميّة الماء لتفي بغسل ملابس عشرات الرجال !

لذلك فإنّنا نحكمُ على هذه الرواية بالبُطلان . الأمرُ الذي يُعيدُنا أيضاً وأيضاً إلى قوّةِ روايات أبي مُخنف في مُقابل غيرِها . بل إنّنا لنظنُّ أن واضعها لم يكن يملك أدنى فكرةٍ عن مُعطيات ساحة المعركة ورجالِها .

الإجراء الدّفاعيّ الثابت الذي أمر به الإمام أصحابه هو أن يُقرّبوا الخيام (في المصدر : البيوت) بعضها إلى بعض ، وأن يُدخلوا الاطناب بعضها ببعض (أي يُشابكوا بين الحبال التي تُمسك الخيام) كي تُعرقل حركة المُهاجمين إذ يُحاولون الدخول إلى ما بين الخيام . وأن يكونوا هم بين البيوت ، إلا الوجه الذي يأتيهم منه العدوّ [1]. فهذا ، بالإضافة إلى إشعال النار في القصب الذي أعدّوه ، سيمنع الأعداء من إتيانهم من ورائهم ، وسيمنحهم شيئاً من الامتناع، فضلاً عن أنّ الكامنين بين البيوت يبقون على مقربةٍ من النساء والاطفال لحمايتهم .

---

١ ــ أيضاً / ٤٢١.

صبيحة عاشوراء جمع الإمام أصحابه فصلّى بهم . **" وكان معه اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً "** [1]. فجعل زهير بن القين في الميمنة ، وحبيب بن مظاهر في الميسرة . واعطى رايته للعباس ، أي في القلب [1].

من جانبه عبّأ ابنُ سعد عسكره . فجعل على الأخلاط من أهل الكوفة عبد الله بن زهير الأزدي [2]. وعلى رُبع مَذحج وأسد عبد الرحمن بن أبي سبرة الجعفي[3] . وعلى رُبع ربيعة وكندة قيس بن الأشعث . وعلى رُبع تميم وهمْدان الحر بن يزيد الرّياحي . وعلى ميمنته عمرو بن الحجّاج الزُّبيدي . وعلى ميسرته شمر بن ذي الجوشن . وعلى الخيل عزرة بن قيس الأحمسي . وعلى الرجال (المُشاة) شبث بن ربعي الرياحي . وأعطى الراية مولىً له اسمه ذُويد أو دريد [4]. ومن المعلوم للقارئ الذي رافقنا حتى الآن أنّ هؤلاء جميعاً من معارف أشراف الكوفة.كما أنّ من الواضح ، أنه رمى بحشد ثمانيةٍ من مُقدّمي الأشراف في مواقع قياديّة من عسكره،إلى توزيع مسؤولية

---

١ ــ كذا عند الطبري : نفسه / ٤٢٢. برواية أبي مُخنف ، عن عبد الله بن عاصم ، عن الضّحّاك . وإليه ذهب الشيخ المفيد في *الإرشاد* :٢ / ٩٥ . وثمة كلامٌ كثيرٌ مختلف جدّاً على عديد أصحاب الإمام بين أرباب المقاتل والمؤرخين ومَن كتبَ في الشهداء خصوصاً ، لسنا نجِدُ فائدةً وثمرةً في استعراضه ، بعد رواية الضّحّاك شاهد العيان . وكذلك فعل الرّيشهري في *الصحيح من مقتل سيّد الشهداء وأصحابه* / ٦٧٠ . ولكنّه عقّب على كلام الطبري بالقول : **" إلا أنه وبملاحظة أسماء شهداء كربلاء ومواصفاتهم يمكن القولُ بأنّ عدد عسكر الإمام كان أكثر من ذلك "** . ونحن نلاحظُ على عبارة الريشهري النّقديّة أن نصّ شاهد العيان حاكمٌ على الذين أحصوا أسماء الشهداء استناداً إلى مختلف المصادر التي أخذوا عنها ، وليس العكس .

٢ ــ من أشراف الكوفة . يرِدُ ذكره كثيراً في الطبري . انظر اسمه في فهرست أعلام الكتاب .

٣ ــ من أشرافها أيضاً ، وأحد السبعين الذين شهدوا على حجر بن عُديّ بأنه خلع الطاعة وفارق الجماعة ولعن الخليفة . . . الخ. واتخذ معاوية شهادتهم ذريعةً لقتله . انظر الطبري : ٥ / ٢٦٩ ــ ٧٠ .

٤ ــ الطبري : ٥ / ٤٢٢.

ما هو مُقدِمٌ عليه على أكبر عددٍ ممكن من القبائل وكبار أشرافها .

أقبل العسكرُ باتجاه الخيام . فلما دنوا من الإمام وهو على فرسٍ له (اسمه "لاحق" هو الذي أهداه إياه عُبيد الله بن الحر، كما قلنا أعلاه) ركب راحلةً له ، كيما يكون بحيث يُرى ويُسمعُ صوته ، ثم نادى بأعلى صوته :

" أيها الناس اسمعوا قولي ولا تُعجلوني حتى أعظكم بما الحقُّ لكم عليّ ، وحتى أعتذر إليكم من مَقدمي عليكم . فإن قبلتم عذري ، وصدّقتم قولي ، وأعطيتموني النّصَفَ ، كنتم بذلك أسعد ولم يكُن لكم عليّ سبيل . وإن لم تقبلوا مني العُذر ، ولم تُعطوا النّصَفَ من أنفسكم ﴿ فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غُمّة ثم اقضوا إليّ ولا تُنظرون ﴾ . ﴿ إنّ وليي الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولّى الصالحين ﴾ " .

"أما بعد فانسبوني فانظروا مَن أنا . ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها . فانظروا هل يحِلُّ قتلي وانتهاك حُرمتي ؟! ألستُ ابن بنت نبيكم وابن وصيّه وابن عمّه وأول المؤمنين بالله والمُصدّق لرسوله بما جاء به من عند الله ؟! أليس حمزة سيّد الشهداء عمُّ أبي ، أو ليس جعفر الشهيد الطّيّار ذو الجناحين عمّي . أوَ لم يبلغكم قولٌ مُستفيضٌ فيكم أن رسول الله قال لي ولأخي : هذان سيّدا شباب أهل الجنّة ؟! فإن صدّقتموني بما أقول ، وهو الحقّ ، فوالله ما تعمّدتُ الكذبَ منذ علمتُ أن الله يمقتُ عليه أهلَه ويُضرُّ به مَن اختلقه . وإن كذّبتموني فإنّ فيكم مَن إن سألتموه عن ذلك أخبركم . سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري ، أو أبا سعيدٍ الخُدَري ، أو سهل بن سعد السّاعدي ، أو زيد بن أرقم ، أو أنس بن مالك يُخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله لي ولأخي . أفما في هذا حاجزٌ لكم عن سفك دمي ؟! فإن كنتم في شكٍّ من هذا القول ، أفتشكّون أثراً ما أنّي ابنُ بنت نبيكم . فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبيٍّ غيري ، منكم ولا من غيركم . أنا ابنُ بنت نبيكم خاصّة . أخبروني ، أتطلبوني بقتيلٍ لكم قتلتُه ، أو مالٍ لكم استهلكتُه ، أو بقِصاصٍ من جراحةٍ ؟! فنادى : ياشبث بن ربعي ، ويا حجّار بن أبجر ، وياقيس بن الأشعث ، ويا يزيد بن الحارث ، ألم تكتبوا إليّ أن قد أينعت الثّمار ،

واخضرّ الجناب ، وطمّت الجناب . وإنّما تقدِمُ على جندٍ لك مُجنّدَة ، فأقبِل " .

أيها الناس ، إذ كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني في الأرض . فقال له قيس بنُ الأشعث : أوَ لا تنزل على حكم بني عمّك ، فإنّهم لن يُرُوك إلا ما تُحبّ ، ولن يصِلَ إليك منهم مكروه . فقال : **لا والله ، لا أُعطيكم بيدي إعطاءَ الذليل ، ولا أَقـرُّ قَـرارَ العبيد** [1] . **عبادَ الله إنّي عُذتُ بربّي وربكم أن تَرجمون . أعوذُ بربّي وربكم من كلّ مُتكبّرٍ لا يؤمنُ بيوم الحساب** [2] **"** .

ثم إنّه أناخ راحلتَه ، وأمر عقبة بن سِمعان فعقلها . وأقبلوا يزحفون إليه .

ما الذي رمى إليه الإمام من خطبته ؟

لقد رأيناه ينتقل بين عدّة مطالب :

١ ــ الموعظة والاعتذار : بيان سبب مجيئه .

٢ ــ التّعريف بنفسه ، مشفوعاً بما جاء عن رسول الله (ص) بحقّه ، وإحالة مَن لا يعرف ذلك إلى مَن بقي من الصّحابة .

٣ ــ احتجاجه على الذين كتبوا إليه يستدعونه ، وها هم الآن يقودون العدوان عليه .

٤ ــ عرضَه ، ما دام موقفهم منه قد تبدّل ، أن يدعوه ينصرف إلى حيث يأمن

---

١ ــ في المصدر : الطبري : ٥ / ٤٢٥. **"ولا أُقِرُّ إقرارَ العبيد"** . والذي يتردّدُ على الألسنة أيضاً وفي مصادر أُخرى **" ولا أفِرُّ فرار العبيد "** . وكلا القراءتَين لا معنى لها ، فلا الإقرار ولا الفرار من طبع العبيد خاصّة . الذي من طبعهم هو القَرار أي السكون . لأن العبد المملوك فاقد الإرادة ، ساكنٌ حتى يُؤمَر فيتحرّك . الإمامُ يعرضُ بالعبارة أنّه بين خياراتٍ ثلاثة ، هي : الاستسلام أوالسكون نفاهما ، الثالث هو الذي أثبته وسيُثبته عمليّاً .

٢ ــ الطبري : ٥ / ٤٢٤ ــ ٢٦ . وهو برواية أبي مُخنف ، عن عبد الله بن عاصم ، عن شاهد العيان الضّحّاك المشرقي . وقد اقتصرنا في الاقتباس أعلاه على جسم خُطبة الإمام ، دون المُداخلات أثناء الخطاب ، لأن أُطروحته هي التي تهمّنا ، باستثاء مُداخلة ابن الأشعث ، التي ذكرناها لارتباط جواب الإمام بها .

على نفسه . وهو عرْضٌ غير عمليّ ، لأن القرار بهذا الشأن لا يعودُ إليهم . ولكنّه ، على الأقلّ ، يضعهم أمام مسؤوليّتهم الأدبيّة تجاه الإمام ، بوصفهم الذين استدعوه .

٥ ــ الختام ببيان موقفه السياسي النهائي من بين خِياراتٍ ثلاث ، بيّنّاه بالهامش رقم (١) في الصفحة السابقة .

فمن ذلك نعرف أنّه لم يكُن يُعلّق أملاً على أن يُغيّرَ ما عليه مُناجزوه . وعلى كل حال فإنهم لم يكتموا مقصدهم بالموافقة ضمناً وعمليّاً على ما قاله الثعلب قيس بن الأشعث . كلُّ ما في الأمر أنّه أراد أن يعظهم من موقعه إماماً ، وأن يودعَ أُطروحتَه الذّاكرة المُتحفزّة لتسجيل تفصيلات اللحظة ، كيما تثبت وتُستعاد ، كما فعلت أجيال المؤرخين والشعراء ، وكما نفعلُ نحن الآن .

لكنّ القوم لم يكترثوا بكل ماسمعوه ، بل **"أقبلوا يزحفون إليه"** على حدّ ما رآه ورواه شاهدُ العيان الضّحّاك المشرقي .

لا نستثني من ذلك سوى التحوُّل الرّائع للحرّ بن يزيد الرّياحي ، من موقع أحد قادة عسكر ابن سعد إلى جانب الإمام . الذي نرى فيه الأثرَ العمليّ الوحيد لخُطبة الإمام . إذ سأل ابنَ سعد : " **مُقاتلٌ أنت هذا الرجل ؟** " . قال : " **إي والله . قتالاً أيسره أن تسقطَ الرؤوس وتطيحَ الأيدي** " . قال : " **أفما لكم في واحدةٍ من الخصال التي عرض عليكم رضى؟** " . فقال ابنُ سعد : " **أما والله لو كان الأمرُ إليّ لفعلت . ولكنّ أميرك قد أبى ذلك** [1] " .

المصادر إجمالاً تُلمحُ إلى أن سبب توبة الحرّ، ومن ثَمّ تحوّله الاستشهادي إلى معسكر الإمام ، قد حصل لمّا رأى الجِدَّ في القتال وبتأثيره . ولا مُشاحّة في ذلك . ولكنّ الكلامَ المَشوبَ بالقلق الذي خاطب به ابنَ سعد يُشعرُ أنه بالإضافة إلى ذلك كان تحت تأثير ما سمعه من خطبة الإمام:" **أفما لكم في واحدةٍ من الخصال التي عرض عليكم رضى؟**".فهذا، بالإضافة إلى طيب معدنه، الذي رأيناه في لقائه الأوّل بالإمام، يدلُّ على

---

١ ــ نفسه : ٥ / ٤٢٧ .

أنّه تأثّر عميقاً بما سمعه ، إلى حدّ مُعاناة الرّعدة ، فقال لَمَن لاحظ ذلك : " **إنّي والله أُخيّرُ نفسي بين الجنّة والنار** " . ذلك هو الذي وقّت (على الأقلّ : وقّت) انحيازَه .

لكنّ الذي لم يقُلْه الضّحّاك في سرده لخطبة الإمام ، وما أثارته من سجال ، هو التنافُس الخفيّ بين عمر بن سعد وشمِر على مَن يكونُ له (شرفُ) السَّبْق إلى افتتاح القتال ، وإن هو أشار إلى وقائعه دون بيان مغزاها. فقد رأينا عمر بن سعد يعطي الرّايةَ لمولاه ذُويد أو دريد ، دون العديد من الأشراف الكثيرين المُتهلّفين على مثل هذا (الشّرف) . ولهذا معناه ، ذلك أنّ حامل الرّاية هو مَن يقود المُقاتلين في ساحة القتال ، وعليهم دائماً أن يلتأموا من حوله ، وأن يتحرّكوا بحركته . الأمر الذي حاول شمِر أن ينتزعه منه ، بأن عمد إلى رمي زهير بن القين بسهم [1] ، هو أوّل سهمٍ رُمي في المعركة . ثم إلى الهجوم بنفسه " **يركضُ على فرسٍ له كاملَ الأداة** " باتجاه خيام الإمام . ولكنّه جبُن إذ رأى النار تضطرم في الحطب والقصب الذي جعلوه من ورائهم ، فرجع [2] . الأمرُ الذي التقطه ابن سعد ، فزحف بالعسكر نحوالخيام ونادى : " **ياذُويد ، أدنِ رايتَك !** " فأدناها . ثم وضع سهماً في كبد قوسه فرمى وقال : " **اشهدوا أنّي اوّلَ مَن رمى** [3]" ، متجاهلاً سَبْقَ رميةِ شمِر . وبذلك أرسل إلى أميره ابن زياد أنّه هو ، وليس شمِر ، الآمرَ الفاعل .

---

١ ــ نفسه / ٤٢٦ .

٢ ــ أيضاً / ٤٢٣ .

٣ ــ أيضاً / ٤٢٩ . الخبرُ برواية أبي مُخنف بالواسطة عن حُميد بن مسلم . وقد عرفنا حُميداً هذا من قبل من رجال ابن زياد المُقرّبين . وبهذه الصفة كان قريباً من عمر ابن سعد أثناء المعركة، بحيث رأى ما عمله وسمع كلامَه ثم رواهما . خلافاً للضّحّاك ، الذي كان بعيداً ضمن فريق الإمام ، فلم يرَ ولم يسمع ، وبالتالي لم يروِ هذه الواقعة ، على أهميتها . وفي ذلك قرينةٌ إضافيّةٌ قويّةٌ على أصالة روايات أبي مُخنف .

يبدو أنّ انحياز الحرّ إلى فريق الإمام كان لحظةً فاصلةً في سير المعركة . ذلك أنّه ما أن استتمّ أعلان قراره بخطابٍ قصيرٍ وجّهه إلى العسكر لائماً مُحذِّراً ، حتى أمر ابنُ سعد ببدأ العمليّات القتالية برميته . استجاب لها عسكرُه بمثل عمله . فانهالت السهام باتجاه الإمام وصحبه ، ورموهم هؤلاء بالمُقابل [1]. والغريب أنّني لم أجد بين المؤرخين مَن ذكر أن تلك الرّمايات الكثيفة المُتقابلة قد أوقعت إصاباتٍ في كلا الفريقيَن . ممّا نفهم منه أنّ التّرامي لم يكن ثقيلاً . وإلا لبان له أثر .

والظاهر أنّ ابن سعد قصد بمبادرته ، بالإضافة إلى السَّبْق كما قلنا قبل قليل ، أن يحولَ بين الناس وبين أن يتأثّروا بانحياز وخطاب الحرّ . فما من ريب في أنّ بادرة الحرّ الشُجاعة غير المُتوقّعَة قد هزّت كيان العسكر هِزّةً عميقةً ، وهو المُوزّع أساساً بين قلبه وبين شبكة المصالح التي تُكبّله . ثم ما من ريبٍ أيضاً في أن ابن سعد قد لحظ ذلك ، فبادر إلى افتتاح القتال برميته ، إشغالاً لهم عن التأثُّر بهذا الطارئ غير المحسوب .

(٧) مُبارزات ما قبل المعركة

القتالُ الفعلي بدأ ، مثلما يبدأُ عادةً في مثل هذا الحال ، بمبارزاتٍ فرديّة . ابتغاء رفع درجة تحفُّز المُقاتلين (ضخّ الأدرينالين في دمائهم ، كما بتنا نعرفُ في زماننا) . وكان أوّلَ مَن خرج مُستدعياً البِراز اثنان من موالي (عبيد) الأُمويين ، أحدهما اسمه يسار ، وهو مولىً لزياد بن أبيه ، والثاني اسمه سالم مولىً لابنه عُبيد الله . ونحن نفهم من خروجهما دون غيرهما من العسكر ، أن خروجهما إنما كان بأمرٍ ممّن له الأمرُ عليهما ، لأنهما عبدان مملوكان لايتصرّفان من رأسيهما . ما يدلُّ على أنّ حوافز العسكر للقتال كانت ضعيفة ، إلى درجة أن أولياء الأُمور لم يسعهما إلا أن يأمرا عبدَين ليكونا اللذين يفتتحان القتال . وهذا يُكملُ ما لحظناه على بادرة ابن سعد إلى الرّمي . لقد كانت السُلطة ومَن بصفّها من الاشراف يُديرون عسكراً لجِباً ، لكنّه يفتقرُ بشدّةٍ إلى الحافز الشخصي لقتال الإمام وأصحابه .

---

١ ــ أيضاً . وفيه : " **فلما دنا عمر بن سعد ورمى بسهم ارتمى الناس** " .

الطريف أن الرجلين تقدّما إلى البراز ، أحدهما المُسمّى يسار يتقدّم صاحبه وهو " **مُستنتِلٌ** " ، حسب عبارة الرّاوي [1] ، أي مُتظاهراً بالشّدّة والحماسة ، أمّا صاحبه سالم فكان يمشي خلفه ، وكأنّه يتترّسُ به . فخرج إليهما عبد الله بن عُمير الكلبي . الذي كان قد نزل الكوفة قادماً من الشام فيما يبدو ، واتخذ لنفسه داراً فيها في حي بني همْدان ، الذين عُرفوا إجمالاً بولائهم لأهل البيت . الأمر الذي يقول لنا أنّى وهو الشامي سنراه يلتحق بالإمام بعد نزوله كربلا ، لّما رأى الناس يُعرَضون في النُّخيلة ليُسرّحوا إليه ، فتسلّل إليه ليلاً ومعه زوجته فأقام معه . فلما خرج ذينك الرجلين بستدعيان مَن يُبارز استأذن الإمام بمناجزتهما ، ولم يلبث أن قتل الاثنين ، واحداً بعد الآخر [2].

المبارزة الثانية حصلت بين بُرير بن خُضير الهمْداني من فريق الإمام ، ويزيد بن معقل من العسكر . وذلك على أثر مُساجلةٍ بينهما ، انتهت إلى عرْض بُرير المُباهلَة بأن قال له : **" هل لك فلأُباهلُك . ولندعُ الله ان يلعن الكاذبَ وأن يقتلَ المُبطل "** . وهكذا كان ، ثم لم يلبث بُرير أن قتله . ولكنّه نال الشهادة غدراً . وقد وصف شاهدُ العيان من العسكرعفيفُ بن زهير بن أبي الأخنس واقعة شهادته وصفاً مُفصّلاً . نُثبته بنصّه لِما فيه من معانٍ سلوكيّةٍ نادرة . والوصفُ يبدأُ من لحظة بُعيد قتل بُرير يزيداً :

وحمل عليه (على بُرير) رضيّ بن مُنقذ العبدي ، فاعتنق بُريراً ، فاعتركا ساعةً . ثم أنّ بُرير قعد على صدره . فصاح رضيّ : أين أهلُ المِصاع (المُجالدة) والدفاع . فذهب كعبُ بن جابر الأزدي ليحملَ عليه ، فقلت (أي عفيف الرّاوي) : إنّ هذا بُرير بن خُضير الذي كان يُقرئنا القرآن في المسجد . فحمل عليه بالرُمح حتى وضعه في ظهره [. . .] فطعنه كعبُ بن جابرحتى ألقاه عنه وقد غيّبَ السّنان في ظهره . ثم أقبل

---

١ ــ أيضاً .

٢ ــ وهو أبوجناب الكلبي ، الذي عرّفنا به من قبل ، حيث قُلنا أنّ أبا مُخنف يروي عنه مباشرةً . الطبري / أيضاً .

عليه يضربه بسيفه حتى قتله [1] **"** . فكان أوّلَ شهيدٍ بين يدي إمامه .

المُبارزة الثالثة بين نافع بن هلال الجملي من أصحاب الإمام ومُزاحم بن حُريث من العسكر . خرج نافع وهو يقول : **" أنا الجملي . أنا على دين علي "** . فالتقاه مُزاحم وهو يقول : **" أنا على دين عثمان "** . فقال له نافع : **" أنت على دين شيطان "** . ثم حمل عليه فقتله .

بهذه المُبارزة انتهت مرحلة القتال الفردي من المعركة . ذلك أن عمرو بن الحجّاج ، وقد عاين نتائجها الخاسرة في فريقه ، صاح بمَن يسمع صوته من العسكر : **"ياحمقى ، أتدرون مَن تُقاتلون ! فرسانَ المِصر ، قوماً مُستميتين . لا يبرزنّ لهم منكم أحد فإنّهم قليل . والله لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم "**. ووافقه ابنُ سعد على ما رأى ، فأمر بأن لا يُبارز أحد [2] .

(٨) الحملة

مصادر متأخرة كثيرة تأتي على ذكر ما تُسميه (الحملة الأُولى) ، وتُطنب في فتكها بأصحاب الإمام خاصّة [3]، يعني دون أهل بيته . ونحن سنتتبّع سير القتال من بعدُ، اعتماداً على الروايات التي تبدو لنا بأسنادها مُستوفيةً مواصفات الصّحّة ، كيما نخرج بصورةٍ مُقنعةً نُسمّيها بأسمائها .

ما أن تمّ لابن الحجّاج ما أراد ، حتى حمل بميمنة العسكر على ميمنة أصحاب الإمام . فلمّا دنا بخيله جثوا لهم على الرُّكَب وأشرعوا الرماحَ نحوهم . فلم تُقدِم الخيلُ على الرّماح. فذهبت لترجع فرشقوهم بالنبل. فصرعوا منهم رجالاًوجرحوا آخرين [4].

---

١ ــ أيضاً : ٥ / ٤٣٢.

٢ ــ أيضاً / ٤٣٥ .

٣ ــ رصدها وأسندها وذكر الذين استشهدوا فيها الرّيشهري تحت عنوان **" كلامٌ حول شهداء الحملة الأُولى "** . الصحيح من مقتل سيّد الشهداء وأصحابه / ٦٩١ .

٤ ــ الخبر برواية أبي مُخنف عن أبي جناب الكلبي . الطبري:٥ / ٤٣٠ .

فلنُلاحظ أوّلُ أنّ الرجلَ ، وإن هو بها فعل قد اجتنب المُبارزة الفرديّة ، لكنّه لم يعمل بالتكتيك القتالي الذي اقترحه ، أي الرّمي بالحجارة . وبذلك يُنجي عسكره من الصِّدام المُباشر مع **"فرسان المِصر"** على ما قال . ثم أنّه ، على أثر فشل حملته الأُولى فشلاً ذريعاً وسقوط قتلى وجرحى من عسكره دون أخصامه ، عاد فكرّر الحملة ، بعد أن ألقى خطبةً تحريضيّةً في عسكره ، مع تبديل جهة الهجوم ، فأتاهم **" من ناحية الفرات "** [١]. حيث حقّق اشتباكاً مُباشراً لأوّل مرّة مع أصحاب الإمام ، خلافاً لحملته الأُولى . والحقيقةُ أنّ ضعفَ معرفتنا بطبوغرافيّة ساحة المعركة منعنا من تقديم صورةٍ واضحةٍ للتكتيك الذي اتّبعه في حملته هذه . فنحن نعرفُ إجمالاً أنّ موقع الإمام كان مُحصّنا من الخلف بالنار ، أمامها الخيام بشكل نصف أو ثُلث دائرة . في وسطها بقيادة العباس بنو هاشم يُحيطون بالإمام . أمامهم في مواجهة الاعداد كتبيتا الميمنة والميسرة . هاتان الكتيبتان هما اللتان أفشلتا الهجومَ الأوّل بتدبيرهما القتالي الذّكي . ثم نجح عمرو بن الحجّاج في تجنّبها في هجومه الثاني ، بأن أتاهم **"من ناحية الفرات"** . هذه بالذات هي الناحية الضعيفة في تصوّرنا للتكتيك الذي اتّبعه في حملته هذه . فنحن لا نعرف ناحية الفرات بالنسبة لمُعسكر الإمام . وكيف أن إتيانهم من جهتها جنّبهم الاصطدام بالكتبتيَن .

مهما يكُن، فإنّ ماحصل هذه المرّة اشتباكٌ قصير**"فاضطربوا ساعة "** . انجلت عن شهيدٍ واحدٍ من أصحاب الإمام هو **مسلم بن عوسجة** ، أوّلُ شهيدٍ في القتال بين يدي الإمام . و**" القتيلُ الثاني في أصحاب الحسين "** . **" ثم انصرف عمرو بن الحجّاج**

---

١ ــ ما من ريبٍ في أنّ هذه الحملة غير سابقتها . وكلتاهما بقيادة عمرو بن الحجّاج . فالأُولى روى وقائعها أبو الجناب الكلبي ، في حين أن الذي روى وقائع الثانية شاهدُ عيانٍ آخر هو الحسين بن عقبة المُرادي الزُّبيدي المذحجي قريب عمرو بن الحجّاج ، الذي كان أيضاً زُبيديّاً مذحجيّاً . ثم أن الثانية أتت بعد خطاب ابن الحجّاج التحريضي . فضلاً عن أنّها (الثانية) ميّزها الطبري بأنه أتى من ناحية الفرات ، التي يُفهمُ منها ضمناً أن الأُولى كانت من ناحيةٍ غيرها .

وأصحابُه "[1] .الأمرُ الذي نرى فيه فشلاً آنيّاً ثانياً للعسكر في اختراق صفّ الإمام . وإن يكُن ، كما سنرى ، الافتتاح العملاني للقتال العنيف .

ذلك أن ابن الحجّاج تراجع بمَن معه ، بعد أن أخربَ الصّفَّ المَرصوص الذي كان السببَ في فشل هجومه الأوّل . فحمل شمِر في الميسرة على الميسرة المُواجهة. فثبتوا له وطاعنوه. وأتت الحملات من كلّ جانب . وفيها سقط الشهيدُ الثالث للإمام، عبد الله بن عُمير الكلبي ، الذي عرفناه من قبل أولَ مَن خرج للبراز ، وقتلَ اثنين مُبارَزَةً ، ثم قتلَ اثنين آخرين أيضاً في هذه المعركة . فكان الشهيدَ الثاني في النِّزال ، والثالثَ في فريق الإمام .

(٩) إدارةُ المعركة

منذ الآن ستدور المعركة بين الفريقين على سعي كلٍّ منهم لنقل القتال إلى مواقع الأعداء . أهلُ الكوفة يسعون إلى اختراق التحصينات الارتجاليّة والحماية البشريّة من حول الإمام ، ابتغاء الوُصول إليه في النهاية . في حين أن أصحاب الإمام ، باستثناء أهل بيته المُولجين بحمايته ، يشنّون هجماتٍ مُضادّةً على العسكر ابتغاء إرباك صفوفهم . " **فأخذت خيلهم تحمل ، وإنّما هم اثنان وثلاثون فارساً . لاتحملُ على جانبٍ من خيل أهل الكوفة إلا كشفته** " . أي أخربت تعبئته وأربكته بحيث تضطُرّه إلى التّراجُع والتّشتُّت .

هكذا فشلت أيضاً الهجمات الكثيفة المُباشرة ، على الرغم من الفارق الهائل في ميزان القُوى لصالح أهل الكوفة . وما من ريبٍ في أنّ هذه النتيجة تعكس شجاعةَ واستماتة الأصحاب في حماية إمامهم . ولكنّها تدلُّ أيضاً على ضعف الوازع للقتال عند أهل الكوفة ، كما لاحظنامن قبل .

لمّا رأى قائد الفرسان في فريق أهل الكوفة ، عَزْرَة بن قيس ، أن خيله تنكشفُ من كلّ جانب ، بعث إلى أمير العسكر عمر بن سعد مِن يقولُ له : " **أما ترى ما تلقى**

---

[1] ــ الطبري : ٥ / ٤٣٥ . والخبر لأبي مُخنف ، عن شاهد العيان الحسين بن عقبة المُرادي .

خيلي مُذ اليوم من هذه العُدَّة اليسيرة ؟! ابعث إليهم الرّجالَ والرُّماة ! " . "الرجال" ، لأنّهم يكونون أكثر مِنعةً بما عليهم من دُروعٍ متينة ، ليس مثلها على الفارس الذي يجب أن يكون خفيف الوزن على فرسه . و" **الرُّماة** " لِما لهم من ميزةٍ على صاحب السيف والرُّمح ، تُعطيهم أن ينالوا منه من مسافةٍ بعيدة . فبعث " **المُجفّفة** " ، أي المُدرَّعين تدريعاً ثقيلاً، بحيث لاتبدو منهم إلا عيونهم ، و"**خمسمائة من المُرامِيَة** "، أي المُسلّحين بالأقواس والنِّبال . " **فأقبلوا حتى إذا دنوا من أصحاب الحسين رشقوهم بالنّبل ، فلم يلبثوا أن عقروا خيولهم ، وصاروا رجّالَةً كلّهم** " . وبذلك خسرَ أصحابُ الإمام ميزةً مُهمّة . باتوا بعدها عاجزين عن تنظيم هجماتٍ سريعةً تنقلُ القتالَ إلى مواقع الاعداء ، كما كانوا يفعلون . ولم يبقَ لهم إلا أن يُدافعوا دفاعاً .

(١٠) القتال حول خيام الإمام

في هذا السّياق من أطوار القتال حصلت المعركة الرئيسة التي تفانى فيها أصحابُ الإمام ، إلى درجة أنّ شهود العيان الذين رووا أحداثَها باتوا عاجزين عن إحصاء الشهداء ، ووصف شهادتهم ، وذكر قاتليهم كما كانوا يفعلون . فقال أحدُهم حُميد بن مسلم : " **وتعطّفَ الناسُ عليهم فكثروهم . فلا يزالُ الرجلُ من أصحاب الحسين قد قُتل . فإذا قُتل منهم الرجلُ والرجلان تبيّن فيهم . وأُولئك كثيرٌ لا يتبيّنُ فيهم ما يُقتَلُ منهم** " . بينما كان هو وغيره من قبل يذكرُ الشهداء بما يستحقّون واسم قاتليهم وظروف شهادتهم .

استمرّ القتال على هذا المنوال حتى انتصف النهار . فكان " **أشدَّ قتالٍ خلقه الله** ". مَن بقي من أصحاب الحسين (ع) يقفون في وجه المُهاجمين كالبُنيان المَرصوص الذي يحولُ بين الأعداء والوصول إلى القلب ، حيث بنو هاشم من حول الإمام . وأهلُ الكوفة ، بأمرٍ من ابن سعد ، يُحاولون تقويضَ الخيام المُتقاربة ، لأنّها هي التي تمنعهم من الإحاطة بهم من الجهات الثلاثة الأُخرى . فكان من الأصحاب مَن يتخلّلون البيوت فيقتلون مَن يجدونه بينها . إلى أن أمرهم ابنُ سعد بالامتناع عن مُحاولة الدخول بين البيوت/ الخيام ليُقوضوها، ما يدلُّ على أن تلك الخطّة قد فشلت ، وأدّت

إلى خسائر كبيرة في صفوف المُهاجمين . وبالمُقابل أمر ببثّ النيران فيها ابتغاء حرقها . وهي خطّةٌ غبيّة ، لأن ذلك سيؤدّي إلى حمايةٍ أفضل للمُدافعين ، كما لاحظ الإمام ، فقال لرجاله : " **دعوهم فليُحرقوها . فإنّهم لو قد حرقوها لم يستطيعوا أن يجوزوا إليكم منها** ". وكان الأمرُ كما قال ."**وأخذوا لا يُقاتلونهم إلا من وجهٍ واحد**" .

كان شمِر أولَ مَن بادر إلى امتثال أمر ابن سعد بإحراق الخيام . "**حمل حتى طعن فسطاط الحسين برمحه**" هذا يعني أن خطَّ الدفاع الرئيسي بكتيبتيَه قد انهار تماماً ، وأنُ حُماة شخص الإمام قد تحوّلوا به إلى غير مكانه منذ بدء القتال . " **ونادى** (شمِر) **عليَّ بالنار حتى أُحرق هذا البيت على أهلِه فصاح النساء وخرجن من الفسطاط** " .

هنا نضبطُ حُميد بن مسلم وهو يكذب يُحاولُ تلميعَ صورته ، ويُصوّر نفسه رجلاً شهماً يأبى النّيلَ من النساء والأطفال بإحراق الخيام عليهم . روى : " **قلتُ لشمِر بن ذي الجوشن : سبحان الله ! إنّ هذا لا يصلحُ لك . أتريدُ أن تجمعَ على نفسك خصلتيَن ، تُعذَّبُ بعذاب الله ، وتقتلُ الوُلدان والنساء ؟! والله إن في قتلك الرجال لَما تُرضي به أميرَك** ". فقال:" **مَن أنت ؟** " قلتُ : " **لا أُخبرُك مَن أنا** " . وخشيتُ والله أن لو عرفني أن يضُرّني عند السُلطان .

موضع النّقد في هذه الرّواية ، أنّ حميداً كان رجلاً معروفاً في الكوفة ، بوصفه من المُقرّبين من ابن سعد . فكيف لا يكون معروفاً من أحد أشراف الكوفة ، وهم بحُكم موقعهم على صلةٍ يوميّةٍ بالوالي عليها . فكيف يأمنُ أن يُخاطبه بمثل هذا الخطاب ، مُطمئنّاً إلى أنّه لا يعرفه ؟! . ثم ، على كلّ حال ، أنّى له أن يجروء على إنذار ذلك المُتجبّر الغَشوم بـ"**عذاب الله**" في الآخرة ، جزاءً وفاقاً لقتاله الإمام ؟! . وذلك له معنى إدانة كلّ الضّالعين فيما يضلع فيه شمِر . ذلك لو صحّ ، وهو بالتأكيد غير صحيح ، ليدلُّ على أن حُميداً من طراز الرجال الذين يقولون ما يرونه حقاً ، بصرف النّظر عن عاقبته الوخيمة عليهم . وكم هذا الطّراز بعيدٌ عن حُميد ، الذي نعرفه جيّداً إنساناً ذرائعيّاً ، وسنعرفه أكثر ، لا يُبالي بما يفعل مادام ينفعه . حتى إذا تحوّل اتجاه الريح ، تحوّل هو معها ونصبَ شراعه في مواجهتها . بل ونُضيفُ إلى كلّ تلك الوجوه

النّقديّة، أن خطابه المزعوم لشمِر ، وهو يطعن فسطاط الإمام ويُنادي بما قاله ، يعني أنّه كان في طليعة الذين وصلوا مع المُقاتلين إلى الخيام . ومن الواضح أنّه في هذا لم يكُن يتنزّه ، بل كان يُقاتل كغيرِه .

الشّهامةُ الحقيقيّة بالفعل هو ماصدر من شبث بن ربعي في الموقف نفسه . حيث لمّا رأى فعلَ شمِر وسمع مقالتَه قال له : **" ما رأيتُ مقالاً أسوأ من مقالك ، ولا موقفاً أقبحَ من موقفك . أمُرعباً للنساء صِرْت ؟! "** . فاستحيا وانصرف . والحقيقة أنّ هذا الرجل ، على سيّئاته الكثيرة ، ومع أنّه لم يخرج على سياسة أشراف الكوفة التي بات القارئُ يعرفها جيّداً ، فإنّه لم يُذكَر له أنّه ضلع في الدماء بأيّ نحو . وكثيراً ما لام نفسه وغيرَه على ما كان [1] .

في هذا الوضع العصيب الباعث على اليأس جمع زهيرُ بن القين بسرعة عشرةَ رجال فشدّ على شمِر وأصحابه فكشفهم عن الخيام ، وقتلوا رجلاً منهم . فلما رأى أحدُ أصحاب الإمام ، عمرو بن عبد الله الصّائدي الهمْداني ، ارتفاعَ ضغط الأعداء عنهم ، حتى ذكر الصلاة . فقال للإمام : **" يا أبا عبد الله ، نفسي لك الفدا ! إنّي أرى هؤلاء قد اقتربوا منك . لا والله لا تُقتَلَ حتى أُقتِلَ دونك إن شاء الله . وأُحبُّ أن ألقى ربّي وقد صلّيتُ هذه الصلاة التي دنا وقتُها "** . فرفع الحسينُ (ع) رأسه وقال : **"ذكرتَ الصلاة . جعلك اللهُ من الذّاكرين . نعم ، هذا أوّلُ وقتها "** . ثم قال : **"سلوهم أن يكُفّوا عنّا حتى نُصلّي"** . فقال لهم الحُصين بن تميم التميمي ، صاحبُ شُرطة عُبيد الله ، إنّها لا تُقبَل . فقال له حبيب بن مُظاهر : **" لا تُقبَل ، زعمتَ ، الصلاةَ من آل رسول الله وتُقبَلُ منك ياحمار ؟! "** . فحمل التميميُّ بمَن معه عليهم . فالتقاه حبيب فضرب وجه فرسه بسيفه فوقع . وحمله أصحابه واستنقذوه . وقاتل حبيب ، على شيخوخته ، قتالاً شديداً . فضربه رجلٌ من أصحاب التميمي بالسيف على رأسه فقتله . واحتزّ التميميُّ رأسه بنفسه .

---

١ ــ انظر مواقفه المُتعدّدة لنحو ما ذكرناه في الطبري ، مُستعيناً بفهرست أعلامه ، مادة اسمه .

(١١) الملحمةُ الأخيرة ، القتال الفردي

وفيها بات الأصحاب عاجزين عن تنظيم الحملات . أولاً لقلّة عديد مَن بقي منهم كلّهم رجّالة . وثانياً لأن ذلك يقتضي أن يتركوا مواقعهم للأعداء القريبين من الخيام . الأمر الذي يُخشى معه أن يجتاحوا الموقع ، وفيه الإمام مُحاطاً بأهل بيته ؟ فطفقوا يحملون حملاتٍ فرديّة يائسة ، تنتهي بشهادتهم واحداً إثرَ واحد . يتقدّمُ أحدهم من الإمام فيُسلّم عليه ، وقد يقولُ كلماتٍ أو أبيات شعر أو رجز يُبيّن فيها ما يُناسب المقام . ثم يبرزُ إلى القتال ، فيُقاتل حتى يُقتل .

بدأ هذه الحملات :

(١) **الحرُّ الرّياحي** ومعه **زهيرُ بن القين** . فكانا إذا حمل أحدُهما وأُحيط به ، حمل الآخر ليُخلّصه . " **ففعلا ذلك ساعة** " . ويبدو أن هذا التكتيك البُطوليّ المؤقّت أنكى بالاعداء. فعمد بعض رجالهم إلى تنظيم أنفسهم قصدوا الحرَّ بجمعهم فقتلوه .

وفي الأثناء صلّى الإمامُ بأصحابه صلاةَ الخوف بمرأىً من الأعداء ، الذي ثابروا على رشقه والمُصلّين معه بسهامهم . فتقدّم :

ـ (٢) **سعيد بن عبد الله الحنفي** أمامه يقيه بنفسه من السهام المُنهالَة " **يرمونه بالنّبل يميناً وشمالاً حتى سقط** " .

ـــ (٣) **زُهير بن القين** . قاتل قتالاً شديداً إلى أن استُشهد. وقال في وداعه للإمام :

أقدِم هُديتَ هادياً مَهدياً   فاليوم تلقى جدّكَ النبيّا
وحسناً والمرتضى عليّا   وذا الجناحين الفتى الكميّا
وأسدَ الله الشهيدَ الحيا

ـ **(٤ و ٥) عبد الله وعبد الرحمن ابن عزرة الغِفاريّان** . لمّا رأى أصحاب الحسين (ع) قد كُثِروا . وأنهم لا يقدرون على أن يمنعوه ولا أنفسَهم ، تنافسوا أن يُقتَلوا بين يديه . فجاءه الأخوان عبد الله وعبد الرحمن فقالا:"**يا أبا عبد الله عليك السلام . حازنا العدوُّ إليك ، فأحببنا أن نُقتلَ بين يديك ، نمنعك وندفع عنك** " . قال:

"**مرحباً بكما . ادنوا منّي**". فهذان هما اللذين افتتحا القتال بين يدي الإمام بهذا النحو.

ــ (٦) **نافع بن هلال الجملي** ، كان رامياً ماهراً ، جعل يرميهم بسهامه . إلى أن جُرح وكُسرت عضداه ، فأُخذ أسيراً . فأخذه شمِر ومعه أصحابُه إلى ابن سعد يسوقونه. فقال له : " **ويحك يانافع ، ما حملك على ما صنعت بنفسك ؟** " . فكان من جوابه له:" **إنّ ربي يعلمُ ما أردت . والله لقد قتلتُ منكم إثنى عشر سوى مَن جرحت. ولو بقيت لي عضدٌ وساعدٌ ما أسرتموني** " . وانتضى شمِرُ سيفه وقتله .

ــ (٧و٨) **سيف بن الحارث بن سُرَيع ، وابن عمّه مالك بن عبد بن سُرَيع** . استقدما إلى القتال يلتفتان إلى الإمام ويقولان : " **السلامُ عليك يا ابن رسول الله** ". فقال : "**وعليكما السلام ورحمة الله** " . فقاتلا حتى قُتلا .

ــ (٩) **حنظلة بن أسعد الشِّبامي الهمّداني** . وقف يعظُ أهل الكوفة . ثم نادى الإمام : " **السلامُ عليك أبا عبد الله . صلّى اللهُ عليك وعلى أهل بيتك ، وعرّف بيننا** وبينك في جنّته " . فقال : " **آمين ، آمين !**" . فاستقدم فقاتل حتى قُتل .

ــ (١٠ و١١) **عابس بن أبي شبيب الشاكري** ، ومعه مولىً (عبدٌ مملوك) اسمه **شوذب** مولى شاكر . فسأله : " **ما في نفسك أن تصنع ؟** " ، أي أنّه لا يُريد أن يسوقه سوقاً إلى الموت . بل يترك له الخِيار بين القتال أو النجاة بنفسه . قال :" **ماأصنع؟ أُقاتلُ معك دون ابن بنت رسول الله حتى أُقتل** " . قال :" **ذلك الظّنُّ بك . فتقدّم بين يدي أبي عبد الله حتى يحتسبك ، كما احتسب غيرك من أصحابه ، وحتى أحتسبك أنا** " . فتقدّم فسلّم على الحسين ، ثم مضى فقاتل حتى قُتل . ثم قال عابس ، من كلامٍ له للإمام : "**السلام عليك يا أبا عبد الله . أُشهدُ اللهَ أنّي على هَديك وهَدي أبيك** " . ثم مشى بالسيف مُصلَتاً نحوهم . فتحاماه الناس ، بعد أن سمعوا من يعرفه يصيح : " **أيُّها الناس هذا الأسد الأسود ، هذا ابنُ أبي شبيب ، لا يخرجنّ له أحد منكم** " . فقال عمرُ بن سعد : " **ارضخوه بالحجارة** " . فرُمي بالحجارة من كلّ جانب . فلمّا رأى ذلك ألقى درعه ومغفره ثم شدّ على الناس . فوالله لرأيته يكرد (يسوق) أكثر من مائتين من الناس . ثم أنهم تعطّفوا عليه من كلّ جانب فقُتل .

ـ (١٢) **يزيد بن زياد بن المُهاصر أبو الشّعثاء الكندي** . كان ممّن خرج مع عمر بن سعد إلى الحسين (ع) . فلمّا ردّوا الشُّروط عليه مال إإليه فقاتل معه . جثا على رُكبتيَه بين يديه ، فرمى بمائة سهم . فكان كلّما رمى يقول الحسين (ع) : **"اللهم سدّد رميتَه ، واجعل ثوابه الجنّة "**.وكان من أوّل مَن قُتل (يعني في هذا الطّور من القتال)

ـ (١٣) **عمر بن خالد الصّيداوي** .

ـ (١٤) **جابر بن الحارث السّلماني** .

ـ (١٥) **سعد مولى عمر بن خالد الصّيداوي** .

ـ (١٦) **مُجمّع بن عبد الله العائذي** . هؤلاء الأربعة قاتلوا في أوّل القتال . فشدّوا مُقدمين باسيافهم على الناس. فلمّا وغلوا في جَمْع أهل الكوفة عطف عليهم الناس ، فأخذوا يحوزونهم ، وقطعوهم عن أصحابهم غير بعيد . فحمل عليهم العباس بن علي فاستنقذهم . فجاؤا قد جُرّحوا .

فلمّا دنا منهم عدوُّهم (يعني في أواخر القتال) شدّوا بأسيافهم ، فقاتلوا في أوّل الأمرحتى قُتلوا في مكانٍ واحد .

(وليُلاحظ القارئ أن هذا أوّلُ ذكرٍ لدخول العباس (ع) في القتال . ومنه نفهم أنّ مشاركته الأُولى حصلت بحملةٍ سريعةٍ في أوائل القتال ، وأنّه إذ ذاك كان يولي اهتمامه الأساسي لحماية شخص أخيه ، ولكنّه أيضاً كان يُراقب مجرى القتال ، وتدخّل مرّة واحدة على الأقلّ بسرعة عند ضرورة استنقاذ أُولئك الأربعة) .

ـــ (١٧) **بُشيرِ بن عمرو الحضرمي** . لا ذكر بوصف مقتله . بل إنّما ذُكر بوصفه قبل الأخير من أصحاب الإمام شهادةً بين يديه .

ـ (١٨) **سُويد بن عمرو بن أبي المُطاع الخثعمي** . قاتَلَ حتى أُثخن بالجراح وصُرع ، يعني فقد الوعي . فوقع بين القتلى مُثخَناً . إلى أن سمعهم يقولون : **" قُتل الحسين "** فأفاق . وكان معه سكّين ، فقاتلهم بسكّينه إلى أن قُتل . وكان آخرَ قتيل [١].

---

١ ـ الطبري : ٥ / ٤٥٣ . والخبر عن أبي مُخنف عن شاهد العيان زهير بن عبد الرحمن الخثعمي .

ــ (١٩) يزيد بن زياد أبو الشّعثاء الكندي . كان رامياً . جثا على رُكبتيه بين يدي الحسين (ع) ، فرمى بمائة سهم ، ما سقط منها خمسةُ أسهم ، إلى أن استُشهد .

فهؤلاء الرجال التسعة عشر كانوا آخرَ من ثبت مع الحسين (ع) من أصحابه حتى الشهادة . ولم يبقَ معه بعدهم سوى أهل بيته . يُضافُ إليهم الضّحّاك بن عبد الله المشرقي ، الذي عرفناه كثيراً راوياً ، أغنى معلوماتنا على وقائع البحث برواياته الكثيرة عن عيان . كما ذكرناه مُعاهداً للإمام أن يُقاتل معه ما دام القتال نافعاً . وبالفعل وفى بعهده ، فقاتل معه وأحسن القتال ، إلى أن بقي مع الإمام سُويد الخثعمي فقط ، فذكّره بما كان قد عاهده عليه ، فقال له : **"صدقت ، وكيف لك بالنّجاء ؟! . إن قدرتَ على ذلك فأنت في حِلّ "** . ولكنّ الضّحّاك كان قد أعدّ للأمر عُدّته ، فشقّ صفوفَ الأعداء على فرسه ونجا . وعاش من بعد وروى ما عاينه [١].

فمن هذا السّرد لوقائع القتال المُوثّقة ، يتبيّنُ لنا أن ما يُقالُ عن حملةٍ أُولى شاملةٍ على الإمام ومَن معه ، سقط فيها العددُ الأكبرُ منهم [٢]، هو كلامٌ غير دقيق . فالذي رصدناه هو عدّة حملات مُتقابلة من أحد الفريقيَن على الآخر ، لم تؤدِّ إلى حسم المعركة ، أو الإنكاء في أهل الكوفة ، بنحوٍ يبدو أثره على تراجُع أدائهم القتالي ، مع سقوط قتلى كثيرين من رجالهم . فلجأوا إلى سلاح الرُّماة لِما فيه من ميزةٍ للمُهاجِم ، تجعله بمنجى من سلاح خصمه . ومع ذلك ، فإنّ شهود العيان الذين وصفوا المشهد ،

---

١ ــ يجب أن نُشير في ختام البابين الأخيرين ٩ و ١٠ إلى أنّنا لم نُسند وقائعهما وما اقتبسناه فيهما من نصوص إلى مصادرها . اجتناباً لتسويد الصفحات بالهوامش الكثيرة . وهي جميعها برواية أبي مُخنف عن شهود العيان : الحسين بن عقبة المُرادي ، وربيع بن تميم الهمْداني ، وحُميد بن مسلم ، ومحمد بن قيس ، والضّحاك بن عبد الله المشرقي ، وفُضيل بن خُديج الكندي ، وزهير بن عبد الرحمن الخثعمي . استوعاها الطبري : ٥ / ٤٣٥ ــ ٤٦ . ما يُشير أيضاً وأيضاً إلى الجُهد الكبير الذي بذله أبو مُخنف في جمع رواياته .

٢ ــ انظر : الريشهري / ٦٩١ــ ٩٢ تحت عنوان **" كلامٌ حول شهداء الحملة الأُولى "** . وفيه ، بعد نقل كلمات غير مصدر ، نقدٌ صائبٌ ودقيق إجمالاً للمسألة .

لم يذكروا أن كثافة الرّمي قد أوقعت قتلى في صفوف الإمام . ما يصلحُ شاهداً على النّفي ، لأنهم في مقام البيان . بفضل لجؤهم إلى التُترُّس بخيولهم ودروعهم . لكنّ نتج عن هذا التكتيك القتالي نُفوق خيول أصحاب الإمام جميعها ، بما أصابها من سهام القوم ، فباتوا جميعاً رجّالة ، عاجزين عن تنظيم الحملات على صفوف الأعداء . ولم يبقَ لهم إلا القتال الفردي ، الذي انتهى إلى شهادتهم جميعاً كما عرفنا .

والظاهر أنّ ابن أعثم الكوفي (ت ، حو : ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م) هو المسؤول الأوّل عن هذه المُفارَقَة ، حيث قال في كلامه على بدء القتال ، تحت عنوان " **ذكرُ ابتداء الحرب بين الحسين وبين القوم** " : " **فحمل بعضُهم على بعض ، فاقتتلوا ساعةً من النهار حملةً واحدة ، حتى قُتل من أصحاب الحسين نيّفٌ وخمسون رجلاً** " [١] ، وهو كلامٌ صريحٌ على حملةٍ واحدةٍ في بدء القتال ، سقط فيها من أصحاب الإمام ما يزيد على الخمسين ، الأمرُ الذي بات القارئُ يعرفُ أنّه لم يحصل بذلك النّحو بالتّأكيد . ثم توالى من بعده مَن نقل مؤدّى عبارته دون تبصُّر [٢] .

فهذا دليلٌ على أنّ ابن أعثم ، وكلُّ الذين تابعوه ، ممّن ذكرناهم أدناه في الهامش رقم (٢) ، لم يكونوا يملكون أدنى فكرة عن سيْر المعارك يوم عاشورا ، في مختلف مراحلها وأطوارها . الأمرُ الذي بذلنا جُهدَاً صادقاً في توصيفه مرحلةً مرحلة . ولا يُحمَدُ إلا الله سبحانه .

نقِفُ في آخر هذا الباب على مَن لم يذكرهم الطبري من شهداء المرحلة الأخيرة من قتال الأصحاب ، بينما ذكرهم في *الفتوح* . هنا تجب الإشارةُ إلى أمريَن :

ــ الأوّل : أنّ الطبري التزم في عمله على شأن الحسين (ع) ووقائع شهادته

---

١ ــ *الفُتوح* ، ط. حيدر آباد ، لات. : ٥ / ١٨٤ .

٢ ــ *مقتل الحسين* للخوارزمي : ٢ / ٨ ــ ٩ : " **فاقتتلوا ساعةً من نهار حملةً وحملة . حتى قُتل من أصحاب الحسين جماعة** " . ونحوها في *الملهوف* / ١٥٨ ، *وكشفُ الغُمّة* : ٢ / ٢٦٢ و بحار الأنوار : ٤٥ / ١٢ . فضلاً عن كُتُب المقاتل المُتأخّرة الكثيرة .

والذين استشهدوا معه بما رواه أبو مُخنف في كتابه المفقود *مقتل الحسين* . مع استثناءٍ رئيس هو رواية عمّار الدهني عن الإمام الباقر (ع)إذ طلب منه **"حدّثني بمقتل الحسين حتى كأنّي حضرتُه"**. فافتتح بها الطبريُّ بها كلامَه على يوم كربلا إجمالاً[١]. ما يجب أن يُفهم منه تقديره العالي لها . مع أنّه قد يقطع رواية الدُّهني بذكر ما يُخالفها برواية غيره . لكنّ اعتمادَه روايات أبي مُخنف فيما خلا ، جعله مرهوناً لحظوظ هذا في أن يقعَ على مصدر معلومات ، شاهد عيانٍ نادراً ، أو الذي روى عن الشاهد غالباً . إذن فعمله في هذا هو أشبه بعمل المُحدّث منه بعمل المؤرّخ . يروي من الموجود كما وجده دون تركيب . ومن هنا فإننا نجدُ أنّه ، فيما يُخُصُّ موضوع هذا الباب، فاته ذكرُ شهادة عددٍ من الشهداء . أبرزهم العباس بن علي (ع) ، لأنّه لم يحظَ بالرّاوي المُناسب .

ــ الثاني : مشكلتنا مع ابن أعثم أعوص . فهو يُحاول أن يُركّب المادّةَ التاريخيّة زمنيّاً على الأقلّ . ولكنّه في هذا أشبه بحاطب ليل ، يُركّبها تركيباً عشوائيّاً ، مع الزّعم أنّه يُوالي بينها زمنيّاً ، بنحوٍ نعرفُ أنّه غير صحيح . فهو ــ مثلاً ــ ، تحت عنوان **" ذكرُ الذين قُتلوا بين يدي الحسين بن علي "** يقول : **" فأوّلُ مِن تقدّم إلى قتال القوم الحرّ بن يزيد الرّياحي "**[٢]. مع أنّ من الثابت أنّه قاتلَ بعد غيرِه . نعم ! توبتُه وقتاله هما اللذان تقدّما على بَدء القتال الكبير . فكأنّ الأمر قد اختلط على ابن أعثم بين توقيت التوبة وتوقيت القتال . والحقيقةُ أنّه هو المسؤول عن نشر تلك المقولَة المُنتشرةُ اليوم في كُتُب المقاتل . مثلما هو المسؤول عن نشر مقولَة الحملة الأُولى ، كما حقّقنا قبل قليل . وربّما عن غيرهما ، ممّا قد يكشفه التحقيق في التفصيلات .

كما أنّه يسوق ذكر شهادة مسلم بن عوسجة ، بعد ذكر شهادة أربعةٍ من الشهداء قبله ، بترتيب ثم ، ثم[٣]. مع أنّ من الثابت أن مسلم كان أوّل شهيدٍ بين يدي

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٣٤٧ وما بعدها .

٢ ــ *الفتوح* : ٥ / ١٨٥ .

٣ ــ نفسه : ٥ / ١٩٣ .

الإمام ، وثاني الشهداء بعد بُرير بن خُضير، الذي استشهد مبارزةً .

من هذا وذاك أُتينا ، سواءٌ فيما يخصُّ عديدَ الشهداء من الأصحاب ، أم في ترتيب شهادتهم زمنيّاً . وعلى كلِّ حال ، فإنّنا احتراماً لشهادتهم وذِكراها ، سنستدركُ على الطبري بذكر من أحصاهم ابنُ الاعثم ، بالنحو والترتيب الذي ذكرهم به . مع علمنا المؤكّد باضطراب عمله ، وافتقاره الشديد إلى الدِّقّة . ثم زاده سوءاً بؤس النسخة المطبوعة التي بين يدينا للكتاب ، وما حفلت به من أخطاءٍ فظيعةٍ تفوق الحَصْر. تاركين أمرَ تحقيق حال كلٍّ واحدٍ منهم الآن ، لصعوبته إلى ما يقربُ حدَّ ما يتجاوز الوُسْع :

١ ــ عمرو بن خالد الأزدي .

٢ ــ خالد ، ابنه .

٣ ــ شُعبة بن حنظلة التميمي .

٤ ــ عمرو بن حنظلة المَذحجي .

٥ ــ عبد الرحمن بن عبد الله اليزاني .

٦ ـ يحيى بن سليم المازني .

٧ ــ قرّة بن أبي قرّةالغفاري .

٨ ــ مالك بن أنس الباهلي .

٩ ــ عمرو بن المُطاع الجُعفي .

١٠ ــ حُويّ مولى أبي ذر الغفاري . (وهو نفسه جون بن حُويّ ، كما سبق في الكتاب)

١١ ــ أنيس بن معقل الأصبحي .

١٢ ــ الحجّاج بن مسروق .

١٣ ــ جنادة بن الحارث الأنصاري .

١٤ ــ عمرو ، ابنه .

١٥ ــ وهب بن عبد الله بن عُمير الكلبي [١].

---

١ ــ *الفتوح* : ٥ / ١٩٢ ــ ٢٠١ .

فهؤلاء خمسة عشر شهيداً من أصحاب الإمام ، إن نحن أضفنا إليهم الشهداءَ التسعة عشر على رواية الطبري ، مع إسقاط المُتكرّر هنا أو هناك ، ثم الخمسةَ الذين استُشهدوا في المُبارزات وأثناء القتال في أوله : بُرير بن خُضير ، ومسلم بن عوسجة ، وحبيب بن مُظاهر، وعبد الله بن عُمير الكلبي وزوجته ، ــ نصِلُ إلى أنّ عديد الشهداء من أصحاب الإمام هو تسعةٌ وثلاثون شهيداً عدّاً . والأمرُ بحاجةٍ إلى مزيد تدقيق ، نتركه لعملٍ مستقلٍّ إن شاء الله .

(١٢) الجدارُ الأخير

نعني بهذه العبارة البقيّةَ الباقيةَ ممّن كانوا مع الإمام بعد أصحابه ، وهم جميعاً من أهل بيته الهاشمي .

هؤلاء لم يشتركوا في القتال العالق حتى الآن . بل قصروا جُهدهم على حماية شخص الإمام ومَن معه من نساءٍ ووُلدان ، بعد أن بات الأعداء على مقربةٍ منهم . وبهذا اللّحاظ استعرنا لهذا الباب اسم " **الجِدار الأخير** " . لأن تلك البقيّة جعلت من نفسها حاجزاً بشريّاً قتاليّاً ، وظيفته حصراً أن يحول دون وُصول الأعداء إلى مَن نصبوا أنفسهم لحمايتهم . الأمرُ الذي اقتضى أن يكون عملهم دفاعيّاً في الأساس . وإن يكُن قد يستدعي هجوماً فرديّاً بالمُقابل ، حتى من الإمام بنفسه ، على الذين ينالون من أحدهم فيقتلونه أو يجرحونه . كما أنّهم صرفوا قسماً من جهودهم إلى العمل ما وسعهم على توفير الماء اللازم للإمام والذين معه من نساءٍ ووُلدان . وذلك بتنظيم اقتحامات بطوليّة للعسكر المُحيط بهم ، خصوصاً للمُولجين منهم بحراسة فرع نهرالفرات القريب ، كي لايصِلَ إليه أحدٌ منهم فيستقي منه .

ذلك يدلُّ ضمناً على أنّ هؤلاء البقيّة كانوا قد أعدّوا العُدّةَ سلفاً لهذه اللحظة العسيرة ، بأن عزلوا أفراسهم بوسيلةٍ ما ، وهي عنصرٌ لوجستي قتالي هامٌّ جدّاً ولا بديل عنه في ساحة القتال ، كي لا تسقط بسهام الاعداء ، كما حصل لأفراس الأصحاب قبل قليل . لأن ذلك أمرٌ إن حصل فسيجعلهم رجّالةً عاجزين تماماً عمّا ذكرناه من هجومٍ دفاعيّ ، أو عن آخرَ اقتحامي ابتغاء الاستقاء لَمن وراءهم . فهذا يدلُّ

أيضاً ، على أنّهم كانوا ، حتى في وضعهم الباعث على أقصى اليأس ، يُدبّرون أُمورَهم بالتفكير والتخطيط والأناة . وليس كجماعةٍ مذعورةٍ ، أفقدها الآتي الرهيب المحتوم القدرة على النّظر في أمرها وما يقتضيه .

(١٣) عديدُ الشهداء من أهل البيت ومقتلهم

المصادرُ قديمها والذي بعدُ تُغربُ في الأمر ، في خليطٍ من الاسماء والعدد ، يتعذّر على القارئ أن ينفذَ منه إلى صورةٍ تطمئنُّ إليها النفس . وتلك إمارةٌ على أنّ ما من أحدٍ منهم سعى إلى أن يدخل البيوت من أبوابها ، أو أن يتحرّى الصحيح بنفسٍ خالية من المقاصد . ذلك شأنَ أرباب المقاتل في المتأخّرين إجمالاً .

وحده صاحبُنا أبو مُخنف أورد أسماء أُولئك الذين وقفوا الوقفة الأخيرةَ مع سيّدهم ، عمّن شهد الوقعة . سنذكرها بالترتيب الذي أوردها فيه ، لاحتمال أنّه مقصودٌ له ، وإن هو لم يقُل ذلك :

١ ــ **علي الأكبر بن الحسين** (ع) . (نصّص على أنّه " **أوّلُ قتيلٍ من بني أبي طالب** ") . قتله مُرّة بن مُنقذ بن النُّعمان العبدي . أي أنّه من عبد القيس ، وهم بطنٌ من ربيعة ، عُرف تاريخيّاً بولائه الشديد لأمير المؤمنين (ع) . ولطالما أشاد بهم في كلامه . وقد رأينا غير واحدٍ منهم في الشهداء بين يدي الحسين (ع) . فذلك يدلُّ على المؤثّرات العميقة المُزلزِلَة التي خضعت لها الكوفة بعد علي (ع) .

٢ ــ **عبد الله بن مسلم بن عقيل بن أبي طالب** . رماه عمرو بن صبيح الصّدائي بسهمٍ في جبهته . ثم أجهز عليه بآخَر .

٣ ــ **عون بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب** . عند ذكره توردُ الروايةُ عبارةً ذات مغزى :" **فاعتورهم** [أهلَ البيت] **الناسُ من كلّ جانب** " . حمل عليه عبد الله بن قطبة الطائي فقتله .

٤ ــ **محمد بن عبد الله بن جعفر** . حمل عليه عامر بن نهشل التّيمي فقتله.

٥ ــ **عبد الرحمن بن عقيل بن أبي طالب** . شدّ عليه عثمان بن خالد بن أسير الجُهني وبشر بن سوط الهمْداني فقتلاه .

٦ ــ **جعفر بن عقيل بن أبي طالب** . رماه عبد الله بن عَزرة الخثعمي بسهمٍ فقتله .

٧ ــ **القاسم بن الحسن** (ع) . غلامٌ حَدِثٌ خرج في يده سيف . فشدّ عليه عمرو بن سعد بن نُفيل الأزدي حتى ضرب رأسه بالسيف . فنادى : ياعمّاه ! فشدّ عليه الإمام شَدَةَ ليثٍ غُضِب ، فضرب عمراً بالسيف فاتقاه بالسّاعد فأطنّها من لدُن المرفق ، ثم تنحّى عنه ، أي لم يُجهز عليه ، وفقاً لقاعدةٍ في فقه قتال البُغاة . وحملت خيلٌ لأهل الكوفة ليستنقذوه ، فاستقبلت عمراً بصدورها ، فوطئته حتى مات .

٨ ــ **أبو بكر بن الحسين** (ع) . كذا في النسخة التي بين يديّ من (الطبري:٥/ ٤٤٨) . ونظنّ أن "**الحسين** " تصحيف "**الحسن** ". وقد لاحظ بصدق في (*الصحيح* . . . . / ٨٨٠) أنه لم يُذكر أن للحسين (ع) ولدٌ اسمه أبو بكر.

رماه عبد الله بن عقبة الغنوي بسهمٍ فقتله

٩ و١٠ و١١ و١٢ــ **العباس بن علي (ع) وإخوته الثلاثة** . جاء في رواية مقتلهم :" **وزعموا أن العباس بن علي قال لأخوته من أُمّه** (أُمُّ البنين) **عبد الله وجعفر وعثمان : يابني أُمّي تقدّموا حتى أرثكم ، فإنّه لا وُلد لكم ، ففعلوا ، فقُتلوا** " .

١٣ ــ عبد الله بن علي (ع) . شدّ عليه هانيء بن ثبيت الحضرمي فقتله .

١٤ ــ جعفر بن علي (ع) . ثم شدّ على جعفر فقتله وجاء برأسه .

١٥ ــ عثمان بن علي (ع) . رماه خِولّى بن يزيد الأصبحي بسهم . ثم شدّ عليه رجلٌ من بني أُبان بن دارم فقتله .

١٦ ــ محمد بن علي (ع) . رماه رجلٌ من بني أُبان بن دارم بسهمٍ فقتله وجاء برأسه . وهؤلاء الأربعة غير مَن سبقهم بالذكر ، وإن تشابهت الاسماء .

١٧ ــ غلامٌ . لا يُدرى مَن هو . عن هانيء بن ثبيت الحضرمي: "**كنتُ ممّن شهد قتل الحسين . فوالله إنّي لواقفٌ عاشر عشرة ، ليس منّا رجلٌ إلا على فرس ، وقد جالت الخيلُ وتصعصعت ، إذ خرج غلامٌ من آل الحسين ، وهو مُسكٌ بعمودٍ من تلك الأبنية، عليه قميصٌ وإزارٌ ، وهو مذعورٌ يلتفتُ يميناً وشمالاً . إذ أقبل رجلٌ يركض ،**

حتى إذا دنا منه مالَ عن فرسه ، ثم اقتصد الغلام فقطعه بالسيف [1] " .

فهؤلاء سبعة عشر شهيداً من أهل البيت قُتلوا جميعاً قبل أن يُصاب الإمام .

ويقول الشيخ المفيد : " **أسماء مَن قُتل مع الحسين (ع) من أهل بيته بطفّ كربلا ، وهم سبعة عشر نفساً . الحسين بن علي عليه السلام ثامن عشر منهم"** [2].

فهذان شاهدان بما فيه الكفاية على عددهم وشهادتهم وقاتليهم . مع ملاحظة الاختلاف في الأسماء كما بسطناها عن الشيخ المفيد أدناه .

نُضيفُ إليهما ماجاء في روايةٍ يرويها الشيخُ أيضاً ، أن يزيد سأل كبيرَ الموكب القادم من الكوفة بالرؤوس وبنساء ووُلدان أهل البيت عمّا وراءه ، فقال له : ". . . **ورد علينا الحسين بن علي في ثمانية عشر من أهل بيته** . . . " الخ. [3] ، يعني بإضافة الإمام زين العابدين (ع) إلى السبعة عشر . نقول هذا في مُقابل التّخليط الكبير والارتجال في

---

١ ــ الطبري : ٥ / ٤٤٦ ــ ٤٩ . ورواية المقاتل كما اوردناها ، هي إجمالاً عن شاهدي عيان . مقتل علي الأكبر : أبو مخنف ، عن زهير بن عبد الرحمن بن زهير الخثعمي . وهو من شهود الوقعة بالتأكيد . حدّث عنه أبو مُخنف مقتل علي الأكبر، ومقتل سُويد بن عمرو بن المُطاع ، آخر قتيلٍ من أصحاب الإمام (الطبري :٥/ ٤٥٣) . والباقي كلّه برواية أبي مُخنف ، عن سليمان بن أبي راشد ، عن حُميد بن مسلم . وقد عرّفنا بهما فيما سبق.

٢ ــ الإرشاد/ ٢٤٨. تكملةُ نصّه :١ـ العباس،٢ــ عبد الله ،٣ ــ جعفر، ٤ ــ عثمان . بنو أمير المؤمنين عليه وعليهم السلام ، أُمهم أُمّ البنين . ٥ ــ عبد الله ، ٦ ــ أبو بكر . ابنا أمير المؤمنين . أُمهما ليلى بنت مسعود الثقفيّة .٧ ــ علي ، ٨ ــ عبد الله ، ابنا الحسين بن علي عليهما السلام . ٩ــ القاسم ، ١٠ ــ أبو بكر،١١ ــ عبد الله . بنو الحسن بن علي عليهما السلام . ١٢ ــ محمد ، ١٣ ــ عون . ابنا عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين.١٤ــ عبد الله، ١٥ــ جعفر ، ١٦ــ عبد الرحمن . بنو عقيل بن أبي طالب رضي الله عنهم، ١٧ ــ محمد بن أبي سعيد بن عقيل بن أبي طالب ، رحمة الله عليهم .

٣ ــ نفسه / ٢٤٥ .

هذا الشأن ، الذي وسم روايات مختلف كُتُب التاريخ والمقاتل . حتى بلغ بعضُها بالشهداء من أهل البيت إلى سبعين اسماً [1]. بل وإنّنا نُرجّح أن شهادة الشهداء قد حصلت بالترتيب الذي أورد أسماءهم فيه . يكفي أن يُقارن القارئُ الترتيب غير المعقول للأسماء كما أوردها ابن أعثم [2]، بمثله لدى الطبري برواية أبي مُخنف ، ليرى ما رأيناه . مع أن ابن أعثم زعم أنه يوردها بالترتيب الذي حصلت فيه ، بقوله دائماً **" ثم "** أو **" بعده "** وما إلى ذلك .

مهما يكُن ، فإنّ الانطباع الذي يخرج به القارئُ من التّمعُّن بقراءة وقائع الجولة الأخيرة من ملحمة يوم عاشورا ، أنّ الأمر كان أشبه بالمذبحة منه بالمعركة . قُضي فيها أثناء ساعة أو أكثر قليلاً على جميع السبعة عشر . وذلك أمرٌ مفهومٌ جدّاً، بالنظر إلى عديد أهل البيت ، في مُقابل الآلاف الذين يُحيطون بهم من كلّ جانب ، يتقدّمهم بعض الأشراف . لاهمّ لأحدهم إلا أن يُسجّل في صفحته لدى ابن زياد ، أنّه قتل هذا أو ذاك منهم ، حتى إن يكُن غلاماً صغيراً ، كما رأينا غير مرّة .

الوحيد الذي تتوفّر الأدلّة ، عن أبي مُخنف وعن غيره ، أنه بادر إلى القتال هو علي الأكبر ، الذي عرفناه أولَ قتيلٍ من أهل البيت . أخذ يشدُّ على الناس وهو يقول :

أنا عليُّ بن الحسين بن علي   نحن ورب البيت أولى بالنبي

تالله لا يحكمُ فينا ابنُ الدّعي

ففعل ذلك مِراراً [3].

---

١ ـــ انظر *الصحيح من مقتل سيّد الشهداء وأصحابه* / ٩٣٨ ـ ٤٢ .

٢ ـــ *الفتوح* : ٥ / ٢٠٢ ـ ٢٠٩.

٣ ـ الطبري : ٥/ ٤٤٦. وانظر *مقاتل الطالبيين* / ١١٥و *مروج الذهب* :٣/ ٧١ و *سِير أعلام النبلاء* : ٣/ ٣٠٢ و *مناقب الطالبيين* :٤/ / ١٠٩ . و *الكامل في التاريخ* : ٢ / ٥٦٩ ، وغيرها عديد.

٤ ـ الطبري : ٥ / ٤٤٧ .

أمّا غيره منهم فأكثرهم ، كما رأينا ، قُتلوا رمياً بالسهام ، بعد أن " **اعتورهم** [أحاط بهم ، طوّقهم] **الناسُ من كلّ جانب**" [٤] . وأمّا الباقون ، فصفةُ قتلهم بين "**وحملَ عليه** " ، و"**شدَّ عليه** " يعني بسيفه . فكأن أحد أُولئك الذئاب كان يختار ضحيّتَه وطريقة قتلها كما يحلو له .

تبقى هنا إشكاليّةٌ تتعلّق بشهادة العباس بن أمير المؤمنين (ع) .

فقد رأينا كيف أوردها الطبري بسرعة . حيث العباس خاطب إخوته من أُمه فقال لهم:" **تقدّموا حتى أرثكم ، فإنّه لا وُلد لكم ، ففعلوا ، فقُتلوا** " . والرواية عن أبي مُخنف ، عن حُميد بن مسلم ، بحقّ رواية أبي مُخنف عن سليمان بن أبي راشد . وهي، وإن وردت بعنوان "**وزعموا**"[١] ، التي تُلمِحُ إلى ريب أبي مُخنف بصحتها . لكنّ الظاهر أنّ الرّيب مُتجهٌ فقط إلى ما قاله العباسُ لإخوته .ضرورة أن حادثة قتلهم أمرٌ مشهودٌ للراوي ، ولا سبيل إلى وصفها على لسانه بأنها مزعومة . لذلك فإنّه ما من سببٍ عندنا للريب فيها . امّا ما قيل قبلها من كلام العباس فله شأنٌ آخَر . أنّى له أن يُسمَع في ظلّ ضجيج العسر اللجب القريب . ومن هنا احتاط لروايته ، فبدأها بقوله :" **وزعموا** " .

ومن الواضح أنّ نعتَه القول بالمزعوم دليلٌ إضافيٌّ على دقّته فيما يرويه .

لكن ، من جهةٍ أُخرى ، فإن المصادر بكافة اتجاهات مؤلفيها تُطنبُ في وصف شجاعة العباس وقتاله البطوليّ المُستميت بين يدي إخيه وإمامه ومَن معه .

فكيف نحلُّ هذا الخُلف ؟

الجواب كامن في قول العباس لأخوته : "**تقدّموا** "، حتى مع ريبنا بصحة نقله كما قُلنا .

ذلك لأن التقدُّم قد حصل بالفعل ، وبذلك تتراجع أهميّة الكلام إلى الدرجة الثانية . أي التقدّم إلى القتال في سبيل الحصول على الماء للعطاشى . وليس إلى القتال الدفاعي . لأن هذا النّمط من القتال يستدعي الثبات وليس التقدّم .

---

١ ــ نفسه : ٥ / ٤٤٩ .

هذا الفهم يؤيّده ما يُشبه الإجماع في النصوص، على أن العباس وإخوته الثلاثة قُتلوا وهم يُقاتلون بعيداً ، عند أو في الطريق إلى المُسنّاة ، أو عائدين منها ، في سبيل الحصول على الماء ثم إيصاله للإمام ومَن معه [1] .

هوذا ما يُفسّرُ لنا فشل أبي مُخنف في أن يُزوّدنا بمعلومات وافية عن مقتل العباس وإخوته الثلاثة ، واكتفائه بالقول " **فقُتلوا** " بصيغة المَبني للمجهول ، دون بيان كيف ومَن . ذلك انّ الرجل هو في النهاية راوٍ يجودُ من الموجود ، أي ممّا يتوفّرُ له عند مَن روي عنهم ، ثم أن يحظى هو بلقاء أحدهم أو مَن سمع منه. بينما واقعة قتل العباس إخوته حصلت بعيداً عن موقع الرّاوي الأوّل حُميد بن مسلم ، الذي كان موجوداً في موقعٍ متقدّم من خيام الإمام ، بحكم موقعه من ابن زياد ، وبالتالي في نظام توزيع مواقع المُقاتلين في العسكر ، حسب أهميّة كلٍّ منهم . فلم يُتح له أن يرى ما حصل هناك . فكان منه أن أوجز كلامه ذلك الإيجاز المُخلّ . مع أنه كان من الممكن لأحد الرُّواة الثلاثة أن يتخيّل أو يرتجل . ولكنّه لم يفعل ، ووقف عند ما عرفه .

هكذا يكون ما قد يبدو للقارئ تقصيراً في تغطية شهادة العباس وإخوته الثلاثة ، دليلاً على الضبط ، وعلى تحرّي الصدق من أبوابه .

(١٤) الشهادة

تقول روايةٌ قويّة [2] أن الحسين (ع) حين بقي وحيداً " **ركب يُريدُ الفرات** " . فقال رجلٌ من بني أُبان بن دارم :" **ويلكم! حولوا بينه وبين الماء ، لاتتّامُ إليه شيعتُه . وضرب فرسه ، وأتبعه الناس حتى حالوا بينه وبين الفرات**[3] " .

---

١ ــ *الإرشاد/* ٢٤٠ وفيه : "**وأحاط القومُ بالعباس فاقتطعوه. فجعل يُقاتلهم وحده حتى قُتل رحمة الله عليه.وكان المُتولّي لقتله زيد بن ورقاء الحنفي وحكيم بن طُفيل السنبسي بعد أن أُثخن بالجراح** " .

٢ ــ الرّاوي هشام بن محمد الكلبي ، عن أبيه ، عن القاسم بن الأصبغ بن نباتة ، عمّن " **شهد الحسين في عسكره** " .

٣ ــ الطبري : ٥ / ٤٤٩ ــ ٥٠ .

يروعُنا في هذه الرواية أنّ ذلك الرجل الأُباني لم يرَ في وصول الإمام إلى الماء أنّه سيشرب ، أي ما قضت خطّةُ أعدائه بمنعه منذ بدء القتال ، بل خُطورة أنّه إذا تابع طريقه باتجاه الفرات " **تتامّ إليه شيعتُه** " .

ثم أنّ رواية ثانية تقول: " **إنّ أشياخاً من أهل الكوفة لَوُقوفٌ على التّلّ يبكون ويقولون : اللهم أنزِل نصرَك !** " . قلتُ (الرّاوي) : " **يا أعداء الله ، ألا تنزلون فتنصرونه** "[1] .

فهل معنى ذلك أنّ من "**شيعته**" جَمْعٌ كان يُراقب ما يجري ، دون أن يسعه التدخُّل في المعركة العالقة لمدّ الإمام بالعون ؟

نقولُ في الجواب : نعم ! بالتأكيد . بل أن وجودهم كان أمراً معروفاً ملحوظاً لبعض العسكر على الأقلّ . بدليل صيحة الرجل وقد رأى الإمام قد ركب فرسه واتجه جهة الفرات ، بأن يمنعوه خشيةَ أن " **تتامّ إليه شيعتُه** " ، ومبادرة العسكر لمنعه .

يُستفادُ من قراءة الخبرَين قراءةً نقديّةً ، أن ما من أحدٍ من الرّاوييَن رمى بروايته إلى أن يقول لنا ما استفدناه ، وإن على مستوى تساؤل . دعانا إليه (التساؤل) غرابةُ الخبر ، وغيابُ الإشارة إلى مضمونه في كلّ ماوصلنا من أخبار يوم كربلا . وإنّما استفدنا ما استفدناه من الجمْع بين الخبرَين ، مع استحالة التواطؤ بين الرّاوييَن على الكذب . وهو من أقوى الأدلّة عند المؤرّخ .

ثم أنّ هذا التساؤل يدفعُ باتجاه تساؤلٍ ثانٍ : مَن هم أُولئك الـ " **أشياخ من أهل الكوفة ؟** " . ولماذا لم يذكرهم بأسمائهم ؟ . مع أن وصفه لهم بـ " **أشياخ** " يُفهم منها أنه كان يعرفهم إجمالاً . ثم أن بكاءهم ودعاءهم يدلُّ على أنهم حُزانى ممّا يجري أمامهم دون أن يقدروا على منعه .

---

١ ــ نفسه : ٥/ ٣٩٢ . والرواية للرّاوي الحُصين بن عبد الرحمن أبو الهُذيل السُّلمي عن سعد بن عُبيدة . والأوّل من كبار رُواة الطبري ، والثاني لم يُنقل عنه إلا هذه الرواية . ويؤخذُ من خطابه أنّه شاهد عيان . انظر اسميهما في فهرست أعلام الكتاب .

فهل هم من الذين كاتبوا الإمام ثم خذلوه ؟

أم هل وجودهم بالقرب من ساحة القتال لأنهم من أهل القُرى والمزارع المعمورة ببني أسد ، وكلّها يستقي من فرع نهر الفرات . هؤلاء كانوا يعرفون جيّداً مَن هو الحسين (ع) . كما أنهم بريئون من التأثيرات السياسيّة والقمعيّة التي نزلت بأهل الكوفة . إذن فالإمام حين اتجه إلى الفرات ، كما تقول الرواية ، لم يكن يقصدُ الماء ، بل هؤلاء الناس الطّيبين مُستنصراً . أُولئك الذين تقول الرواية أنهم كانوا يُراقبون ما يجري وهم يبكون . ونحن نعرف أن بني أسد هم الذين ولوا دفن الشهداء بعد المعركة ورحيل العسكر ؟

أم هل هم من الأُلوف الذين حشدهم ابنُ زياد كُرْهاً لقتال الإمام ، وسيّرهم إلى كربلا . لكنهم كانوا يتسلّلون هاربين أثناء الطريق ، لكراهتهم الدخول في القتال . دون أن يسعهم العودُ إلى الكوفة حيث سينكشف أمرهم ويتعرّضون لانتقام السُلطة . فكمنوا في نواحي المنطقة منتظرين انجلاء الأُمور ؟

أسئلةٌ كبيرةٌ لا يسعُنا في الجواب عنها إلا أن نقول : اللهُ أعلم ! على أنّه ما من مانعٍ من الجمع بين الاحتمالات الثلاثة .

مهما يكُن فإن الإمام بقي وحيداً ، إلا من العيال والوُلدان . يقف وقفةً مشهديّةً ، ترمزُ حتى حين إلى الفصل بشخصه وهيبته بين العسكر الكثيف المُتألّب عليه ، ولكن المُرتبك أيضاً من فظاعة الجريمة المَهولة التي يعرفُ أنّ عليه أن يرتكبها ، ــ وبين الخيام .

ثمة روايتان تُكملان المشهد ، حتى ذروته الفاجعة بقتل سيّد الشهداء (ع) . نراهما تتكاملان في وصف اللحظات الأخيرة . الرواية لأُولى لأبي مُخنف ، ساقها الطبري بعنوان " **قال أبو مُخنف في حديثه** " [1] . أي دون إيراد سنده . وهذه هي المرّة الوحيدة التي رأينا فيها الرجلَ يُخفي سنده. ونظنّ أنّه تنكّب طريقته في الرواية هذه المرّة

---

١ ــ الطبري :٥ / ٤٥٠ .

بعينها ، لأن الرّاوي أراد ، أو اشترط عليه ، أن يُخفي شخصَه . ضرورةَ أنّه بأداء شهادته على قتْلة الإمام يشهدُ على نفسه ضمناً بأنّه شهد الوقعة في جانب القَتَلَة . الأمر الذي غدا بعد قليل سببَ عارٍ وشنارٍ لصاحبه . خلافاً للرّاوي الآخر حُميد بن مسلم ، الذي لم يكن وجودَه في فريق القَتَلَة ، منذ الإجراءات التحضيريّة للمعركة ، حتى وصول موكب الرؤوس والنساء إلى دمشق ، خفيّاً على احد .

نعتبر وجود روايتين على الواقعة نفسها أمراً في صالحنا ، لأنّ ما من شخصٍ يروي واقعةً شهدها بأُمّ عينه ، مثلما يرويها آخرُ شهدها أيضاً . بل سيُلفتُ نظرَ أحدهما غير ما يُلفتُ الآخر . خصوصاً وأنّنا نلاحظ أنه ما من اختلافٍ أساسيٍّ بينهما ، إنّما الاختلاف محصورٌ في التفاصيل التي لاحظها أحدهما وفاتت الآخر . لذلك فإنّنا سنعمد إلى استنطاق الروايتين ، ابتغاء صياغة روايةٍ واحدةٍ منهما ، نأملُ أن تأتي وافيةً بمشهدٍ أكثر كمالاً وانسجاماً .

يفتتحُ حُميد في روايته **المشهد الثاني** بوصف هيئة الحسين (ع) قبل إقدام القوم عليه ، بأنّه **" كانت عليه جُبّة خزّ ، وكان مُعتمّاً ، وكان مخضوباً بالوسمة**[1] **"** . أي أنّ الإمام كان قد استعدّ لمعركته الأخيرة بأن يكون في مظهر عزّة . فلا يلقى جمعهم كيفما كان ، أو بما يشهدُ عليه بالانكسار . ونقدّرُ أنّه أراد بذلك أن يُريهم أنّ الموقف الصّعب الذي هو فيه لم يُغيّر منه ، ولم يأخذ من اعتزازه الثّابت بنفسه وبموقفه ، حتى وهو يُواجه الآن الشهادةَ المؤكّدة بعد لحظات .

المشهد الثالث لأبي مُخنف :**" ثم أنّ شَمِر بن ذي الجوشن أقبل في نفرٍ ، نحوٌ من عشرةٍ من رجّالة اهل الكوفة ، قِبَلَ منزل الحسين الذي فيه ثقلَه وعيالَه . فمشى نحوَه ، فحالوا بينه وبين رَحْلِه**[1] **"** .

هذه حركةٌ خبيثةٌ ، لا طائل لها من الوُجهة التكتيكيّة القتاليّة . ونظنّ أنّ قصدَ شَمِر منها توجيه طعنةٍ معنويّةٍ مُحسوبَةٍ إلى الإمام ، بتهديده في عياله . بدليل أنّه فصله

---

١ ــ نفسه .

عن منزله الذي فيه ثقله وعياله خاصّة . ولنُلاحظ هنا أنّ عُمر بن سعد قد عزل نفسَه عن الفعل في كلّ هذا . وأطلق يدَ شَمِرٍ في أن يتصرّف بما يراه .

في المُقابل وجّه الإمام كلاماً حازماً لشَمِر ورجاله . قال : " **ويلكم ! إن لم يكُن لكم دين ، وكنتم لا تخافون يوم المعاد ، فكونوا في أمر دنياكم أحراراً ذوي أحساب . امنعوا رحلي وأهلي من طُغامكم وجُهّالكم !** [1] " .

والظاهر أن كلام الإمام ، الذي لم يكُن يملك سواه في موقفه الدّقيق ، قد أصاب الهدف ، إذ علّق أنّهم " **أحرار** " ، يعني ليسوا عبيداً ، ومن ذوي " **الأحساب** " ، يعني المكانة ، على التصرُّف بما يليق تجاه النساء . والعكسُ صحيح . ومن المعلوم أنّ القِيَم العربيّة (الدُّنيويّة ، حسب عبارة الإمام) تُدين مسّ النساء الضعيفات بسوء من الرجل المُعتزّ برجولته . فسارع شَمِر إلى القول : " **لك ذلك ياابن فاطمة** " .

ومن الواضح للقارئ اللبيب أن الموقف بعناصره الثلاثة عبارةٌ عن معركةٍ معنويّةٍ ، تُبودلت فيها المواقف ، بما تحمله من مغازي ، خرج منها الإمام مُنتصراً مؤقّتاً .

المشهدُ الرابع . وفيه أقدم شَمِر باتجاه الإمام بمَن معه من رجّالة أهل الكوفة . يذكر أبو مُخنف أسماء خمسةٍ منهم هم : عبد الرحمن الجُعفي المُكنّى أبو الجَنوب ، والقشعم بن عمرو بن يزيد الجُعفي ، وصالح بن وهب اليَزَني ، وسنان بن أنس النّخعي ، وخِوَلّى بن يزيد الأصبحي . والظاهر أن هؤلاء ، بالإضافة إلى مَن لم يُذكروا بأسمائهم ، وهم زُهاء الخمسةُ أيضاً (لاحظ أن أبا مُخنف قال قبل قليل أنهم " **نحوٌ من عشرة** ") ، ــ هؤلاء اختارهم شَمِر ليكونوا الجلاّدين قتلةَ الإمام . فجعل يُحرّضهم على الإقدام عليه فلا يستجيبون . فانتخب أبا الجَنوب الذي كان معروفاً بالشجاعة ليكون هو الجلاّد ، فقال له : " **أقدِم عليه !** " ، فقال :" **وما يمنعك أن تُقدمَ عليه أنت ؟!** " وانتهى المشهد بأن تسابّا ، وبتهديد شَمِر صاحبه " **والله لئن قدرتُ على أن أضرّك لأضرّنّك** " . يعني أمام عُبيد الله بن زياد فيما يبدو . فلم يجِدْ شَمِر بُدّاً من أن يتقدّم من

---

١ ــ أيضاً .

الإمام بنفسه ، فـ **" أقبل بالرّجّالة نحو الحسين . "**[1] .

المشهد الخامس ، وهو عن حُميد بن مسلم :

" فأخذ الحسينُ يشدُّ عليهم فينكشفون عنه . وهو يُقاتل على رجليه قتالَ الفارس الشجاع ، يتّقي الرّميةَ ، ويفترصُ العورة ، ويشدُّ على الخيل ، وهو يقول : أعلى قتلي تحاثُّون ! أما والله لا تقتلون بعدي عبداً من عباد الله أسخطُ عليكم لقتله منّي . وأيمُ الله ، إنّي لأرجو أن يُكرمني اللهُ بهوانكم ، ثم ينتقمُ لي منكم من حيث لا تشعرون . أما والله ، أن لو قد قتلتموني ، لقد ألقى اللهُ بأسَكم بينكم ، وسفكَ دماءكم . ثم لا يرضى لكم حتى يُضاعف لكم العذابَ الأليم "[2] .

النّصُّ قويٌّ متين وغنيٌّ . يشهد لصاحبه بدقّة الملاحظة ، واستيعاب المشهد بما فيه من كلام الإمام ، الذي يشهدُ لنفسه بالصّحّة ، بما نعرفه ونألفه من لحن كلام أهل العصمة . كما أنّه يُزوّدنا بمعلومةٍ إضافيّة عما قاله أبو مُخنف ، حيث قال :" **ويشدُّ على الخيل**" التي تقول ضمناً أن القوم لجأوا ، مُقابل الدفاع المجيد للإمام عن نفسه ، إلى الإستعانة بالفرسان . ومن المعلوم أن هؤلاء لهم ميزةٌ قتاليّةٌ كبيرةٌ على الرّجّالة . فلجوء هؤلاء لهذا التدبير يدلُّ على أن الإمام قد أنكى بهم وأعجزهم في أوّل القتال ، قبل أن تُقعده جراحاتُه الكثيرة عن الاستمرار .

من المشهد الخامس أيضاً ، صورةٌ مشهديّةٌ حركيّة . هي هذه المرّة برواية عبد الله بن عمّار بن عبد يغوث البارقي . وهو كوفي ، كان في الماضي من رجال علي (ع) وشهد معه صفّين[2] . كما شهد يوم كربلا في صفّ العسكر ، ولكنّه نفى أن يكون قد شارك في جريمة قتل الإمام[3] . مع أنّه ، فيما يدلُّ عليه كلامه الآتي ، كان في اللحظات الأخيرة قريباً جدّاً من موقعها . قال :

---

١ ــ أيضاً .

٢ ــ الطبري " ٤ / ٥٦٥ و ٥٦٦ .

٣ ــ نفسه : ٥ / ٤٥٢ .

" فشدّ عليه رَجّالةٌ ممّن عن يمينه وشماله . فحمل على مَن على يمينه حتى ابذعرّوا [تفرّقوا] وعلى مَن على شماله حتى ابذعرّوا . وعليه قميصٌ من خزّ ، وهو مُعتَمّ . فوالله ما رأيتُ مكثوراً قط ، قد قُتل وِلده وأهلُ بيته وأصحابه أربط جأشاً ، ولا أمضى جِناناً ، ولا أجرأ مقدماً . والله ما رأيتُ قبلَه ولا بعدَه مثلَه . إنْ كانت الرّجّالة لتنكشفُ من عن يمينه وشماله انكشافَ المِعزى إذا شدّ فيها الذئب" [١] .

المشهد السادس . وهو عن حُميد بن مسلم . حيث بات الإمام عاجزاً عن الدفاع عن نفسه لِما نزل به ، فجلس أو استلقى فيما نتصوّر .

"ولقد مكث طويلاً من النهار . ولو شاء الناسُ أن يقتلوه لفعلوا . ولكنّهم كان يتّقي بعضُهم ببعض . ويحبُّ هؤلاء أن يكفيهم هؤلاء " [٢] .

في الأثناء كان شَمِر يُراقب ما يجري إلى أن نفد صبرُه ، فنادى في الناس : **"ويحكم ، ماذا تنتظرون بالرجل ، اقتلوه ثكلتكُم اُمهاتُكم** [٢]**"** . فحُمل عليه من كل جانب . فضُربت كفُّه اليسرى ضربةً ، ضربها زُرعة بن شريك التّميمي . وضُرب على عاتقه . ثم انصرفوا عنه وهو ينوء ويكبو .

وحملَ عليه في تلك الحال سنانُ بن أنس بن عمرو النخعي ، فطعنه بالرمح فوقع . ثم قال لخِولّي بن يزيد الأصبحي : **" احتزّ رأسَه ! "** . فأراد ان يفعل فضعُف وأرعد . فقال له سنان : **" فتّ اللهُ عضدك ، وأبان يدَك "** . فنزل إليه فذبحه واحتزّ رأسَه . ثم دُفع إلى خِولّي بن يزيد [٣] . **"وجعل سِنان بن أنس لايدنو أحدٌ من الحسين إلا شدّ عليه ، مخافةَ أن يُغلب على رأسه "** [٤] . **" وسُلبَ الحسينُ ما كان عليه . فأخذ سراويلَه بحرُ بن كعب . وأخذ قيسُ بن الأشعث قطيفتَه . وكان يُسمّى من بعدُ (قيس**

---

١ ــ نفسه .

٢ ــ أيضاً .

٣ ــ أيضاً / ٤٥٣ .

٤ ــ نفسه .

قطيفة) . وأخذ نعليه رجلٌ من بني أَوْد ، يُقالُ له الأسود . وأخذ سيفَه رجلٌ من بني نهشل بن دارم [. . . .] ومال الناسُ على الوَرس والحُلل والإبل وانتهبوها . وعلى نساء الحسين وثقله ومتاعه . فأن كانت المرأةُ لتُنازَعُ ثوبَها عن ظهرها[1]" .

ثم أنّ عمر بن سعد نادى :" **مَن ينتدب للحسين ويوطئه فرسَه ؟**" . فانتدب عشرة ، منهم إسحاق بن حيوة الحضرمي ، وأحبش بن مرثد بن علقمة الحضرمي . فأتوا فداسوا الحسين بخيولهم ، حتى رضّوا ظهره وصدره .

ودفَنَ الحسينَ وأصحابَه أهلُ الغاضريّة من بني أسد ، بعدما قُتلوا بيوم[2].

---

١ ــ أيضاً .

٢ ــ أيضاً : ٥ / ٤٥٤ــ٥٥.

ختـــــام

(١)

رميتُ في الصفحات المائتين للكتاب أن أرسم صورةً مشهديّةً قاتمةً ، أقرب ما أمكنني إلى الصدق . دارت رحاها بين المدينة ومكة والكوفة وكربلا ، بين مَن يُمثّلُ بشخصه في زمانه عظمةَ خاتمة الرّسالات ، وبين أدنى ما يمكن أن يصِلَ إليه البشرُ من حقارةٍ وانحطاط ، انتهت بوهم انتصارٍ لهؤلاء . ولكنّ الزمان ما لبث أن أثبت أن الشهادة الصادقة قوّةٌ توقظُ وتُرشد ، لا تُدانيها إلا قوّةُ الإيمان بعد الضلال .

تلك الصفحات هي ثمرة نُزوعٍ قديمٍ ، رافقني منذ مطالع الشباب ، إلى تحرير الصورة الحقيقيّة للمشهد ، ممّا علق به من زبدٍ جُفاء ، وهو يتحرّك بقوته الذّاتيّة في الضمائر والنفوس . بانياً حوله شبكةً هائلةً من الأخيلة والأوهام . ليس وراءها إلا الانفعال بقلبها الحقيقيّ الصّلب . ومن المعلوم أن الانفعال وحده ، مهما يكُن صادقاً وصحّيّاً ، لا يقود إلا إلى طلب المَزيد من أسبابه . وهكذا تبتعدُ الصورةُ الناشئةُ بتأثيره عن قلبها الحقيقي .

المشكلة هنا من أين نبدأ . من السهولة بمكان أن يجمع الباحثُ كل الرُّكام الذي وصلنا تحت عنوانٍ أو غيره . ولكن العمل النّقدي ، وليس التّراكمي، هو الطريق الوحيد للاقتراب من القلب الحقيقي للإشكاليّة . ومن المعلوم أن هذا العمل ، فيما نحن فيه ومثلِه ، يبدأ بالسّند بدايةً نقديّةً طبعاً ، لينتهي بمُلابسات الخبر ، واندماجه في سياق الاحداث ، وانسجامه مع منطق الأشياء .

هنا ، وبعد سَبْر المصادر ، وجدنا أن أبا مُخنف هو الوحيد الذي تعامل مع الموضوع بجدّيّة . فتتبّع رُواة أخباره ، وأكثرهم يرتفعون إلى شهود العيان . ثم أوردها مشفوعةً بأسنادها . وبذلك سهّل لنا تركيبها في القصّة ، ومُحاكمتها حيث يلزم . وهذه من بغية المؤرّخ والتأريخ بوصفه فنّاً . ليس بعدها إلا اكتشاف القوانين المُحرّكة ، بوصف التاريخ علماً .

(٢)

ماذا أضاف كتابنا إلى ما هو دائرٌ في الكُتُب والأسماع ؟

يعسُرُ الجواب ، ليس لأن ما أضفناه بالفعل غامض أو غير مَحصور . بل لأنّه إضافةٌ نوعيّةٌ وليست كمّيّةً فقط . بل نقول بعبارةٍ أدقّ ، إنّ التراكم الكمّي ، الذي بدأ من خصوصيّة المنهج ، قد انتهى بحجمه إلى نوعيّ . صورةٌ مشهديّةٌ تضعُ القارئَ في القلب من الحَدَث ، وهو ينمو طوراً بعد طور . انطلاقاً من لحظة لقاء الإمام الحسين (ع) بوالي المدينة ، ذلك اللقاء المفتاح لكلّ ماتلاه ، حتى دفن أهلُ الغاضريّة جسده الشريف ، بعد أن داسته الخيولُ بسنابكها .

يكفي أن يُقارن القارئُ بين الصورة التي قدّمناها ، وبين كلّ ما كُتب على موضوعه ، في كُتُب التاريخ والمقاتل ، ليكتشف وجاهة ما قُلناه.

الشكرُ لله سبحانه على حُسن توفيقه . سائلاً أن يُتابع نعمته علينا .

بعلبك الأربعاء ١١ رجب ١٤٣٩ هـ

٢٨ آذار / مارس ٢٠١٨ م (صادف اليوم ذكرى مولدنا السابع والسبعين) .